ترجمان

أندريه سيغفريد

روح الشعوب

ترجمة: عاطف المولى

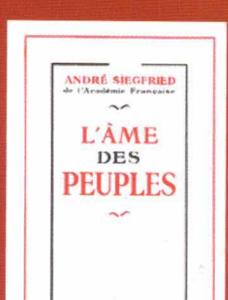


المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

هذا الكتاب

هو محاضرات كان ألقاها أندريه سيغفريد في مناسبات متفرقة ثم جمعها في كتاب، وهو متأثر في اختيار عنوانه بصديقه وزميله غوستاف لوبون. قدّم سيغفريد لهذه المحاضرات بفصل أول تحدث فيه عما كانت عليه حال الشعوب (الغربية) في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية قبل الحربين العالميتين الكبيرتين الأولى والثانية، ثم انتقل إلى الحديث عن خمسة شعوب يرى أنها تمثل أرقى ما في البشرية من حضارة، وهي: اللاتين، والأنكلوسكسون، والألمان، والروس، والأميركيون. وهو باختياره هذا حصر الحضارة في شعوب القارة الأوروبية وامتدادها الأميركي الشمالي.

في هذه المحاضرات يسلط أندريه سيغفريد الضوء على ما يسميه "روح الشعوب"، ويعني بذلك مزاجها النفسي، ليطرح سؤاله الإشكالي: هل تغيّرت هذه الشعوب إثر الحربين العالميتين؟ وجوابه في هذا الكتاب أن روح الشعوب الغربية لم تتغير، وأنها بقيت على ما كانت عليه في الماضي على الرغم من الويلات والكوارث التي عاشتها في النصف الأول من القرن العشرين (صدر الكتاب في عام 1950). وقد هدف المؤلف من كتابه هذا إلى بيان اختلاف أمزجة الشعوب الغربية ونفسياتها، ودراسة خلفيات تكوين تلك الأمزجة والنفسيات وتحليل مكوناتها وأسباب اختلافها، مع حرصه على إبراز مساهمتها التاريخية الحاسمة في تقدم الحضارة البشرية، على اختلاف استعداداتها وإمكاناتها.



المؤلف

أندريه سيغفريد (André Siegfried) 1875-1959 عالم وكاتب وصحافي فرنسي. عُيّن مدرسًا في مدرسة العلوم السياسية في باريس، ثم في معهد فرنسا "كوليج دو فرانس"، ثم عضوًا في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. وفي عام 1933 تسلّم كرسي الجغرافيا الاقتصادية والسياسية في الكوليج دو فرانس، وانتخب عضوًا في الأكاديمية الفرنسية في عام 1944، وهو أول رئيس للمؤسسة القومية الفرنسية للعلوم السياسية (1945). أسس في عام 1954 معهد العلوم والتقنيات الإنسانية. له مؤلفات كثيرة خصوصًا عن البلدان الأنكلوسكسونية وفرنسا، وعن علم اجتماع الانتخابات، وكان صاحب مدرسة في الدراسات السوسيولوجية الأكاديمية تربط بين العوامل المؤثرة جغرافيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، وتنظر إلى مدى تأثير كل منها في الأخرى.

المترجم

عاطف المولى مترجم لبناني كندي، حائز على دبلوم الترجمة من جامعة مونتريال في كندا، من ترجماته: **وثائق السفارة الأميركية بطهران** (1986-1990)؛ **الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة** لروبرت فيسك (3 مجلدات) (2006)؛ **الرأسمالية أم الديمقراطية: خيار القرن الواحد والعشرين** لمارك فلورباييه (2007)؛ ورواية **الضفة الأخرى** لجورج أوليفييه شاتورينو (2007).

- فلسفة وفكر
- اقتصاد وتنمية
- لسانيات
- آداب وفنون
- تاريخ
- علم اجتماع وأنتروبولوجيا
- أديان ودراسات إسلامية
- علوم سياسية وعلاقات دولية

السعر: 8 دولارات

ISBN 978-614-445-074-1

9 786144 450741



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

روح الشعوب

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

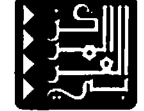
وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

روح الشعوب

أندريه سيغفريد

ترجمة

عاطف المولى



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
سيغفريد، أندريه، 1875-1959

روح الشعوب/ أندريه سيغفريد؛ ترجمة عاطف المولى.

224 ص.؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على ببليوغرافية (ص. 211) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-074-1

1. الحضارة الحديثة. 2. الحضارة الغربية. 3. أوروبا - تاريخ. 4. الثقافة الغربية. 5. الشعوبية - أوروبا. أ. المولى، عاطف. ب. العنوان. ج. السلسلة.

909.82

هذه ترجمة لكتاب

L'Âme des Peuples

by André Siegfried

عن دار النشر

Hachette, 1950

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشـر



شارع رقم: 826 - منطقة 66
المنطقة الدبلوماسية - الدفنة، ص. ب: 10277 - الدوحة - قطر
هاتف: 44199777 - 00974 فاكس: 44831651 - 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب - شارع سليم تقلا - بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 - 11 - رياض الصلح - بيروت 2180 1107 - لبنان
هاتف: 8 - 991837 1 - 00961 فاكس: 1991839 - 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

لوحة الغلاف: «مظاهرة في 17 أكتوبر 1905» للفنان الروسي إيليا ريبين

الطبعة الأولى
بيروت، كانون الأول/ ديسمبر 2015

المحتويات

تقديم المراجع

نبذة عن المؤلف

ولد أندريه سيغفريد في 21 نيسان/أبريل من عام 1875 بمدينة الهافر (Le Havre) الفرنسية، وهي من أكبر مدن شمال غرب فرنسا، وتقع على الضفة اليمنى لمصب نهر السين، كما أنها ثاني موانئ فرنسا في الأهمية بعد مرسيليا، وأكبرها من حيث التحميل والشحن البحري والنهري. وتنبع أهمية الهافر أيضًا من كونها المرفأ الأول للتجارة بين فرنسا وأميركا الشمالية، خصوصًا في مواد القطن والبن والسكر. هذا إضافة إلى موقعها الاستراتيجي ومكانتها الحاسمة في تحقيق الإنزال الناجح لجيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. يقول أندريه سيغفريد إن نشأته في تلك البيئة طبعت نفسه بطابع الميل إلى دراسة الاقتصاد والاجتماع، ثم الولع بمعرفة مختلف الأعراق والشعوب؛ لأن الموانئ كثيرًا ما تستقبل أعراقًا وأقوامًا وشعوبًا متباينة، مما يدفع بأبنائها إلى فضول البحث والتعرف إلى هذا التنوع.

والده جول سيغفريد (Jules Siegfried) كان سياسيًا لامعًا تقلّد مناصب رسمية كبيرة، فكان محافظ مدينة الهافر، ثم نائبًا في البرلمان، فوزيرًا للاقتصاد. وقد حاول أندريه السير على خطى والده في السياسة، إلا أنه تخلى عن ذلك بعد فشله 3 مرات في الانتخابات البرلمانية.

عُرف عن أندريه أنه كان من المفكرين الأحرار ومن البروتستانت، في زمن شهدت فيه فرنسا منع التعليم عن أعضاء الجماعات الدينية (قانون كومب 1904 وصدور قانون الفصل بين الكنائس والدولة 1905).

كان أندريه سيغفريد عالمًا في الاجتماع، والتاريخ، والاقتصاد، والجغرافيا، كما كان كاتبًا وصحافيًا قديرًا.

نال الدكتوراه برسالة عن «الديمقراطية في نيوزلندا»، وعُيّن مدرسًا بمدرسة العلوم السياسية في باريس في عام 1911، ثم انتقل إلى معهد فرنسا «كوليج دو فرانس». وكان مقربًا من عالم الاجتماع الشهير غوستاف لوبون (صاحب كتاب **سيكولوجية الجماهير**)، فنشر في عام 1913 بتأثير منه كتابه المعلم: **لوحة سياسية لغربي فرنسا خلال عهد الجمهورية الثالثة**، وفيه يركّز على تأثير الجيولوجيا في خيارات الناخبين في 15 منطقة من مقاطعات غرب فرنسا خلال فترة تاريخية محددة. وقد اعتبر هذا الكتاب مساهمة تأسيسية في علم اجتماع الانتخابات.

في عام 1932 انتخب عضوًا في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. وفي عام 1933 تسلّم كرسي الجغرافيا الاقتصادية والسياسية في الكوليج دو فرانس. واظب منذ عام 1934على الكتابة في جريدة **لوفيغارو** حتى وفاته في باريس في 28 آذار/مارس 1959. انتخب بعد شهرين على تحرير باريس من الاحتلال النازي عضوًا في الأكاديمية الفرنسية (12 تشرين الأول/أكتوبر 1944). وصار أيضًا أول رئيس للمؤسسة القومية الفرنسية للعلوم السياسية (1945). أسس في عام 1954 معهد العلوم والتقنيات الإنسانية الذي كان صفًا تحضيريًا لدخول المدارس الكبرى[1].

ولأندريه سيغفريد مؤلفات كثيرة خصوصًا حول البلدان الأنكلوسكسونية، وفرنسا، وحول علم اجتماع الانتخابات، وسنورد لائحة بأعماله في ثبت ملحق بهذا الكتاب. كما أن كل الهوامش هي من إضافة المراجع.

وباختصار، فقد كان أندريه سيغفريد صاحب مدرسة في الدراسات

---

(1) المدارس الكبرى (Grandes Écoles) هي بحسب وزارة التربية الوطنية في فرنسا «مؤسسة للتعليم العالي تختار طلابها بواسطة الامتحانات والاختبارات وتؤمن لهم تأهيلًا وتدريبًا على مستوى عالٍ». وهي تابعة للوزارة. أولى المدارس الكبرى أسستها الحكومة منتصف القرن الثامن عشر بهدف إعداد كوادر تقنية وعسكرية للدولة ومؤسساتها وأجهزتها الرئيسة مثل الجيش والتعليم والإدارة المركزية وقطاعات المناجم والاتصالات والمياه والغابات والجسور والزراعة والمرافئ والطب البيطري...

السوسيولوجية الأكاديمية تربط بين العوامل المؤثرة جغرافيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، وتنظر إلى مدى تأثير كل منها في الأخرى.

تعريف بالكتاب

هذا الكتاب عبارة عن محاضرات كان ألقاها أندريه سيغفريد في مناسبات متفرقة، ثم رأى جمعها في كتاب تحت عنوان روح الشعوب، وهو متأثر في اختيار عنوانه بصديقه وزميله غوستاف لوبون[2]. قدّم سيغفريد لهذه المحاضرات بفصل أول تحدث فيه عما كانت عليه حال الشعوب (الغربية) في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية قبل الحربين العالميتين الكبيرتين (1914-1918 و1939-1945)... ثم انتقل إلى الحديث عن خمسة شعوب يرى أنها تمثل أرقى ما في البشرية من حضارة، وهي: اللاتين، الأنكلوسكسون، الألمان، الروس، الأميركيون. وهو باختياره هذا حصر الحضارة في شعوب القارة الأوروبية وامتدادها الأميركي الشمالي.

في هذه المحاضرات يسلط أندريه سيغفريد الضوء على ما يسميه «روح الشعوب»، ويعني بذلك مزاجها النفسي، ليطرح سؤاله الإشكالي: هل تغيّرت هذه الشعوب إثر الحربين العالميتين؟ وجوابه في هذا الكتاب أن روح الشعوب الغربية لم تتغير، وأنها بقيت على ما كانت عليه في الماضي على الرغم من الويلات والكوارث التي عاشتها في النصف الأول من القرن العشرين (صدر الكتاب عام 1950).

---

(2) غوستاف لوبون (Gustave Le Bon) طبيب ومؤرخ فرنسي ولد في مقاطعة نوجيه لوروترو، في فرنسا عام 1841. درس الطب، وقام بجولة في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا. اهتم بالطب النفسي وأنتج فيه مجموعة من الأبحاث المؤثرة في سلوك الجماعة، والثقافة الشعبية، ووسائل التأثير في الجموع، مما جعل من أبحاثه مرجعًا أساسًا في علم النفس، ولدى الباحثين في وسائل الإعلام في النصف الأول من القرن العشرين. كما أنه ساهم في الجدل الدائر يومذاك حول المادة والطاقة، وألف كتابه تطور المواد الذي حظي بشعبية كبيرة في فرنسا. وهو حقق نجاحًا كبيرًا مع كتابه سيكولوجية الجماهير، ما منحه سمعة جيدة في الأوساط العلمية، اكتملت مع كتابه الأكثر مبيعًا الجماهير: دراسة في العقل الجمعي، وجعل صالونه من أشهر الصالونات الثقافية التي تقام أسبوعيًا، لتحضره شخصيات المجتمع المرموقة مثل: بول فاليري، وهنري برغسون، وهنري بوانكاريه. توفي لوبون في عام 1931.

وقد هدف المؤلف من كتابه هذا إلى بيان اختلاف أمزجة الشعوب الغربية ونفسياتها، ودراسة خلفيات تكوين تلك الأمزجة والنفسيات وتحليل مكوناتها وأسباب اختلافها، مع حرصه على إبراز مساهمتها التاريخية الحاسمة في تقدم الحضارة البشرية، على اختلاف استعداداتها وإمكاناتها.

والكتاب في جملته، على الرغم من تعصب المؤلف لفرنسيته بوجه خاص ولغربيته بوجه عام، هو من المراجع المهمة للدارسين والمثقفين ولمن يريد فهم سيكولوجية الشعوب من خلال تأثير العوامل التاريخية والجغرافية والبيئية التي يخضعون لها، ناهيك بالأصول العرقية لكل شعب.

يندرج عمل أندريه سيغفريد في إطار الموجة التي خلفتها كتابات غوستاف لوبون. كان لوبون شخصية خلافية فهو من جهة أزعج العلماء أمثال دوركهايم الذين اعتبروه هاويًا في زمن صارت فيه الطريقة المنهجية في البحث أكثر من ضرورية[3]. ومن جهة ثانية فهو كان يبدو بمظهر العنصري المتمسك بالأيديولوجية العنصرية لزمنه[4]. إلا أنه كان معاديًا للكنيسة ومعارضًا في الآن نفسه للاستعماريين الفرنسيين. وفي الحقيقة، فإن لوبون لم يكن يحمل نظرية عنصرية في تراتب الحضارات وتفاضلها إنما كان يقول بوجود اختلافات بينها لجهة مراحل تطورها. وقد عُرف عنه أيضًا بأنه أحد أشهر فلاسفة الغرب الذين أنصفوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية، فلم يَسِر على نهج كثير من مؤرخي أوروبا الذين صار من تقاليدهم إنكار فضل الإسلام على العالم الغربي. لكن لوبون الذي ارتحل في العالم الإسلامي وله فيه مباحث اجتماعية، أقرَّ أن المسلمين هم مَن مدَّنوا أوروبا، فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقده، وأن يُبديه للعالم في صورته الحقيقية؛ فألف عام 1884 كتاب حضارة العرب[5] جامعًا لعناصر الحضارة العربية وتأثيرها في العالم، وبحث في أسباب عظمتها وانحطاطها وقدمها للعالم تقديم المدين الذي يدين بالفضل للدائن.

---

(3) Véronique BEDIN et Martine FOURNIER (dir.), *Gustave Le Bon, La Bibliothèque idéale des sciences humaines* (Paris: Sciences humaines, 2009).

(4) Laure Hillerin, *La comtesse Greffulhe, L'ombre des Guermantes* (Paris: Flammarion, 2014).

(5) Gustave Le Bon, *Civilisation des Arabes, Livre I à VI* (Paris: Firmin-Didot, 1884).

وقد توقع انبعاث أفريقيا في القرن العشرين. وبعد رحلة له في الهند نشر عام 1887 كتابه الآخر المهم: حضارة بلاد الهند. وكان لوبون في هذه الكتب على عكس الكونت دو غوبينو[6]، يرفض أسطورة «العرق الأبيض» ويدين بشدة كل دعاة التفوق العنصري من القوميين الاجتماعيين، ويحذر من النازيين خصوصًا، وذلك منذ عام 1924. وقد ظهر كتابه سيكولوجية الجماهير في عام 1895 ليشكل منعطفًا في حياة الطبيب من حيث إن أفكار الكتاب أدت دورًا مهمًا مطلع القرن العشرين، حتى أن سيغموند فرويد على الرغم من بعض تحفظاته اعتبر أن لوبون يقدم سيكولوجية تقترب كثيرًا من سيكولوجيته حين يركز على دور اللاوعي في الحياة النفسية[7]. وفي عام 1921 استند فرويد في كتابه **علم النفس الجمعي وتحليل الأنا** إلى قراءة نقدية لكتاب لوبون **سيكولوجية الجماهير** وأشار إليه وإلى أعماله خصوصًا حول التحولات التي تحدث للأنا حين يكون داخل جماعة أو مجموعة فاعلة متحركة، وكتب فرويد في إحدى فقراته: «وهنا أترك الكلام للوبون»[8]. في عام 2010 اعتبر كتاب لوبون واحدًا من بين 20 كتابًا غيرت العالم وهي الكتب التي نشرتها جريدة لوموند ومنشورات فلاماريون[9]. وفي مقدمته لكتاب لوبون كتب ماثيو كوياشا منتقدًا «من يزعمون أن الكتاب قد ساهم في التمهيد للفاشية»، ووصف الكتاب بأنه «مساهمة أساسية في السيكولوجيا الجمعية، وفي فهم الظاهرة الغامضة التي هي الجمهور/ الدهماء أو العوام. إن سيكولوجية الجماهير لغوستاف لوبون تدين بشعبيتها لحقيقة أن هذا الكاتب الساحر الغامض قد عرف كيف يعبر عن قلق معاصريه وحيرتهم حيال بعض مظاهر الحداثة. وهذا الكتاب هو نص تأسيسي لعلم النفس الاجتماعي، ووثيقة تاريخية رائعة».

---

(6) جوزيف أرتور دو غوبينو (1816-1882) (Joseph Arthur de Gobineau) دبلوماسي وكاتب فرنسي نال شهرة كبيرة بسبب كتابه المعنون: بحث حول اللامساواة بين الأعراق البشرية (*Essai sur l'inégalité des races humaines*) (1853-1855)، الذي وضعه في مصاف آباء الفكر العنصري. وهو مؤلف روايات رومنطيقية أيضًا كما كان له مساهمات تاريخية ولغوية عن إيران القديمة.

(7) Sigmund Freud, *Psychologie collective et analyse du moi* (Paris: Payot, 1921), p. 16.

(8) Ibid., p. 9.

(9) Gustave Le Bon, *Psychologie des foules, collection: Les livres qui ont changé le monde* (Paris: Félix Alcan, 1895).

أعيد اكتشاف لوبون في فرنسا عام 1981 بفضل سيرج موسكوفيتشي[10] وذلك بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاته، وصدور كتاب موسكوفيتشي **عصر الجماهير/العوام** (*L'Âge des foules*) الذي يتحدث عن الآباء المؤسسين لعلم النفس الاجتماعي وهم لوبون وغبريال تارد وسيغموند فرويد. وبرأي موسكوفيتشي فإن لوبون هو «مكيافيلي» مجتمعات الجماهير وهو أول من التقط أهمية دور الجماهير في الصيرورة التاريخية ووضع لها تصنيفية نموذجية.

وقد تحققت صحة معظم أفكار لوبون إلى حد كبير، خصوصًا ما قاله عن ميل الجماهير إلى الخضوع الطوعي. كتبت حنة أرندت في هذا: «إن واقع كون النظام التوتاليتاري على الرغم من جرائمه الظاهرة للعيان قد استند إلى الجماهير هو أمر مقلق للغاية»[11].

كان غوستاف لوبون الرائد في نحت مفهوم «الجمهور العام» المستخدم اليوم في علم اجتماع وسائل الإعلام. وفي الحقيقة فإن «الجمهور العام» بالمعنى السوسيو - نفساني لا يمكن أن نجده متحققًا جسمانيًا إلا بوصفهم مشاهدي تلفزة أو مستخدمي إنترنت أو جمهور محمسين في الملاعب. ويشكل أعضاء هذا الجمهور في لحظة محددة جماعة تشترك في النشاط نفسه وتشارك المشاعر نفسها. ولو أنه عاش إلى ما بعد عام 1931 لكان بإمكانه اكتشاف مدى تأثير وسائل الإعلام الجماهيرية (*mass-media*) والتحقق من صوابية حكمه الذي أطلقه عام 1924: «مع استخدام الوسائل الحديثة للإعلان يمكن إطلاق رأي ما أو عقيدة ما، وتعميمها ونشرها مثلها مثل أي مستحضر من المنتوجات الصيدلانية».

---

(10) سيرج موسكوفيتشي (1925-2014) (Serge Moscovici) من مواليد رومانيا عاش ودرس وصار مشهورًا في فرنسا. وهو من كبار علماء النفس الاجتماعيين ومن المنظرين لعلم البيئة السياسي. كان مديرًا لمدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية بباريس وأحد مؤسسي علم النفس الاجتماعي ومديرًا لمختبر علم النفس الاجتماعي ومؤسس المختبر الأوروبي لعلم النفس الاجتماعي في بيت العلوم الاجتماعية بباريس (1976-2006)، وأول رئيس للجمعية الأوروبية لعلم النفس الاجتماعي التجريبي.

(11) Hannah Arendt, *Les origines du totalitarisme* (Paris: Seuil, 1950).

مصطلح روح الشعب

من جهة أخرى يبدو أن أندريه سيغفريد يستخدم المعنى الذي يحمله المصطلح الألماني Volksgeist حين يتحدث عن «روح الشعب»؛ والمقصود هو «الطابع القومي الخاص بكل شعب» أو «الروح الجماعية التي تمتلكها كل أمة أو شعب». والفكرة أطلقها على ما يبدو الفيلسوف الألماني هردر[12] لتحميس الشعوب الناطقة بالألمانية على بناء هوية ثقافية وقومية. كان هردر أول من أطلق الشعور القومي الألماني وقد ساوى بين الجرمان والقوط مفضلًا كل ما هو قوطي في الفن، ودعا الجرمان إلى حمل رسالة قومية في ميدان اللغة. وهو كان من أوائل الذين قالوا إن اللغة تحدد الفكر. وقاده تركيزه على اللغة والتراث الثقافي إلى اعتبارها الرابط الذي يخلق «أمة» مضيفًا إليها الفولكلور والرقص والموسيقى والفن. وعلق هردر أهمية قصوى على الوطنية والشعور الوطني: «من يفقد شعوره الوطني يفقد ذاته ويفقد كل العوالم التي تحيط بذاته»، و«كل كمال إنساني هو عمل وطني أولًا». وقد أخذ هردر نظرية الفولكلور إلى أقصاها مؤكدًا أن هناك طبقة واحدة في الدولة هي «الشعب» (*Volk*) ينتمي إليها الملك كما الفلاح، مضيفًا أن الشعب ليس «العوام»؛ وبذلك ظهر مع هردر مفهوم «الشعب» السياسي الحديث «the people»، بوصفه قاعدة لولادة جسم قومي متراتب هرميًا، ولكن غير طبقي.

---

(12) يوهان غوتفريد فون هردر (1744-1803) (Johann Gottfried von Herder) فيلسوف ألماني ولاهوتي وشاعر وناقد أدبي. ارتبط اسمه بحقبة التنوير (Enlightenment)، وحقبة العاصفة والشغف (Sturm und Drang)، وكذلك بكلاسيكية فايمر (Weimar Classicism). وقد ولد هردر في أسرة فقيرة في مملكة بروسيا وتعلم وحده على كتاب التوراة وكتب الأناشيد الدينية التي كانت لوالده. دخل الجامعة في عام 1762 وعمره 17 سنة وصار تلميذًا للفيلسوف كانط. صار كاهنًا عام 1764 وسافر إلى فرنسا وتنقل فيها حتى وصل ستراسبورغ عام 1770، حيث قابل الشاب غوته الذي استوحى من نقد هردر الأدبي تطوير أسلوبه الخاص. وكان ذلك بداية ما عرف باسم حقبة «العاصفة والشغف». استخدم غوته لاحقًا نفوذه في فايمار لتأمين منصب لهردر مراقبًا عامًا لمدينة فايمار التي تحولت إلى أهم مركز أدبي فلسفي فني في أوروبا كلها. وفي عام 1776 بدأ هردر ينتقل إلى الكلاسيكية التي انتعشت في فايمار. في آخر حياته تبنى هردر الثورة الفرنسية ما أدى إلى عداوات كبيرة من معظم أصدقائه. كما شهدت الفترة نفسها افتراقًا عن صديقه غوته. وما زاد في عزلته حملاته المتكررة ضد الفلسفة الكانطية.

ولكن هردر لم يستخدم مصطلح Volksgeist، إنما كان هيغل أول من استخدمه عام 1801. وبعض المفكرين يعزو إلى مونتسكيو وفولتير فكرة روح الشعوب، وبعضهم الآخر ينسبها إلى إرنست رينان[13] الذي تحدث بالفعل عن «روح الأمة» وعن «عبقرية العنصر» (العرق)، ما أدى إلى وسم المفهوم بالعنصرية التي لم يكن رينان بعيدًا منها خصوصًا ضد العنصر السامي (العرب واليهود على حد سواء).

(13) جوزيف إرنست رينان (1823-1892) فيلسوف ومؤرخ فرنسي متخصص في لغات الشرق الأوسط القديمة وحضاراته. ولد وعاش في منطقة بروتانيا الفرنسية واشتهر بكتاباته التأريخية عن المسيحية واليهودية وبنظرياته السياسية حول الأمة والهوية القومية. ولعل أشهر كتبه وأخطرها هو حياة يسوع (*Vie de Jésus*) الذي ألفه بطلب من أخته هنرييت التي توفيت في جبال لبنان. في كتابه هذا يجعل رينان من يسوع إنسانًا تطهّر من يهوديته (العرق السامي) ليصير آريًا... كانت تلك أولى بذور نظرته العنصرية ضد السامية وتمجيدًا للعرق الآري. أثار كتابه موجة كبيرة من النقد والاحتجاج وبالأخص عند الكنيسة الكاثوليكية وفي أوساط اليهود. واشتهر من ناحية أخرى بسجاله مع السيد جمال الدين الأفغاني حول العرب ومدى مساهمتهم في نهضة الإسلام وفي الحضارة الإسلامية التي اعتبرها غير عربية أصلًا؛ كما اعتبر أن الإسلام والعلم لا يتفقان.

ولعل تعريف رينان للأمة هو ما يفيدنا هنا. فالأمة هي «الجماعة المشتركة التي أنجزت أعمالًا كبيرة بوصفها جماعة، والتي تطمح إلى إنجازات أخرى معًا أيضًا».

«avoir fait de grandes choses ensemble, vouloir en faire encore» **(having done great things together and wishing to do more).**

وقد اعتبر رينان أن الخصائص العرقية فطرية ومحدَّدة بشكل حاسم لشخصية أي شعب. واعتبر أن «العرق السامي» أحط من العرق الآري، وأن العقل السامي محدود بسبب جموده وفقدانه أي منظور حضاري كوني. وبحسب رينان، فإن الساميين هم «عرق غير مكتمل». وأمام وجود يهود أوروبيين (الأشكناز) اخترع رينان نظرية الخزر والتي تقول إن هؤلاء الأشكناز يتحدرون من لاجئين من الشعوب التركية القديمة التي اعتنقت اليهودية وهاجرت بعد انهيار مملكة الخزر صوب الأراضي الألمانية واخترعت لنفسها لغة جديدة هي اليديشية وبقيت على ديانتها اليهودية.

الفصل الأول
الوجه الجديد للعالم

ثمة في سيكولوجية الشعوب أصل للدوام مستمر لا يزول. فنحن مثلًا نشبه أجدادنا الغاليين في كثير من خصالنا. كما أننا نجد بلا ريب عند الألمان والإسرائيليين اليوم، الخصال والميزات الخاصة بالبربر واليهود التي وصفها المؤرخ اللاتيني تاسيت[1] (Tacite) في زمانه. ومع ذلك، فقد حصل بلا شك نوع من التكيفات والاختلاطات بين الشعوب. ولسوف نسائل أنفسنا في الصفحات التالية لهذا الكتاب عن ما يشكل الأساس الصلب للشعوب الغربية، وإلى أي حد هم الآن مهيأون للتكيّف مع الظروف الثورية التي يعيشون في خضمها؟

لقد عرفت هذه الشعوب في خلال ثلاثين سنة حربين عالميتين، ليستا ككل الحروب، غيّرتا وجه العالم، وتوازناته. ونحن ندرك جيدًا أن ما حصل لم يكن مجرد تطور عادي لا أكثر ولا أقل، بل إن ما وقع كان في الأحرى «ثورة» بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى: لم يبق شيء في مكانه، وقيمة الأشياء لم تعد كما كانت عليه، وقد انقلبت العلاقات الإنسانية بين الناس رأسًا على عقب. لا بل إن الفكرة التي يحملها الناس عن العالم وقوانينه، قد أصابها كثير من الاضطرابات والانقلابات المفاجئة، بحيث إنها زعزعت حتى أسس الأخلاق وطرائق التفكير. والحال أن هذه الأزمة كانت كامنة وتتحضر منذ مدة طويلة. وقد شعر كل إنسان في نهاية القرن الماضي (التاسع عشر) بالنتائج العميقة

---

(1) تاسيت، باللاتينية تاسيتوس (Tacitus)، مؤرخ وسناتور روماني عاش بين عامي 58 و172 للميلاد.

للثورة الصناعية. فالمكننة حين تسللت إلى كل مكان، تسللت إلى كل شيء أيضًا، مزعزعة الأطر الدهرية لمجتمع ثبتت أصوله التي كانت ولا تزال مؤثرة منذ قرون. ويجب أن نشير هنا إلى أن الحربين العالميتين لم تتسببا بحد ذاتهما في حدوث ما حدث، بل إن دورهما كان في التعجيل فحسب، وبوتائر ضخمة، بإحداث تلك الحركة العميقة التي كانت خليقة أن تحدث على كل حال.

نحن إذًا أمام شيء جديد، لم يكن هناك البتة ما يهيؤنا له في الماضي. وعندما نجيل النظر في ما يحيط بنا، بنظرات قلقة ولكن فضولية في الآن نفسه، فإننا نشعر بالدهشة البدئية لذلك الإنسان الذي يخرج من مخبئه بعد انتهاء قصف القنابل، حيث يسأل نفسه عما سيجده متبقيًا من بيئته الحميمة التي ألفها سابقًا. والحق أن العالم الذي يحيط بنا، هو في الحقيقة عالم جديد جغرافيًا بالنسبة إلينا: من الآن فصاعدًا هو عالم متمحور خارج أوروبا أكثر مما هو أوروبي، ومركز ثقله لم يعد كما كان. وقد مر وقت أدركنا فيه جيدًا أننا نعيش في القرن العشرين الذي احتجنا إلى كثير من السنوات كي نعتاد عليه، أو بالأحرى كي نستسلم له. إن شخصية هذا القرن تبدو لنا الآن أنها تشكل تناقضًا ملموسًا مع سلفه، ذلك القرن الأحمق، ولكن لربما المأسوف عليه (القرن التاسع عشر). وإنه لشيء مؤثر جدًا أن تلك النكبات علّمت العالم القديم تشاؤمًا لم يكن في الواقع صنع يديه: فآباؤنا، (بل نحن أنفسنا أيام شبابنا)، كانوا يعتقدون بإيمان راسخ في حقيقة «التقدم»، ولم يكن في مقدورهم بتاتًا أن يتصوروا الأرض الموعودة في مكان آخر غير المستقبل. ويحدث أن نسأل أنفسنا اليوم إن لم تكن تلك الأرض موجودة حقًا في الماضي.

(1)

كان القرن التاسع عشر يظن نفسه عن حسن نية أنه قومي وإمبريالي: فهو قرن عرف نفسه على أنه عصر بسمارك[2] (Bismark) وماكينلي[3] (McKinley).

---

(2) أوتو فون بسمارك (1815-1898) (Otto von Bismarck) رجل دولة ومستشار مملكة بروسيا من 1862 حتى 1870 ثم مستشار الإمبراطورية الألمانية من 1871 حتى 1890.

(3) وليام ماكينلي (1843-1901) (William McKinley) رئيس الولايات المتحدة الأميركية من عام 1897 حتى عام 1901.

ولكن الحقيقة هي أنه كان عصرًا أمميًا وتحرريًا. فقد حقق العرق الأبيض الغربي، لنقل الأوروبي، في ظل ذلك العصر، نمطًا من أنماط الوحدة العالمية التي تعيد ذكرى وحدة الإمبراطورية الرومانية. فقد كنا ما إن نغادر أوروبا، ندخل بقوة في نوع من الجمهورية التجارية الدولية (المصطلح نحته إيلي هاليفي[4])، التي تشتغل في ظل الرعاية البريطانية، حيث يتمتع بها البيض، كائنًا من كانوا، بالحقوق ذاتها. وكنا نصطدم بلا أدنى ريب مع القومية ومع النزعة الحمائية، ولكن نتائجهما تظل في نطاق ضيق، ومضبوطة دائمًا؛ لأن الجو العام يومها كان جو التبادل لا بل حرية التبادل على وجه التقريب.

وإذا رجعنا بذاكرتنا إلى الوراء، محاولين أن نستنتج الصفات المميزة لذلك العصر شبه المنقضي، تتملكنا الدهشة ليسره وسهولته: سهولة التبادل ويسر المواصلات، على الرغم من البون الشاسع بين طرق مواصلاته البدائية، مقارنة بالإنجازات العجيبة والممتعة في أيامنا هذه، وبالأخص سهولة الرحلات، في عالم ذهب مع عميق الأسف إلى غير رجعة، والذي كان فيه الناس ينتقلون بحرية تامة ومطلقة لا تقف معها في طريقهم حدود أو جوازات سفر أو ضرائب. إن استقرار هذه الأزمنة الماضية لا يزال يدهشنا أكثر أيضًا، فالتعريفات الجمركية، والمعاهدات التجارية القائمة على ما يشبه عدم الاستمرار، أي قابليتها للتغير، كانت قاعدة ثابتة تسهل بها عملية المحاسبة. وقروض الحكومات كانت قائمة على دعائم مالية قوية الأركان، لدرجة أن معاصريها اعتقدوا أنها ستستمر إلى الأبد. كما أن المتانة النقدية المعتمدة على الذهب كانت تسمح بمقارنات معقولة بين الأسعار، لفترات زمنية تمتد إلى خمسين عام أو إلى قرن تقريبًا.

وأخيرًا، فإنه في هكذا أوساط، تكون التوقعات ممكنة، حيث هناك نوع من الاستقرار التعاقدي؛ فالتوقيعات بالأسماء كانت محترمة (وهي لا تزال أحيانًا محترمة اليوم، ولكن في تلك الأيام لم يكن ليخطر ببال أحد تهنئة من يلتزم بكلمته وكأنه بطل). وكان هذا الاستقرار ينعكس أخيرًا على البنيان المجتمعي، لأن الرجل الأوروبي أو الغربي كان لا يزال متجذرًا في الوسط الذي يعيش فيه،

(4) إيلي هاليفي (1870-1937) (Élie Halévy) فيلسوف ومؤرخ ليبرالي فرنسي متخصص بالمملكة المتحدة.

الأمر الذي لم يعد على هذه الحال اليوم؛ وكان الفلاح في تلك الأزمنة متعلقًا بأرضه، كما تتعلق الشجرة بالأرض، وكان نقله من أرضه يعني فقدانه كليًا لمحور حياته؛ والصانع الحرفي كان يعيش من تقاليد حرفته، وكل الصناعات، حتى الميكانيكية منها، كانت لا تزال منطبعة بروح المهنة التي ظل مصدرها في العمق نابعًا من الحرفة القديمة. وحتى البورجوازي، بدا وكأنه لا ينفصل عن الإطار الذي يعيش فيه، مدعومًا ومحدودًا بحسه في التوفير، وديانته في النظام، ورغبته في أن ينقل إلى وارثيه أفضل مستوى من المعيشة.

وقد آمن أهل ذلك العصر مخلصين أن ذلك النظام أمر طبيعي، ثابت، أراده الله، ولم يكن ليداخلهم شك في أن هذا النظام حتمًا دائم. فإنجازات العلم المبهرة كانت تملأ نفوسهم ثقة وإعجابًا. وكانوا يعتبرون أن «التقدم والحرية» هما بالضرورة وحدة لا تتجزأ. ولم يكن يجري في تصورهم أنه يمكن حصول ردة أو ارتجاع إلى الوراء ولو رجوعًا زمنيًا، في طريق الإنسانية الصاعد إلى الأمام. ومع هذا، فإن بذور الأزمة كانت هنا، وقد كان ممكنًا أن نلحظ وجودها في الآثار الملموسة الواضحة للمكننة، وللتمركز الصناعي، وفي الوجود الملح يوميًا لمشكلة اجتماعية تبحث عن الإنسان داخل المنتِج، وفي النمو السريع لبلدان من خارج أوروبا، صارت هي منافسنا للمستقبل. والحال أنه لم يلاحظ أحد شيئًا ولفترة طويلة من الزمن. وأنا أتذكر تاريخًا أعتقدنا أنه تاريخ قدري وهو الحادي والثلاثون من كانون الأول/ ديسمبر عام ألف وتسعمئة، أي بداية القرن الجديد. ففي أمسية ذلك التاريخ على وجه التحديد، كنا نتبادل التهنئة بكلمة «قرن طيب» بدلًا من «سنة طيبة»، ومع شيء من الوقار. وفي اليوم التالي لهذه الأمسية، وعند خروجي من المنزل، كنت أنظر بفضول إلى الشارع وحركة المرور فيه، لأرى ما طرأ عليه من تغيير. بيد أن كل شيء كان كعهدنا به، كالعادة. ولفترة طويلة لم نعد نفكر في هذا الأمر: كان القرن التاسع عشر مستمرًا. حتى أن المجلة الإنكليزية الشهيرة **القرن التاسع عشر** لم تكن قد قررت تغيير هذا الاسم، بل إنها أضافت إليه ببساطة هذه العبارة: «وما بعده»، (أي صار اسمها **القرن التاسع عشر وما بعده**)، وكان ذلك يعني برنامجًا كاملًا مبنيًا على وهم أن ما سيصير بسرعة ماضيًا، سيستمر ويبقى.

كانت حرب عام 1914 صحوة أولى، ولكننا كنا لا نزال نعتقد بإمكان أن نرجع بعد ذلك إلى الوضع الذي كان قائمًا، وكان ذلك على ما نذكر هو الحلم الفطري الساذج لجمهرة غفيرة من الناس. وكانت أزمة عام 1929 العالمية هي الأزمة التي حتمت الظروف وقوعها لتفتح أعين الإنسانية الغربية وكي تجعلها تعي أن صفحة قد طويت، ليس الآن فحسب، وإنما منذ وقت طويل: فنحن الآن في القرن العشرين... وقد استلزم الأمر انقضاء ثلاثين عامًا كي ننتبه إلى ذلك. وكانت الحرب العالمية الثانية هي الكفيلة بأن تبدد أي وهم كان قد بقي عالقًا في أذهاننا. ونحن اليوم نعرف من دون أي شك أن ثورة قد حدثت وهي تتجاوز طابع السياسة وأن لها بعدًا إنسانيًا كونيًا؛ ونحن نسبح الآن في المياه العميقة للقرن العشرين، وكما يقول الفيلسوف الفرنسي إميل ليتريه[5] (Émile Littré): نحن نشعر أيضًا أننا لا نملك بوصلة أو أشرعة في هذا المحيط الذي لم نعد نرى له شواطئ.

(2)

إذًا فيمَ غيرت هاتان الحربان العالميتان العالم؟ وهما اللتان تعتبران نقطتي انطلاق لحوادث كبيرة، بحيث منحتانا هذا الشعور بالثورة الذي لا يبارح ذهننا أبدًا.

هنالك أولًا ثورة في التوازن الداخلي للدول. فقد تغيّرت ظروف السلطة السياسية. فالحروب إذ أصبحت حروبًا كلية، وضعت بين أيدي الحاكمين قوة، وهذه القوة ليست سياسية أو عسكرية فحسب، بل اقتصادية واجتماعية وفنية، بحيث إن المصالح الخاصة التي لا تقوى على الدفاع عن نفسها، أصبحت أكثر التصاقًا بمصلحة المجموع. مثل هذا النظام هو الذي فرضه التوتر وصخب المعارك، ولكن لا ينبغي أن ننخدع، فالدولة لن تستغني عن الأسلحة التي حصلت عليها نتيجة تلك الظروف الاستثنائية. إنها ستحافظ عليها وستحاول

---

(5) إميل ليتريه (1801-1881) (Émile Maximilien Paul Littré) قاموسي موسوعي فرنسي وفيلسوف ورجل سياسة اشتهر خصوصًا بفضل قاموسه للغة الفرنسية الذي صار يعرف باسم قاموس ليتريه.

تدعيمها، ثم إنها بعد ذلك، وكي تبرر موقفها أمام جمهرة الشعب، ستستخدمها لتشبع رغبات الشعب المادية والعاطفية معًا (أي وبلغة العصر: بطاقة التموين والرياضة والسينما)، فضلًا عن عطش الجماهير البدئي إلى المساواة. إن الجموع البشرية في حالة عدم مقدرتها على استخدام السلطة السيادية التي اعتُرف لها بها تبعًا لاتفاق ضمني، لا تستطيع في عصر أصبح فيه التنظيم الكبير شرطًا لا غنى عنه لأي حياة جماعية متطورة، إلا أن تفوّض بالكامل هذه السلطة للحكومات. وتحوّل السلطة من الجموع البشرية إلى الحكومات يؤدي بالطبع إلى دكتاتورية رجل واحد، أو حزب واحد، أو بيروقراطية... وفي آخر المطاف إلى الاستعباد الذي تضعه الحكومات في إطار نستمر بحكم العادة على تسميته إطارًا ديمقراطيًا.

ويبدو أن هذا الاستعباد قد جرى الخضوع له وقبوله من دون ألم. فهل هو كسل أو تعب، أم هو قصور؟ إن الفرد على وجه العموم، وحتى في مجتمعاتنا الغربية، لم يعد يقبل أن يهمل متروكًا أمام مسؤولية شخصه، وأن يُترك إلى مبادرته الخاصة، فهو يطالب، ويتطلب، وفي الأخير يجد أنه من الطبيعي أن تقوم الحكومة بأوده، فيرتمي بين يديها كما المفلس بين ذراعي وكيل التفليسة، وبهذا فإنه لا يعود حرًا. ولكن قد يحلو لنا أن نسأله إن كان يهمه أن يكون كذلك ما دام الأمن والأمان قد أصبحا همه الأول. كما أن المجتمع يتجه إلى أن يصبح أكثر مساواة، وأكثر تعاونًا وتضامنًا، ولكن أقل حرية. وستبدو الليبرالية مذهبًا غير متعارف عليه في نظر المثقفين أو من يوصفون بالرقي؛ ومعنى ذلك: أنك تصبح رجعيًا إذا ما دافعت عن الفرد ضد التنظيم، لأن التنظيم هو التقدم، أو اليسار... ويا لها من كلمة لا يستطيع المرء معها شيئًا.

ويجب علينا في هذا المقام أن نقرر أن الشروط الحديثة للإنتاج الصناعي تتعارض مع المبادرت الفردية والحريات الشخصية. فبعد مرحلة المهنة/ الحرفة التي تقوم على استعمال الآلة اليدوية البسيطة باعتبارها امتدادًا للذراع، أي للعقل، جاءت المرحلة الميكانيكية التي تقوم على الآلة الميكانيكية (الماكينة) والتي تؤرخ لزمن سيطرة المهندس وسيادته. لكننا دخلنا الآن في ما يبدو مرحلة

أخرى جديدة تراجعت فيها التقنية الخالصة أمام سيادة التنظيم. ففي هذا العصر الإداري الذي تتطلب فيه الإدارة المعقدة للمشاريع، وجود رؤى شمولية وحسًا عميقًا بالإخراج (الفني)، صارت الوحدة الجامعة في الإنتاج ضرورة ملحة، لأنه لم يعد مقبولًا أن تعمل في حدود جهود متفرقة... رجل الإنتاج الجماعي يحل محل رجل الفوضى الفردية.

إن الحرب إذ أجبرت الحكومات على أن تسيطر على الإنتاج بروح توتاليتارية، قد عجلت كذلك بهذا التطور الذي حافظت فيه التقنية على دورها الحيوي، والذي أصبحت فيه أيضًا صفات التنظيم هي أكثر الأشياء ضرورة بصورة مباشرة. إن عامي 1914 و1939 يعتبران من هذه الوجهة مرحلتين حاسمتين، لأن هذه الصفات قد دعمت تركيز الصناعات أو تجميعها، وفرضت في عدد من الحالات «وحدة تخطيط الصناعات الرئيسة» من زاوية المصلحة القومية وتحت إشراف الدولة. وبتطورها هذا فقد زادت المنشأة الكبيرة بالطبع من مدى سلطانها، وأصبحت منطقيًا مشروعًا سياسيًا يبحث بالتالي عن وضع يده على الدولة. كي تدافع الدولة عن نفسها، حاولت مجتهدة بدورها أن تتسلط على المنشأة وأن تبتلعها. وعلى أي حال، فقد تقلص إشراف السلطات العامة من دون أن يؤدي ذلك إلى تحديد الدولة. ومن هنا يأتي ذلك الإغواء الرهيب للقوة أو لسوء استعمالها، لا بالنسبة إلى الدولة ذاتها فحسب (وهي مقولة مجردة)، بل أيضًا بالنسبة إلى أولئك الذين يمارسون - في الواقع - الحكومة. فالقوى المضادة للعصر الليبرالي لم يعد لها وجود شيئًا فشيئًا أمام ظهور ذلك الجسم الكبير الذي ينيخ بكلكله على الفرد.

في مثل هذه الظروف، فإن كل مشكلة تنحو إلى أن تكون إدارية، ومن ثم سياسية بطريق غير مباشر. فالحلول الفردانية التي كانت لا تزال شبه قاعدة عامة في القرن التاسع عشر لم تعد تكفي أو تشفي غليلًا. أما الآن، فقد أوجب الوضع الراهن حلولًا من جانب الدولة يُعبّر عنها في صيغة قوانين ومراسيم تتضمن تنظيمات أو أوامر لا يحصيها العد، ولا يمكن نقضها؛ ذلك أننا نجد اليوم عددًا لا حصر له من المشاكل تتعلق بالجماعة بوصفها كلًا من مثل: الصحة والمسكن والغذاء والإعانة والضمان الاجتماعي والعلاقات بين

أصحاب العمل والعمال، والإنتاج الصناعي، والتي تعجز المبادرة الفردية عن حلها. فعدد الساعات التي يجب أن نخصصها من حياتنا للإجراءات الإدارية، قد ارتفع عن ذي قبل، فضلًا عن أن جزءًا كبيرًا من نشاط المنتجين يضيع في إجراءات مكتبية، وهذا ما يتطلبه ويفرضه علينا «العصر الإداري»، وإذا لم يتعقلن العصر الإداري، على منوال ما فعله «العصر الميكانيكي»، فإن البنيان الاجتماعي الوسخ الأدرن لا بد وأن ينهار.

ومع ذلك، وفي هذا التيه المحزن ربح الكائن البشري كثيرًا، لأنه لم يعد، كما كان في ظل النظام الليبرالي العدواني والشامل، «عامل إنتاج» بالتكلفة فحسب. فالعمل النقابي والحركات المختلفة للإصلاح الاجتماعي، والعقيدة الإنسانية التي أطلقها البيان الفاتيكاني[6] (*Rerum Novarum*) فرضت في أشد أزمات الإنتاج وأعنفها، مبدأ احترام الإنسان. فهل يجد الكائن الإنساني في هذا الاحترام ما يعادل تقدمًا ما؟ إن ما ربحه الفرد من جانب قد فقده مع الأسف من جانب آخر؛ فالمجتمع سيتهدده بسرعة الجمود والتصلب إذا لم يجد من جديد في مبادرة الفرد مصدر حياته الذي لا يُعوّضه أي مصدر آخر. إنه، بكلمة، توازن جديد علينا إيجاده. والبحث عن هذا التوازن هو من عمل الأجيال الصاعدة. ولكن إذا فقد الفرد ذاته في مغامرة هذا البحث، فإن الإنسانية جمعاء، قد ترجع القهقرى تحت مظهر خداع من التقدم التقني.

وبالمقابل نرى أمامنا حدوث تغيّر كامل في توازن الكوكب الأرضي؛ وها نحن كذلك في عصر المواصلات السريعة. فقد خلق لنا هذا العصر على حد تعبير بول موران[7] (Paul Morand) رذيلة جديدة وهي السرعة؛ ونحن لا نستطيع

---

(6) «في التغيير الثوري» (*Rerum novarum*) هو منشور بابوي فاتيكاني صدر في 15 أيار/ مايو 1891 عن البابا ليون الثالث عشر (1810-1903)، يشكل النص التأسيسي للعقيدة الاجتماعية للكنيسة الكاثوليكية. وقد صدر المنشور بتأثير من صعود حركة «المسيحيين الاجتماعيين» جوابًا عن المسألة الاجتماعية، فأدان البؤس والفقر اللذين تتخبط فيهما الطبقة العاملة كما أدان بالقوة نفسها الاشتراكية الإلحادية وتجاوزات الرأسمالية، وشجع على العمل النقابي المسيحي.

(7) بول موران (1888-1976) (Paul Morand) كاتب ودبلوماسي وأكاديمي فرنسي يعتبر أحد آباء «الأسلوب الحديث» في الأدب.

أن نتخلص منها، أما فوائدها فأمر مشكوك فيه. لقد ألغت الطائرات المسافات، فيا للتناقض بين تنقلاتنا اليوم وبطء تنقلات أجدادنا وآبائنا؟ وبحسب ما عرفته من مذكرات جدي، فإن رحلته التي قام بها في عام 1821 من مرسيليا إلى مدينة تربيزوند (طرابزون التركية على البحر الأسود)، بسفينة شراعية، استغرقت ستة وعشرين يومًا. أما اليوم، فتستغرق الرحلة من باريس إلى القاهرة أو من باريس إلى اسطنبول يومًا واحدًا فحسب.

في عام 1861 قام أبي برحلة من ميناء الهافر إلى نيويورك في سبعة عشر يومًا. وفي عام 1938، استغرقت مني هذه الرحلة على الباخرة «نورماندي» أربعة أيام ونصف اليوم. وهناك مثل آخر أكثر وضوحًا: فمن برانكيلا التي تقع على الشاطئ إلى بوغوتا عاصمة كولومبيا في أميركا اللاتينية والتي تقع على الهضاب العالية لجبال الأنديز على بعد ألف كيلومتر في الداخل، كانت الرحلة تستغرق منذ خمسة عشر سنة أو عشرين سنة مضت، خمسة عشر يومًا. ولكني قمت بالرحلة نفسها، وقطعتها في ثلاث ساعات ونصف الساعة أي إنني غادرت برانكيلا في التاسعة والنصف، وتناولت طعام الغذاء في بوغوتا... هذه الرحلات الخاطفة قد أصبحت اليوم شيئًا عاديًا. ومنذ وقت قريب، تناولت إفطاري في الخرطوم، ثم آويت إلى فراشي في المساء في بروكسل من دون أن تعتريني الدهشة من هذه السرعة الفائقة التي تعودناها.

ومع ذلك، فإنني لا أنسى رحلتي الجوية الأولى التي عبرت بها المحيط الأطلسي: بدأت الرحلة في الثامنة مساء من مطار أورلي في باريس، ثم تناولت عشائي في مطار برستويك في مقاطعة اسكتلندا بشمال إنكلترا. وكان جو النهار شبيهًا بالغسق الذي لا نهاية له. ثم تناولت إفطاري في أيسلندا في اليوم التالي، وكانت الأرض في هذه البقعة من العالم أشبه ما تكون بقطعة من الألوان المختلطة بين حمر وصفر وخضر، ذلك منظر رائع أخاذ لا يتطاول الخيال إلى بلوغ حدود وصفه. وعندما وصلت في الخامسة مساء، وبعد أن طرت طويلًا فوق بحر مرصع بجبال من الجليد إلى الأرض الجديدة ذات التربة المثلجة التي تنتشر في جنباتها أشجار الصنوبر السود، استأنفنا طيراننا على

الشاطئ الأميركي ذي المدن البراقة الوهاجة؛ وكنا في هذه الحال كأننا في حلم. وأخيرًا هبطنا في واشنطن في العاشرة مساء. وبالمقارنة مع ما نفعله اليوم، نجد أن زمن سير المواصلات كان فعلًا بطيئًا، ومع ذلك فإنه لا يكون هناك اليوم أي استعداد ذهني للاغتراب كما كان يشعر به الناس بالأمس خلال الساعات الطويلة والمملة التي تستغرقها الرحلة: فنحن نهبط من السماء لنجد أنفسنا فجأة في أجواء قارة جديدة، وقد أضحى السفر بطريق الطائرة لا يتبع طريقًا مستقيمًا، بل طريقًا منحنيًا يتسم بالاعوجاج، ناهيك باللف والدوران.

كان من نتيجة هذه الثورة في مقاييس سلم السرعة أن انتهت بالتأكيد حالة الإقامة في جزر متباعدة. فبعد الطيار الأول بليريو[8] (Blériot) وبعد ليندبرغ[9] (Lindbergh)، وبعد رحلات الطيران العجيبة التي أدهشت العالم منذ الحرب العالمية الثانية، هل يجوز لنا أن نتحدث عن عزلة في جزيرة؟ لقد أصبحت جميع الاتصالات أو العلاقات ممكنة بسرعة ومن دون تأخير والدورة المشهورة حول العالم التي استغرقت ثمانين يومًا، تستغرق اليوم ثمانٍ وأربعين ساعة. هذا صحيح! ولكن يا ترى هل نستطيع القول إن هذه المغالاة في السرعة قد خلقت فعلًا علاقات أفضل بين الناس؟ فلننظر إلى ما يجري حولنا: سنجد أن الحواجز السياسية والإدارية قد اشتدت وتعاظمت في حين تحاول الوحدات القومية الدفاع عن نفسها من طريق إحاطة نفسها بعوائق مختلفة. الليبرالية الاقتصادية لم يعد لها وجود (إن صح القول). مع أن المسافات قد تدانت اليوم عنها بالأمس، إلا أن الزمن الذي كسبناه تقنيًا نفقده إداريًا في دوامة من الشكليات، والتشريعات، وتأشيرات الخروج. وفي الأخير، فإن التقدم الكلي ليس مؤكدًا.

من كل ما تقدم، نرى أن هناك تغييرًا، لعله شبه ثورة في معيار القوى. البلاد الوحيدة التي تستطيع أن تبقى قوى من الدرجة الأولى هي تلك البلاد ذات

---

(8) لويس شارل جوزيف بليريو (1872-1936) (Louis Charles Joseph Blériot)، طيار فرنسي ومخترع ومهندس. اشتهر عالميًا حين قام عام 1909 بأول رحلة بطائرة نقل جوية عبر القناة الإنكليزية.

(9) تشارلز أغسطس ليندبرغ (1902-1974) (Charles Augustus Lindbergh)، طيار أميركي ومؤلف ومخترع وضابط عسكري ومستكشف وناشط اجتماعي.

المساحات الشاسعة، والمكتظة بالسكان، والمنظمة تنظيمًا جيدًا، والتي تسيطر على ما تملك من أراض مترامية الأطراف. فقواعد الإنتاج الحديث، تتطلب تلك الضخامة التي من دونها لا تستطيع الآلة والإنتاج الغزير تأدية دورهما على الوجه الأكمل. وكذلك لم يعد كل من العلم والمنهجية، والطريقة الفنية، وحدها أمورًا كافية، فالإنتاج لم يعد ممكنًا إلا في إطار هياكل عملاقة. ويبدو أنه لا بد من بلاد مساحتها في الأقل من 8 إلى 10 ملايين كيلومترًا مربعًا، وسكانها في الأقل 100 مليون نسمة لتكون دولة كبرى. لكن سبق أن سيطرت أثينا على حوض البحر المتوسط، وكانت عبارة عن رقعة صغيرة من الأرض، يعيش بين ثناياها نخبة مختارة من المواطنين، وكنا نحن نستطيع أن نحقق منذ زمن وبمجموعة تتراوح من ثلاثين إلى أربعين مليونًا من السكان، السيادة أو الزعامة الأوروبية. أما اليوم فقد أصبحت الغلبة لكثافة السكان، ولهذا، فإن الولايات المتحدة وروسيا، وهما قارتان حقيقيتان، تتبادلان دور قيادة العالم بدلًا من الطرف الآسيوي الصغير (أوروبا) الذي كان يوجه العالم منذ أربعة قرون بفضل تناسقه وتنوعه المدهشين، على الرغم من قلة كثافة سكانه. وأصبح على «الوحدات القومية» أن تتحد (فدراليًا) لأنها لم تعد في مستوى هذا العصر الجديد.

في الوقت الذي كان يتغير فيه معيار تصنيف القارات والبلاد، حدث اختلال في توازن مركز الثقل العالمي. فأوروبا المحطمة الجاثمة على قدميها المهزومة في عقر دارها، لم تعد قادرة على أن تؤدي دور القيادة في الحضارة الغربية، ولم تعد - كما كانت منذ قرون - من يقوم بتنمية قيمة العالم. وقد ظهر ازدواج في مركز الثقل لمصلحة إما أميركا الشمالية وإما ما يشبه القارة السادسة أو السابعة التي يمكن أن نصفها بالقارة الأورو - آسيوية. وعلى ذلك، فإن مشاكل السلام وإعادة تنظيم العالم بعد الحرب العالمية الثانية، لم يعد يتم تناولهما لدى المنتصرين من وجهة نظر أوروبا، كما كان عليه الحال في جميع المناقشات الدبلوماسية السابقة. وكان لاختيار مدينة سان فرنسيسكو مقرًا للاجتماع الأول لمنظمة الأمم المتحدة أكثر من مدلول. فالمنتصرون في الحرب العالمية الأولى لم يفكروا قطعًا في أن يجتمعوا في مكان آخر غير القارة القديمة. ومن الأمور ذات المعنى أن يكون مقر الهيئة الجديدة للأمم

بعد الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة؛ ومما له معنى كذلك أن تنقل روسيا مراكزها الصناعية إلى شرق الأورال. وبذلك ظهر عالم آخر، لا تسوده «الأوروبية»، بل واحدة من اثنتين: آسيوية أو أميركية.

ومن هذه الحقيقة، نجد أن جغرافية الطرقات قد تغيرت عن ذي قبل. فأي مكان ناء، في أقصى بقاع الأرض، مثل مدينة أدمنتن في الشمال الغربي لكندا، أصبح اليوم يقع في طريق أهم الخطوط العالمية ما بين القارات. وهكذا فإن إنكلترا، تلك الأرض الشمالية القصية (باللاتينية *Ultima Thule*) في القرون الوسطى، والتي لم يكن يحيط بها إلا مساحات شاسعة من محيط لا نهاية له، قد غدت بعد الاكتشافات العظيمة نقطة انطلاق عدد كبير من التبادلات البحرية، وأصبحت كذلك رأس جسر بين أوروبا والقارات الجديدة الناشئة من الحياة التي خلقتها العلاقات المتبادلة. وأي أرض/ وحدة سياسية لم تعد تفهم جيدًا إلا بكونها ضمن خريطة العالم. فهذه الخريطة وحدها هي التي تتيح لنا أن نفهم بنظرة خاطفة، الأهمية الجديدة التي تحتلها المنطقة القطبية؛ لأن المواصلات الجوية المباشرة بين القارات ونصف الكرة الشمالي تمر بهذه المنطقة. وعلى ذلك يدخل القطب ضمن المناطق التي تتصارع فيها الإمبرياليات... من هنا يستلزم الأمر شيئًا من الجهد الفكري لنكتشف أن «خط شيكاغو - كلكوتا» يمر بالقطب الشمالي، وأن أقرب البلدان غير الأميركية إلى كندا هي سيبيريا. إذًا، فالحروب القادمة لا بد أن تضع في حسبانها هذه الاعتبارات التي كان بوسع الجيل السابق أن يتجاهلها، أما الجيل الحالي، فليس بمستطيع ذلك.

والأرض اليوم لم تعد أرض الأمس. وكم هذا مؤثر، بل كم هو مهين، للرجل الأوروبي الذي كان قد عرف نظامًا مختلفًا تمامًا. ففي ما بين عامي 1898 و1900، حين كنت شابًا صغيرًا، وطوفت بأرجاء العالم، رأيت بعيني كيف كانت تفتح جميع الأبواب المغلقة أمام الرجل الأوروبي أو الغربي الذي كنته أنا، وكان يكفي أن أقول إنني مواطن روماني (باللاتينية *civis romanus sum*) كي تنهار كل الحواجز والعراقيل. كنت أتمتع بامتياز وحيد هو انتمائي إلى العرق الأبيض وإلى ملكة القارات. كم تغيّر الزمن عما كان عليه قبلًا! ذلك أنه

يخالجني الآن شعور بأني عاصرت ما يشبه نهاية الإمبراطورية الرومانية. ويجول في ذهني هنا بيت من الشعر قاله كورناي[10] (Corneille) في القرن السابع عشر:

قَدَر عظيم ينتهي... قَدَر عظيم يبدأ

في ضوء هذه التجارب التي كانت قاسية غالبًا، نبدأ بإدراك كنه الخصائص المميزة الرئيسة لهذا القرن العشرين الذي يختلف إلى حد كبير عن القرن السابق، والذي استغرقنا وقتًا طويلًا كي نستقر فيه. بيد أن التقدم التقني هو في الحقيقة «جبّار» وهو يدهشنا لدرجة أنه غمر كثيرين منا بشيء من النشوة؛ فقد حملنا على الاعتقاد أننا قد انتصرنا على العناصر الطبيعية، وأنه لم يعد هناك من حد لقوة الإنسان، وقد وسّعنا من حدود معرفتنا ومددنا من آفاق رؤيتنا إلى ما وراء عالمنا. ولكن في الوقت نفسه، فإن المعارف القديمة التي هي في الظاهر قوية ثابتة، والتي كان يفخر بها القرن التاسع عشر، ومنها مبدأ الحتمية، وفكرة القانون الطبيعي، تميل إلى أن تغلبنا. فقد كان يوجد في هذا المبدأ الفلسفي (الحتمية)، على الرغم من كل بدائيته، أساس لمنطق سليم للتفكير: فالاحتمالات الإحصائية لم تعد تمنحنا الأمن والطمأنينة المنشودين، في وقت يؤدي فيه عدم توقعنا الحركات الذرية إلى إدخال مملكة الشك في العقول، وسط وهم جذاب بالحرية. هذه هي الروح المضطربة وقت أن سادت الحماسة العارمة لاكتشافات عجيبة.

لقد حقق القرن التاسع عشر إلى حد ما، الوحدة الاقتصادية للكون. واليوم يتجه العالم إلى الانقسام إلى وحدات سياسية اقتصادية كبرى مجزأة أجزاء صغيرة، ومدعمة تدعيمًا عسكريًا واقتصاديًا قويًا، هي في الواقع توتاليتارية أو إنها تجنح بأن تكون توتاليتارية وكأن ذلك ضرورة لها. ولم تعد الحرية التامة تسبغ ظلالها على انتقال الأفراد والبضائع التجارية، ذلك أن مبدأ الحماية القديم الذي كان ينحصر في التعريفات الجمركية فحسب، لم يعد يربطه بمبدأ

---

(10) بيار كورناي (1606-1684) (Pierre Corneille) مؤلف مسرحي وشاعر فرنسي شهير، ينحدر من أسرة بورجوازية من نبلاء الثوب، أي من الأرستقراطية التي اشتغلت في الإدارة وفي المحاماة، تحول من المحاماة إلى الأدب مثل كثيرين غيره من حملة شهادات القانون في زمانه.

الحماية الجديد إلا رباط واه. وهذا المبدأ الجديد قد أقيم على أساس تقنين حصص الاستيراد، وعلى الأخص قواعد المبادلة والصرافة؛ والأدهى من ذلك أن النقد نفسه، لم يعد حياديًا كما كان من قبل في هذه الحماية. فالبنوك المركزية الموزعة للنقد تستأثر بالقفالة المالية التي بها تغلق الباب بإحكام على الخارج. والمفاوضات الدولية اقترحت قرارات عدة لمصلحة التبادل، وصاغت تفاهمات عدة، ولكن من غير جدوى. فلم تصدق جميع الحكومات على هذه القرارات، وحتى أولئك الذين صدقوا عليها، فإنها لم توضع من جانبهم موضع التنفيذ. ففي عالم ترغب فيه جميع الدول أن تصبح صناعية، لم يحدث أن كان مبدأ الحماية القومية أكثر تصلبًا مما هو عليه اليوم.

والأكثر تأثيرًا حقًا كان الدفاع الحمائي ضد الهجرات البشرية وحتى ضد مجرد تنقلات الأفراد. ومن طريق جوازات السفر، ومكاتب الصرافة، أضحت الهجرة (في الاتجاهين) صعبة جدًا. ومن العسير أن تسافر من دون معاونة الدولة، ويصبح ذلك مستحيلًا في حال اصطدم المرء بأقل قدر من عدم رغبة الدولة بسفرك. ولقد قام الرحالة فيلياس فوغ برحلة حول العالم استغرقت ثمانين يومًا، وهو قد انطلق في الليلة نفسها التي راهن فيها على ذلك. ونستطيع اليوم أن نقطع الرحلة بأقل من أسبوع واحد. ولكن كم يومًا تستغرق عملية الإعداد لهذه الرحلة؟ هذا من دون أن نذكر استحالة القيام بالأمر قبل حلول الليل مع ما يتطلبه ذلك بالطبع من إعداد جواز السفر والتطعيم واستبدال العملات بعملات أخرى.

علينا إذًا أن نندمج اندماجًا كليًا في أي دولة ضخمة، قوية الجانب تجاه الإنسان، ضعيفة جدًا أمام كمية المشكلات العويصة التي تواجهها. وقد كتب الشاعر الفرنسي بول فاليري[11] (Paul Valéry) في هذا المعنى يقول: «الدولة مخلوق ضخم الجثة، مزعج وضعيف؛ إنها عملاق مشوه، قوي جدًا، أخرق

(11) بول فاليري (1871-1945) (Ambroise Paul Toussaint Jules Valéry)، شاعر ومؤلف وفيلسوف فرنسي. وهو إضافةً إلى شعره ورواياته وقصصه ومسرحياته، انشغل أيضًا بالتاريخ والفن وبالحوادث السياسية اليومية. رشح لجائزة نوبل للأدب 12 مرة.

جدًا، إنها بنت القوة والقانون وقد أنجباها من تناقضاتهما. وهي لا تحيا إلا بواسطة جمهرة من صغار الناس الذين يحركون بحماقة يديها وقدميها التي لا حياة فيها. أما عينها الوحيدة فلا ترى إلا «الملاليم» أو المليارات. الدولة صديقة الكل، وعدوة الفرد».

وفي هذا العصر: عصر الحديد والنار الذي قضى عدد كبير منا فيه عشر سنوات من حياته في الحرب؛ نجد أن التدهور الخلقي شيء ملموس ومخيف. لا يمكن أن يكون آباؤنا قد تصوروا مدى الفظائع التي ارتكبها البشر، ولا حتى في أتون حماوة المعارك، وقد ارتكبوها بدم بارد ومنهجية نظامية. ولم تعد البشرية لتبدو أكثر من مجرد معركة في مؤخرة الجيش.

(3)

إن نتائج هذا الانقلاب قد سرت سريعًا بشكل تبدو معه وكأنها تتعجل مرور المجرى العادي للزمن. وهي ليست تغيرات سياسية واجتماعية تجري أمام ناظرينا فحسب، بل إننا نشعر أن البشرية دخلت عصرًا جديدًا. ومن الملاحظ أن الانتقال من الآلة اليدوية إلى الآلة الميكانيكية لم يستغرق وقتًا طويلًا ليس في الغرب فحسب، بل في كل مكان: فالآلة اليدوية كانت فردية ومعلِّمة؛ أما الآلة الميكانيكية فهي بطبيعتها جماعية لا تتلاءم مع العمل الفردي فهي لها وتيرتها الخاصة التي ليست وتيرة الإنسان، ويؤدي ذلك إلى تغيير كل بنية الإنتاج.

يستتبع ذلك ثورة في أخلاقيات العمل. فقد كان العمل الحرفي اليدوي أو الفني في الماضي قائمًا في الأغلب على تقاليد شرف المهنة. ولكن صفحات بيغي[12] (Péguy)، غير البعيدة مع ذلك عن أيامنا، والتي تصف عملية تقشيش

(12) شارل بيار بيغي (1873-1914) (Charles Pierre Péguy)، كاتب وشاعر ومسرحي فرنسي تتنوع كتاباته لتشمل حتى بعض الألغاز من وحي قروسطي كتبها شعرًا، وأشعار صوفية متفرقة تستوحي خصوصًا شخصية جان دارك التاريخية التي ظل بيغي متعلقًا بها طوال حياته. وكان بيغي مثقفًا ملتزمًا تنقل خلال مرحلة الدراسة بين أن يكون مناضلًا اشتراكيًا ثم فوضويًا متحررًا ثم معاديًا للكنيسة، فمدافعًا عن درايفوس، ليقترب منذ عام 1908 من الكاثوليكية والقومية المناضلة. اشتهر بكتاباته المتحمسة للهم الاجتماعي والرافضة للحداثة.

الكراسي وتقاليد شرف هذه المهنة الخاصة، صارت ذكرى ماضية من زمن سحيق. ومن الآن فصاعدًا، فإن العمل الصناعي في المصنع سيتأسس بالنسبة إلى الرئيس على التقنية وروح التنظيم، وعند العامل على الانتباه وحيوية الحركات والضمير وقوة الاحتمال. وفي غالب الأحوال، لم يعد الأمر يتعلق بشرف المهنة أو بالروح الفنية طالما أن العمل الفردي يذوب في عمل الجماعة التي يجب أن ينتظم فيها كل شيء، كما تتحرك أجزاء الساعة. إذًا، فلم يعد هناك موضوع للتميّز الفردي، أو لمن يسرع أكثر، أو لمن ينجز أفضل من الآخرين، طالما أن الواجب يفرض عليه ألا يتحرك من مكانه الذي خصص له، مثل أي قطعة في آلة ميكانيكية دقيقة. فروح العمل كفريق وكرابطة وروح التعاون، تنطوي على أخلاقيات جديدة في العمل، محملة بالتضحية من جانب الفرد الذي يشعر معها أيضًا بالعظمة والسمو، من لحظة شعور الفرد بأنه جزء من عمل المجموع. ولعل أخلاقيات المستقبل هذه هي ذات أساس صوفي.

ونحن نرى هنا ثورة في العلاقات الاجتماعية بين الناس. فالفردية الطبيعية التي لها تقدير من وجهة النظر الإنسانية، والموجودة عند صاحب الحرفة أو الفلاح المالك، تبدو أنها غير تاريخية. لم يعد ممكنًا أن ننتج لوحدنا بطريقة فردية في مجتمع التف حول الآلة، وحيث لم تعد الملكية الخاصة تجد أجواءها فيه بسهولة. وإن شكلًا من أشكال التعاون مهما تعددت صوره فرض نفسه فرضًا في هذا المجتمع، ونحن نأمل أن يهدف هذا التعاون إلى العناية بالفرد والاهتمام به؛ لكن الاتجاه يذهب في أغلب الأحيان وجهة الجمعوية الخالصة. والحياة الخاصة نفسها لا تنجو من هذه السطوة، لأن تنميط الإنتاج يترتب عليه منطقيًا توحيد الاستهلاك: يجب أن نربي المستهلك على أن يكيّف نفسه وفق مقتضيات أي صناعة معقلنة، بحيث يصبح الإنتاج «بحسب الطلب» أمرًا مستحيلًا، اللهم إلا بالنسبة إلى حفنة من أصحاب الملايين. فمجال الفردية يتجه إذًا إلى الانكماش، كما ينكمش جلد الشاغرين[13]. ولا شك في أن الحياة

(13) جلد الشاغرين (*La Peau de chagrin*) هي رواية فرنسية كتبها عام 1831 الروائي والكاتب المسرحي أونوريه دو بلزاك (1799-1850) (Honoré de Balzac) والرواية تدور أحداثها في باريس القرن التاسع عشر وبطلها رجل يعثر على قطعة سحرية من جلد ألية (أو عجز أو ردف) بغل أو حمار (تسمى =

الرغدة المتوسطة تنتشر، ولكن الإنسان، وفي صور شتى مختلفة، يصبح مجرد رقم بين مجموعة أرقام.

كيف يمكن لتوازن المجتمعات الإنسانية أن يصمد أمام الهزات التي لم يكن لها سابقة من قبل؟ إن سرعة سير مجرى التغيرات الاجتماعية قد تؤدي إلى كوارث، لأن التقنية الصناعية تتطور اليوم بسرعة أقوى من تطور العقول. فهناك اليوم تعايشًا بين أداتية القرن العشرين التي تنتشر في أرجاء العالم وبشرية ظلت سيكولوجيتها ما قبل صناعية. وبالتالي، فإننا سنجد أنفسنا نواجه ثغرة واسعة. ولسنا في حاجة إلى أن نبسط أخطار أن توضع في اتصال وتواصل، وعلى غير انتظار منها، بلاد أصابت حظًا من التقدم في الصناعة الميكانيكية، ومجتمعات حرفية قديمة لا تزال تعيش حصرًا على صناعاتها اليدوية. لقد تسللت الآلة الميكانيكية اليوم إلى كل مكان، فقد رأيت مصانع للنسيج على أحسن صورة من الإعداد كمصانعنا وسط جبال الأنديز في أميركا الجنوبية، وفي بعض المقاطعات الهندية التي ليس فيها بعد طريق معبد، ولا خط حديد. والواقع أن الانتقال كان سريعًا من الدابة إلى الطائرة. وقد أصبحت من المناظر غير المألوفة والتي تدعو إلى السخرية معًا منظر تلك القافلة التي تتكون من الجمال والتي يقابلها من طرف آخر قافلة من السيارات الكبرى وهي تعبر قلب الصحراء ومن فوقها الطائرات تغدو وتروح في سمائها، ومن تحتها خطوط أنابيب البترول تشق أرضها. وقد ترى في الجنوب الغربي من بلادنا تلك الأبقار البيض الجميلة الموثقة كل اثنتين معًا بواسطة حبل يشدها، تحافظ على هدوئها المتزن وكأن كل واحدة منها في تعايش سلمي مع الأخرى:

= chagrin وهي كلمة مشتقة من التركية *sağri* أي ردف) تحقق له كل أمانيه ورغباته. والكلمة الفرنسية chagrin تعني أيضًا «الحزن». والمفارقة أن هذا الجلد السحري يأكل من حياة صاحبه كلما حقق له أمنية أو رغبة، فينشأ التناقض القاتل بين الإلحاح في تحقيق المزيد من الرغبات والخوف على حياة صاحبها. ومع أن الرواية تستخدم الخيال الفانتازي إلا أن بلزاك المعروف بواقعيته القاسية يرسم صورة عن مادية البورجوازية وجشعها وحبها للمال؛ والجلد السحري يمثل قوة الحياة لدى صاحبه التي تتأكل بعد كل أمنية أو رغبة تتحقق، خصوصًا حين يستخدمها للاستحواذ على القوة والسلطة متجاهلًا التحذيرات فيكتسب ثروة كبيرة ومجدًا ماديًا، لكن ليجد نفسه في النهاية عاجزًا مقعدًا بائسًا.

فهل يستطيع البشر أن يتمثلوا بهذه الأبقار؟ إن الارتباطات أو الاتصالات بين المجتمعات التي لم تصل إلى مستوى العصر الحديث تؤدي في الحقيقة إلى بعض الانفجارات. وعلينا بهذه المناسبة أن نتذكر حالة روسيا قبل عام 1914 بمصانعها التي أدخلت عليها الآلات الميكانيكية، في حين أن اليد العاملة كانت من ريف يعيش بعقلية القرون الوسطى. ولنتذكر حالة المكسيك التي هي في صميمها هندية (نسبة إلى الهنود الحمر) والتي لا تزال تعيش حياة حرفية خالصة، وهي القريبة جدًا من البلد الأكثر تقدمًا صناعيًا. لا توجد أي بنية اجتماعية مهما بلغت من القوة والصلابة تستطيع مقاومة مثل هذه الاهتزازات. إن جرس الغطاسين يقتل من الأحياء لأمر أقل أهمية من ذلك.

هكذا، فإن انتصار التقنية أمر مذهل: المهندس قادر على حل جميع المشكلات التي تعرض عليه، لكن رجل الأعمال والمشتغل بالسياسة وواضع علم الأخلاق خصوصًا يشعرون أنهم تائهون أمام مشكلات جديدة تنشأ من التقدم وبشكل أسرع حتى مما يمكنهم التعامل معها. فكل حل لمشكلة صناعية تقنية يخلف وراءه مشكلة اجتماعية أو أخلاقية... فكأن الطبيعة تثأر لنفسها بأن تجعلنا ندفع من دون رحمة ثمن الفوائد والمكتسبات التي حصلنا عليها. ولهذا فإن هذا الانتصار على الطبيعة والذي تحدثنا عنه آنفًا، ليس بالتأكيد انتصارًا فعليًا ونهائيًا. إن الآلات مطيعة، بيد أنه في اللحظة التي نلحظ فيها الانتصار التقني الأكثر إبهارًا، نجد أن الحضارة ترجع إلى الوراء، إلى طرائق اقتصادية اتبعت سابقًا، وإلى عادات سياسية قديمة ليس من المبالغة في شيء أن نصفها بالبربرية.

(4)

لقد غدا المدلول اللفظي لكلمة الثورة غير محدود المعاني. صار الناس كافة يستعملونها، بمناسبة ومن غير مناسبة. بيد أنه في مقامنا هذا، نرى أنها تعبّر عن مدلولها الصحيح بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى لأننا نعي بأننا نعيش ثورة: وليس ثورة سياسية فحسب، تستتبع تغيرات فجائية في النظم والأشخاص، وليس ثورة اجتماعية فحسب تنطوي على تغيير التوازن القديم في

الطبقات، بل إننا نشهد ثورة إنسانية اضطرتنا إلى مراجعة كل القيم وإلى إعادة النظر في طرائق تفكيرنا في الحياة، وفي الأسس التي قامت عليها أخلاقنا.

عندما نرجع بذاكرتنا إلى سنوات ما قبل عام 1939، يبدو لنا أننا نستعيد عصرًا آخر. ويبدو عام 1914 بعيدًا جدًا لدرجة يشق علينا معها عقد المقارنات بينهما، وكأننا أمام مجتمع لم تعد تستطيع معاييره التمشي مع تفكيرنا. وكأننا مثل هؤلاء الذين خرجوا من ملاجئهم بعد هزة أرضية عنيفة فوجدوا أن بعض معالم البلاد ما زالت كما كانت، ولكن البلد لم يعد هو نفسه، ولم يعد بإمكانهم التصرف كما لو أن شيئًا لم يحدث[14].

قد يكون من الجنون أن ندعّي الرجوع إلى الوراء وأن نريد بعث ما قد مضى، فانتصارات الآلة الميكانيكية قد أصبحت حاسمة، ويجب أن نهيء أنفسنا حتى نتكيف مع الوسط التقني الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الجديد. وإن مواءمة كهذه تتضمن مراجعة لفلسفتنا الأخلاقية التي يجب أن يحدد فيها وضع الفرد بالنسبة إلى المجموع في شروط تحافظ على استقلال العقل والفكر قدر الإمكان. هذه هي مشكلة المشكلات بالنسبة إلى الغرب. وفضلًا عن ذلك، فإن على البلدان المختلفة التي تعتبر دعامات الحضارة الأوروبية أن تواجه هذه المشكلة بإمكانات تختلف بحسب اختلاف سيكولوجيتها التقليدية. فبعض هذه البلاد تواجه المشكلة برغبة صادقة وبروح سمحة من دون النظر إلى الوراء، وبعضها الآخر تواجهها بشيء من الحنين إلى ماضٍ لا يبدو لها أنه أفلس وانتهى. وبعض ثالث قاعدته التحتية ليست في أساس طبيعة الغرب وماهيته، يضيف إلى خدمة التقنية الصناعية عاطفة قوية، بل بربرية نوعًا ما، بطريقة توحي بالشك في أنهم يعملون حقًا من أجل الحضارة.

ولعلنا بعد الدراسة المتقصية لعدد من هذه السيكولوجيات سنكون قادرين على أن نتبين ماهية الغرب بشكل أكثر وضوحًا.

---

(14) المثل القرآني هو أهل الكهف.

الفصل الثاني
الواقعية اللاتينية

(1)

تسري في أوروبا روح لاتينية من دونها تفقد حضارتنا توازنها. فالواقعية الفكرية لهذه الروح تعطي الثقل المضاد للدينامية الأنكلوسكسونية في الحدود التي تبتعد فيها هذه الدينامية عن التراث الكلاسيكي. وفي حال انفصل الغرب الأقصى للعالم الجديد عن هذه الجذور، فإنه سيظل غربيًا من دون شك، ولكنه لن يستطيع مع الوقت أن يوجه مصيره إلا بطرائق مختلفة عن طرائق الغرب. فما هي حقيقة هذه الروح اللاتينية؟

نحن نتحدث كثيرًا عن الأعراق اللاتينية، لكن إذا استعملنا الاصطلاح بمعناه الحقيقي، يجب أن نعترف بأن اللاتينيين لا يمثلون عرقًا. هناك لغات لاتينية هي أداة لتعبير معيّن عن الفكر، تطابق من دون جدال حضارة كان مهدها البحر المتوسط. من وجهة النظر هذه، فإن اللاتينية هي حقيقة واقعة.

ساعد عدد لا بأس به من الأعراق على تكوين النوع البشري الخاص بالبحر المتوسط. وأقدم هذه الأعراق وأشملها تمثيلًا أيضًا لهذا النوع البشري هو العرق الأيبيري أي سكان إسبانيا والبرتغال، وهو عرق أبيض مستطيل الجمجمة، ذو بنية عظمية نحيفة، قصير القامة، أسمر البشرة. ويتميز هذا العرق من أعراق تختلف عنه جغرافيًا كعرق النيغرو الذي يتميز باستطالة الجمجمة وبأنه أسود (كما قد يقول السيد لاباليس)، أو العرق الذي يسكن جبال الألب،

أو عرق الكلت الذين من سماتهم استدارة الجمجمة، أو الاسكندنافيين والشماليين الذين يمتازون هم أيضًا باستطالة الجمجمة وإن كانوا شقرًا وبشرتهم فاتحة اللون.

موطن هذا العرق الأيبيري هو الحزام الغربي لحوض البحر المتوسط: البربر والإيطاليين والإسبان وفرنسيي الجنوب، حيث إن هذه الأعراق ترتبط جمعاء برباط الوحدة الأوروبية الأفريقية، ما يجعلنا نستذكر بهذه المناسبة الإمبراطورية الرومانية التي نشأت على محور بحر mare nostrum[1]. لكن الأيبيريين لم يكونوا وحدهم من سكان البحر المتوسط، بدليل تلك الغزوات المتلاحقة وحوادث التسلل التي جلبت معها أعراقًا غير متجانسة. فالشماليون الذين يغريهم غالبًا سحر الجنوب وشمسه، كثيرًا ما غزوا اليونان وإيطاليا وبلاد الغال وإسبانيا ووصلوا حتى إلى الشواطئ الشمالية من قارة أفريقيا. وهؤلاء الشماليون كانوا يذوبون في شعوب تلك المناطق، ولكن وجودهم بقي مع ذلك قائمًا. ونحن نعرف جيدًا نظرية العنصريين الذين يقولون: إنّ كل شيء طيب في البحر المتوسط قد أتى من الشمال. وحيثما وجدنا في حوض البحر المتوسط ذلك الشعور بالقيادة والترتيب والنظام الذي نلمسه بين سكان هذه المنطقة فهو في مجمله من خصال أهل الشمال؛ لا بل إن السيد المسيح نفسه، ذلك الجليلي، قد يكون من فصيلة العرق الأعلى لمستطيلي الجمجمة... هذه النظرية هي مدعاة للسخرية، ولكنها مع هذا تحتوي شيئًا من الحقيقة، إذ لا شك في أن سيطرة ثقافة المغلوب[2] (Graecia capta) لم تكن في اتجاه واحد.

إن العرب، أولئك الساميين البيض، لم يقوموا بأي تأثير ضاغط، من الناحية الإثنية: فقد شعر الناس بعملهم ونشاطهم في طول الجنوب الغربي وجنوب

---

(1) «بحرنا» *Mare Nostrum* كلمة لاتينية، هي الاسم الروماني للبحر الأبيض المتوسط. في السنوات التي تلت توحيد إيطاليا 1861 استخدمت العبارة حين أحياها القوميون الطليان الذين آمنوا بأن إيطاليا هي وريثة الإمبراطورية الرومانية.

(2) كانت الثقافة الرومانية متأثرة بالإغريق، ما حدا بهوراس (أشهر شعراء روما المولود في القرن السابع قبل الميلاد) أن يقول قوله الشهير: Graecia capta ferum victorem cepit أي «إن اليونان الأسيرة أسرت غازيها الغليظ».

البحر المتوسط حيث نشروا حضارة تحمل بلا شك سماتهم الخاصة بهم. فالعرب الساميون هم الذين طوروا طرائق الري، وأدخلوا في هذه البقاع مختلف النباتات الاستوائية مثل القطن والأرز وقصب السكر والموالح، بحيث جعلوا حوض البحر المتوسط «جنوبي الطابع». وهم كانوا في الوقت نفسه يساعدون على انهيار الوحدة القديمة للحضارة المتوسطية كما عرفها العالم الروماني. وقد كان من جراء ذلك أن حوض البحر المتوسط لم يعد مسيحيًا خالصًا.

يجدر أخيرًا أن نذكر الأتراك، هؤلاء المغوليين. فهم لا يعدون بحق من سكان حوض البحر المتوسط لا من حيث الأصل ولا من حيث الثقافة، ولكنهم وصلوا إلى شواطئ بحر سيطروا عليه سيطرة شبه تامة مع بقائهم غرباء عنه أو كالغرباء. «أهل البر» هؤلاء عاشوا حينًا من الدهر على هامش حياة البحر وبيئته، وكانت حصيلتهم في النواحي السياسية والعسكرية عقيمة، على عكس العرب.

وقد جعل الأتراك منذ تاريخ استيلائهم على القسطنطينية عام 1453، هذا الممر التاريخي للمواصلات القارية العالمية حاجزًا أقاموه بأنفسهم، إلى أن تم افتتاح قناة السويس في عام 1869، فأصبح هذا الطريق الذي يقع في حوض البحر المتوسط الشرقي والذي تعاقب عليه أجيال وأجيال، مغلقًا وعديم الجدوى عمليًا. فأين نبحث في هذا الخضم المتلاطم عن وحدة لعرق لاتيني؟

على العكس مما سبق، تبدو الحضارة اللاتينية حقيقة ناصعة مؤكدة. ذلك أن التأثيرات التي ساعدت على تكون معالم شخصيتها أكثر من أن يحصيها العد: التأثير الروماني وبالأخص الروماني الكاثوليكي والتأثير الإغريقي أيضًا من طريق روما، مع إضافة تأثير بعض الشعوب المتسللة من الشرق من طريق اليونان ومن طريق العرب. فالمنطقة الجغرافية للغة اللاتينية هي أساسًا منطقة الإمبراطورية الرومانية القديمة، ولكن ليس كلها على الإطلاق: فقد عرف الحوض الشرقي للمتوسط، خصوصًا في آسيا الصغرى، الغزو التركي على نحو واسع وكبير، كما عرف الحوض الأفريقي الإسلام. وتسللت التأثيرات التركية إلى اليونان، والتأثيرات العربية إلى إسبانيا. وبالمقابل اتسع نطاق اللتنتة (latinité) لتصل أميركا المسماة لاتينية، الإسبانية منها والبرتغالية، حيث صارت

تتمتع بسبب ذلك بوحدة ثقافية لا جدال حولها. ولا شك في أن سريان عدوى خارجية إلى هذه المناطق الجديدة، يهدد وحدة التراث الأصلي للبلاد وتكامله: فالوجود الهندي كما الوجود الأسود، يهددان بإدخال مكونات مثيرة للقلق، لا علاقة لها بالمصدر المتوسطي الذي خرجت منه.

وللطابع اللاتيني سمات مميزة يُعرف بها، وحيثما حل، ولا يتعلق الأمر باللون السياسي وإنما بالثقافة. حيث ترتسم حول المجتمعات اللاتينية الخالصة مناطق تعاطف وروابط تآخي. وبإمكاننا أن نرسم بسهولة خريطة للبلاد التي تنتمي إلى هذه الأجواء، وسيدهشنا حقًا اتساع رقعة هذه المنطقة.

(2)

إن العوامل التي ساعدت على تكوين سيكولوجية الشعوب اللاتينية كثيرة جدًا: منها مناخ البحر المتوسط، والبنية الجغرافية للبيئة المتوسطية، والتراث العظيم لماض عميق جدًا، والتأثير الملموس مباشرة لحضارة روما. وقد لا تُفهم الحضارة الأوروبية جيدًا إلا من زاوية هذه الروح اللاتينية، إذ إننا لا نشعر أننا فعلًا في أوروبا إلا بسبب وجود هذه الروح. إن الحضارة الأميركية هي على الدوام حضارة غربية، تميل إلى التمايز عن العالم القديم بقدر ما يكف العنصر اللاتيني، في الأقل مباشرة، عن التأثير فيها.

ولمناخ البحر المتوسط مميزات خاصة تجعله يفترق عن المناخات القريبة منه: مناخ المحيط الأطلسي والمناخ القاري الأوروبي والمناخ الصحراوي، ويشكل بين هذه منطقة صراع وانتقال: فتارة يتغلب التأثير الصحراوي فيكون الصيف الأفريقي في الجنوب، جافًا وحارقًا من غير رفق أو شفقة؛ وطورًا يتغلب التأثير الأطلسي ذو الشتاء الرطب والممطر. ففردانية هذا الجو هي في حقيقتها إذًا فردانية تناقض وتنافر بين رياح هوجاء عاتية، وأمطار غزيرة كارثية، تجلب معها فيضانات ضخمة. وأحيانًا يكون جو هذه المنطقة صحراويًا بضيائه ونوره المتلألئ وأحيانًا أخرى يكون استوائيًا بتقلباته المختلفة أو قاريًا بموجات البرد القارص المباغتة. والانطباع الذي يتركه هو أنه في مجموعه مناخ أفريقي

أكثر منه أوروبي. حين نهبط من شمال أوروبا ونجد أنفسنا في حوض البحر المتوسط، ليس من المبالغة في شيء أن نقول: إننا تركنا إلى حد ما أوروبا.

وينعكس هذا المناخ على مزاج سكان فرنسا بشكل واضح، حيث يكون له تأثير كبير في أمزجتهم خصوصًا الرياح العاتية التي تؤدي دورًا بارزًا في حياتهم عمومًا، ويتأثر السلوك الفردي لكل منهم بذلك أيما تأثير. فهناك أساسًا تنافر بين ريحين: رياح بحرية تنهك القوى، ورياح شمالية تثير الأعصاب. ولا شيء من هذا يتوافق مع ريح الغرب القادمة من أعماق المحيط والحاملة نسمات مهدئة. وقد كتب ميشليه في وصف هذه النسمات العنيفة والمؤذية، مستذكرًا مدينة ناربون، مع إضافة شيء من عاطفته الجياشة الخاصة: «هواء جاف يمر فوق هذه السهول ويثير الأعصاب إلى أقصى حد... وعلى الرغم من ريح الشمال (Cers) الغربية، فإن الميسترال[3] (Mistral) العنيف والصحي، والذي نصب له أغسطس معبدًا، والهواء الحار الثقيل المفسِد القادم من أفريقيا، يلقيان بثقلهما على هذه البلاد؛ إن جروح السيقان يصعب مداواتها في ناربون». كما كتب ألفونس دوديه[4] (Alphonse Daudet) يصف يوم هبوب الميسترال في ريف مدينة نيم (Nîmes) الفرنسية: «حر لا تقف في وجهه عقبات، يكنس من أمامه السهل الشاسع المتموّج، حيث بعض العزب والبيوت الريفية الضائعة هنا وهناك تبدو وكأنها تناثر قرية بفعل العاصفة. كان يمر مرور الدخان في السماء، في رذاذات سريعة فوق سنابل القمح العالية، فوق حقول الزيتون التي كان يداعب أوراقها الفضية، وبارتدادات كبيرة كانت ترفع بموجات شقر غبارًا يقرقع تحت العجلات. كان يخفض صفوف السرو المرصوصة وقصب إسبانيا بأوراقه

---

(3) الريح الشمالية العنيفة الباردة الجافة التي تهب على شواطئ المتوسط الفرنسية.

(4) ألفونس دوديه (1840-1897) (Alphonse Daudet)، روائي فرنسي ولد في نيم لعائلة بورجوازية ومارس التعليم لفترة قبل أن ينسحب ليمارس الصحافة في باريس. في عام 1866 صدرت روايته الشهيرة ذكريات من طاحونتي (*Lettres de mon moulin*). كما اشتهرت روايته الهزلية تارتاران دو تاراسكون (*Tartarin de Tarascon*) (1872). كان دوديه ملكيًا ومن أشد معارضي الثورة الفرنسية. كما كان معاديًا لليهود بقوة. كتب شقيقه الروائي إرنست سيرته في كتابه شقيقي وأنا (*Mon frère et moi*) كما أن ابنيه ليون ولوسيان كانا أيضًا من الكتاب المشهورين.

الطويلة الندية والتي تعطي انطباعًا بأنها جدول ماء غض على حافة الطريق. وحين كان يصمت لبرهة كما لو أنه انقطع نفَسه، كنا نشعر بثقل الصيف، حر أفريقي يصعد من جوف الأرض وسرعان ما تبدده الزوبعة الصحية والمحية التي تنشر جذلها إلى أبعد أفق، صوب تلك التلال الصغيرة الرمادية الباهتة التي تقبع خلف كل منظر ريفي بروفانسي (من مقاطعة بروفانس الفرنسية)، والتي يلونها غروب الشمس بألوان قوس قزح فاتنة»[5].

لا يوجد مكان آخر في العالم يمكن أن نتكلم فيه على الريح والمناخ أكثر من نيم وناربون وكاركاسون.

إن مزاج قاطن البحر المتوسط وبالتالي مزاج الرجل اللاتيني يتأثر مباشرة بهذا المناخ لا من جهة الرياح المتقلبة فحسب، بل من هذا الضياء الساطع من شمس جنوبية والذي لا تحجبه الكآبة الثقيلة للمنطقة الاستوائية. إن جول تيلييه[6] (Jules Tellier) الشاعر الهافري (نسبة إلى ميناء الهافر في فرنسا) قد أعطانا صورة فلسفية رائعة عن شروق شمس الجنوب في صفحة كاملة تصف بدقة واستقصاء كل ما هو الجنوب: «ما إن يضيء الشرق حتى يبزغ الفجر ويعقبه الضحى، ثم يأتي النهار، لا شيء أسرع من هذا ولا شيء أكثر إغناء لغسق الشمال من هذا الشفق. ولا ينتابنا ولو للحظة أي إحساس أو شعور بحصول أي صراع أو معركة مشبوهة، تخوضها مقاومة ما غامضة من أشياء الظلام. فكل شيء جرى بطريقة سهلة وواضحة. لقد انبلج الصبح. هذا كل شيء. دخل من دون استئذان وكأنه في بيته. ويبدو أن الليل نفسه لا يطول كثيرًا، إذ لا يعتبر أنه في بيته، فيخرج من هنا كما دخل من دون جلبة. وعند ظهور خيوط الفجر البيض الأكثر غموضًا، يبدو الضوء ضرورة «قدرية» للناس. وهناك شيء ينقص، ويجب أن يكون ناقصًا بالفعل، شيء مضطرب وعميق،

---

(5) Alphonse Daudet, *Numa Roumestan* (Paris: G. Charpentier, 1881).

(6) جول تيلييه (1863-1889) (Jules Tellier) كاتب وصحافي فرنسي ولد في مدينة الهافر. دخل الجامعة عام 1882 وصار أستاذًا في شيربورغ وقسطنطينة الجزائرية (1885-1887) ثم عاد إلى باريس ليتعاون مع الحزب الوطني. توفي بحمى التيفوئيد في مستشفى تولوز بعد عودته من رحلة في الجزائر وإسبانيا وكان عمره 26 سنة.

في شعر سكان الجنوب الذين يولد النهار عندهم بهذه الطريقة»[7]. فأشعارهم تختلف عن أشعار أهل الشمال، ذلك أن شعرهم متحفظ، فيه من الاستعارات والالتفافات الواضحة الشبيهة بالمنمنمات، وهو شعر كلاسيكي يختلف عن الشعر الرومنطيقي لأهل الشمال. لكن من الصحيح القول إن الرياح المتقلبة والضوء الأخاذ لهما تأثير أكيد في مزاج سكان الجنوب. وكما ذكرنا، فإن الليل لا يطول في هذه الأقطار، وبالتالي فإن النوم لا يباغت هؤلاء الناس، لذلك فإن وثبات الطاقة والنشاط عندهم غير ثابتة.

إن جغرافية هذا المتوسط الذي تكونت فيه الروح اللاتينية، تحمل الناس عامة على الفردية وتتحدد الروح الاجتماعية فيه بالقبيلة أو العشيرة. ونقصد بهذه الجغرافية جغرافية الأراضي المقسمة بحسب حدودها الطبيعية: فهي عبارة عن سهول منعزلة عن بعضها بعضًا، ومحدودة بسرعة، ومحاطة بالجبال القريبة دائمًا منها. وهي جغرافية السواحل المتشابكة التي تساعد على إقامة المواصلات البحرية المولّدة للتجارة المحلية مع قدرتها على أن تمتد في ظروف خاصة إلى البعيد. وهي جغرافية القراصنة التي تستلزم للدفاع عن المنشآت القديمة المستقرة، بناء مدن صغيرة محصّنة. وهي جغرافية الجفاف والفيضانات الغزيرة التي تجعل من إيجاد سياسة لري الأراضي أمرًا ضروريًا، مع ما يستلزمه ذلك، وعلى الرغم من كل شيء، من أشكال التعاون ولو في أصغر صورة. من هذه الملامح الأصلية لجغرافية هذه المنطقة، نجد أننا نشعر دومًا بوجود هذه الحضارة اللاتينية على الرغم من بعد الشقة التي تفصل بينها وبين حضنها. وقد كتب لي ذات يوم فرناند موريت[8] (Fernand Maurette)، ذلك الجغرافي العظيم الذي قضى نحبه وهو في ريعان الشباب، رسالة خاصة

---

(7) Jules Tellier, *Reliques*, Hérissey, Évreux, 1890 (voir: De Toulouse à Girone). Maurice Barrès, *Du Sang, de la volupté et de la mort* (Paris: G. Charpentier et E. Fasquelle, 1894).

(8) فرناند موريت (1878-1937) جغرافي وعالم اجتماع واقتصاد فرنسي تخصص بدراسة جغرافية أفريقيا وصار خبيرًا جغرافيًا معترفًا به عالميًا. أقام فترة طويلة في جنيف للعمل في مجال «الجغرافيا الاقتصادية والاجتماعية»، ثم عيّنه مدير مكتب العمل الدولي (منظمة العمل الدولية لاحقًا) بجنيف مديرًا لقسم البحوث والإحصاء. وفي عام 1937 استدعته الحكومة الفرنسية ليكون عضوًا في المجلس الاقتصادي الوطني ويشارك في تحديث قوانين العمل التي أصدرتها حكومة الجبهة الشعبية اليسارية.

أعتز بها وأحتفظ بها حتى اليوم، فقال لي في ما كتب: «إن اقتصاد بلاد البحر المتوسط هو عبارة عن بنيان مقسم الأجزاء لإقليم يصل فيه الجبل حتى البحر الذي يصنع كثيرًا من الأجزاء المنفصلة بقدر ما يوجد من سهول صغيرة غارقة في وسطه. إنه إقليم تعتبر فيه سياسة المياه ضرورية وملحة، طالما أن الأرض في حال تركت لمصيرها، قد تتحول إلى مستنقع إن لم توضع وسائل تصريف المياه منها موضع التنفيذ، وإلى صحراء إن لم ترو بالمياه... إنها بلاد أساس حياة الفرد فيها البستان وليس الحقل... بلاد تفرض فيها تضاريس الأرض على أهلها الصبر والدأب في الزراعة المنزلية... بلاد يعتبر البحر فيها الطريق السهل المعبد للتجارة بدلًا من أن يكون عقبة في سبيل التبادل التجاري، وذلك لكثرة موانئه وجزره» (19 كانون الثاني/ يناير 1929). وهكذا نرى أن مجتمع هذه المنطقة هو مجتمع تمفصل ومحلية وتنوع، وهذا يتعارض مع حضارات التسلسل والحشد.

إن حضارة البحر الأبيض المتوسط هي حضارة متوغلة في القدم؛ فمنذ العصر الحجري كانت هناك شعوب سكنت المنطقة واكتملت لها دواعي التقدم مقارنة بمنطقة أوروبا الشمالية التي كان من أسباب تأخر سكناها بقاء الثلوج فيها مدة طويلة. فعلى ضفاف شواطئ فرنسا الجنوبية كما بقية الشواطئ المتوسطية، نجد آثار حضارة عمرها قرون أكثر مما على شواطئ الشمال. وتكشف لنا الكنائس القديمة من خلال طبقات هندساتها المتتالية، عن تراصف حضارات يشبه تراصف الطبقات الجيولوجية. إن كنيسة بيزييه[9] (Bèziers)، وأطلال إنسيرون[10] (Enserune)، وسانت أمبرواز[11] (Saint-Ambroise)، تشهد على هذا التاريخ والتراث الحافلين. ولا نملك بعد هذا إلا أن نستنتج أن المتوسطيين، أي اللاتينيين، يملكون طبيعيًا الشعور بالزمن الذي انقضى، وهم على اتصال دائم مع أقدم عصور التاريخ، ولم تكن روما ولا اليونان ولا حتى الشرق، بالغريبة عليهم. هؤلاء اللاتينيون ليسوا شعوبًا شابة حديثة، بل تامة النضج،

---

(9) مدينة جنوب فرنسا.

(10) موقع أركيولوجي فيه بقايا قرية جنوب فرنسا تعود إلى العصور القديمة.

(11) المقصود الكاتدرائية على اسم القديس أمبرواز في ميلانو.

وبالطبع هرمة في بعض ملامحها. وبكل تأكيد فإنهم ليسوا شعبًا طائشًا كالشعب الإنكليزي مثلًا. وسيكولوجية الشعوب اللاتينية التي هي سيكولوجية البالغ سن الرشد، تفسرها مسألة العمر هذه، فهم مشككون، لا يأخذون الكلام على علاته، وليسوا شعبًا ساذجًا على العموم. إن صفاء قريحتهم ووضوح تفكيرهم ليخوّلهم من دون جهد أن يفرقوا بين المبادئ وطرائق تطبيقها. هذه الطريقة في التمييز والغربلة تحميهم من النفاق الأخلاقي، ناهيك بالواقعية الكلبية[12]. وهم لا يعتقدون، كما اعتقد روسو وتلاميذه، بأن الإنسان خيّر بطبعه، ولا يثقون به، وعلى الرغم من أن للكلمة عند أهل الجنوب سحرًا وبريقًا، فإنهم لا يسرفون في كلام لا طائل تحته كما يظن بعضهم؛ ويتفوق الذكاء لديهم على العمل، إنه ذكاء يعبّر عن نفسه، ويخرج إلى العلن في سهولة عجيبة.

وقد طبعتهم روما بطابعها الخاص... فاللاتينيون مدينون لها من حيث التكوين الاجتماعي الذي يقوم على الأسرة والقبيلة، والموالي التابعين للعشيرة؛ وهي تشكيلات أكثر قوة ومتانة ودوامًا من الدولة ذاتها. وهم مدينون لروما كذلك بمفهوم معين للقانون، وهو قانون مكتوب له زوايا بارزة كالقطاع الجانبي من جبالهم المتعرية. وهذا القانون يقوم على التحرز والواقعية المجردة من دون ادعاء من ناحية الأوهام المتعلقة بالطبيعة الإنسانية: وهنا نلمس الفارق البيّن بين القانونين الإنكليزي واللاتيني. فالثقة هي جوهر القانون الإنكليزي، وهو يعبّر

---

(12) الكلبية (cynisme) موقف تجاه الحياة ينبع من مدرسة فلسفية أسسها أنتيستن (Antisthène) (444-365 ق.م) في اليونان القديمة، وكان أحد أتباع سقراط، ومن بعده حمل أبرز تلاميذه ديوجين (Diogène de Sinope) (413-327 ق.م) المذهب وجعله مدرسة هدفها المعلن رفض القيم والمعايير الدينية والأخلاقية والقيود الاجتماعية، وتعليم الكبار والعظماء في اليونان القديمة اللامبالاة والتواضع. فكانوا لاماديين ولاامتثاليين واقترحوا ممارسة أخرى للفلسفة وللحياة بشكل أعم تقوم على الحكمة والحرية ومجاراة الطبيعة وعدم مجاراة الأعراف السائدة، وعلى الفرح والابتهاج ورفض التقاليد ورفض اللباقة، بل الوقاحة في القول والعمل. وتشير بعض المراجع إلى أن الاسم كلبي نسبة إلى سينوساركس، وهو اسم لمبنى في أثينا، التقى فيه الكلبيون لأول مرة. وتشير المراجع الأخرى إلى أن الاسم مستمدٌ من الكلمة اليونانية التي تعني كلب. وأنها إشارة إلى السلوك الفظ الذي يتصف به الكلبيون ونباحهم في وجه المجتمع الفاسد ليتخلى عن حماقاته. وفي الحديث العادي لدى الغربيين، يوصف الشخص الذي يسخر من الفكرة القائلة بوجود الخير في الطبيعة البشرية بأنه كلبي.

بذلك عن مفهوم الإنصاف والعدالة، حيث نكتب أقل ما يمكن. وأساس كل شيء في القانون اللاتيني هو الملكية التي عرّفت تعريفًا اتصف بالدقة المتناهية، على عقد محرر لا يترك شاردة ولا واردة. وقد عبّر عن ذلك الكاتب السياسي الفرنسي فالديك روسو[13] (Waldech-Rousseau) حيث قال: «نحن أيها السادة، أمة قديمة لها تاريخ طويل، ونتمسك بالماضي بأعمق الجذور، هذه الجذور نفسها التي قد يعتقد بعضهم أنه طالها الذبول والجفاف، فإنها على الرغم من ذلك لا تزال تحتفظ بحساسية معينة لدرجة أن أي جرح لها يوقظها، وينقل ذلك إلى الجسم كله. نحن أمة تسود فيها الشرعية وحكم القانون. نحن شعب لاتيني. نحن من هذا العرق الذي بدا له أن القانون المكتوب ضرورة من ضرورات حياته، لا يجنح إلى التعميم في ما يعرض له من أمور، بل يميل إلى القسط والحرص على حقوقه». (من خطاب ألقي في مجلس الشيوخ الفرنسي في 27 من تموز/ يوليو عام 1903).

هذا الكلام هو في أصل مفهوم خاص للدولة، وللسلطة السياسية على وجه العموم. فعند اللاتينيين تعتبر سلطة الدولة خارج الفرد وأعلى منه، أو كأنها سلطة مفارقة، إذ يمكن الاستيلاء عليها كما نستولي على السلاح، وأن نستخدمها أداة للتسلط والسيطرة. وواجب الفرد حماية نفسه من هذه السلطة، لأن الدولة لا تبدو في نظر الفرد رحيمة به بالضرورة. فالتجربة الطويلة التي مرت بالإنسان في حياته جعلته يرتاب كثيرًا تجاه الدولة ذاتها، حتى إنه لا يدهش ولا يسخط إذا ما أسيء استخدام السلطة، إذا ما استعملها الحاكم لنفسه ولأصدقائه. ومن هنا كان سر العاطفة الحماسية التي يتسلح بها اللاتينيون في معاركهم السياسية.

(13) بيار فالديك روسو (1846-1904) (Pierre Marie René Ernest Waldeck-Rousseau)، سياسي فرنسي جمهوري، كان والده محاميًا في نانت ومن زعماء الحزب الجمهوري انتخب نائبًا في عهد الجمهورية الثالثة 1873 وصار وزيرًا للداخلية في عام 1881 ثم في عام 1884؛ وبعد فترة من ممارسة مهنة المحاماة في باريس 1886-1893 عاد إلى الحياة السياسية عام 1894 سيناتورًا في مجلس الشيوخ ثم مرشحًا لرئاسة الجمهورية 1895 ثم صار رئيسًا لحكومة ائتلاف وطني عام 1899 دعمها الاشتراكيون والراديكاليون واحتفظ فيها بمنصب وزير الداخلية ووزير الأديان. استقال عام 1902 بعد انتخابات برلمانية تأكد فيها من انتصار الجمهورية وثباتها.

وما أعظم الفرق بين هذا والمفهوم الأنكلوسكسوني للدولة، فتعتبر الدولة لدى الأنكلوسكسونيين تعبيرًا عن الجماعة، والدولة لديهم أداة المواطن وخادمته وهو فوّضها سلطاته. إن الكاثوليكية الرومانية لم تكن على سبيل المثال مدرسة للتربية المدنية، كما كانت الكنائس البروتستانتية المشيخية المنبثقة عن الكالفنية (مذهب كنسي نسبة إلى كالفن[14] (Calvin)).

ما يسترعي نظرنا ويثير انتباهنا في كل هذه المفاهيم اللاتينية، هو وضوح حدودها. ويتميز اللاتيني بقدرة مذهلة على التحليل، وعلى التعميم في الوقت نفسه كذلك: ففي كل مشكلة يستخلص توًا المبدأ المتضمن فيها، مع النتائج المنطقية البعيدة الاحتمال للوجهة التي سيختارها الإنسان. وهو يتميز كذلك بمناقشة هذه المبادئ أكثر من مناقشة الحقائق. وهو يحب السياسة بالمطلق، ولو أدى به ذلك إلى اللجوء في ما يخص المصالح المادية (التي لا تخلو من أهمية عنده)، إلى الانتهازية الرخيصة وإلى المهارة الأكثر إبداعًا في التملص من المآزق.

ولا تنفصل موهبة التحليل هذه بحال عن مقدرة جميلة على التعبير. فاللغات اللاتينية ذات التخطيط الواضح والتكوين المنظم، تساعد كثيرًا وبروعة في هذا المجال، فتبدو وكأنها خلقت كي تنقش على الحجر. لكن ذلك هو في الآن نفسه نقطة ضعفها. ذلك أن المتعة في استخدامها يظللها سحر غادر. ومن هذه اللغات مثلًا الإسبانية التي تتميز بجمال الجرس، لدرجة تغري المرء بالتحدث بها واستخدامها في أساليب التعبير، بحيث لا يحل محل الفعل

---

(14) جان كالفن (1509-1564) (Jean Calvin)، مصلح ديني ولاهوتي فرنسي، مؤسس المذهب الكالفني المنتشر في سويسرا وفرنسا وهو من القلائل من الفلاسفة الذين استطاعوا أن يطبقوا ما أنتجوه من نظريات. في الرابعة عشرة من عمره أرسله أبوه الذي كان يعمل محاميًا إلى جامعة باريس لدراسة القانون والعلوم الإنسانية، وفي عام 1532 كان قد تخرج ليعمل دكتورًا في القانون في مدينة أورليون الواقعة في الشطر الشمالي لفرنسا. كان أول أعماله المنشورة كتاب دي كلامنتيا للفيلسوف الروماني لوسيوس أنايوس سنيكا والملقب بسنيكا الأصغر مصحوبًا بتعليقاته الشخصية. كان من أشد أتباع المذهب اللوثري (نسبة إلى مارتن لوثر). أجبرته الظروف على مغادرة باريس والإقامة في ستراسبورغ ثم بال (سويسرا) قبل أن يستقر منذ سنة 1541 في جنيف. أراد أن يجعل من مدينة جنيف مدينة مثالية، فعمل على تطبيق النظام بطريقة صارمة. من أهم أعماله تأسيس الديانة المسيحية (1536)، ويتعرض فيه للمعتقدات المسيحية.

فحسب وإنما محل التفكير نفسه. فإذا تغنى رجل من أميركا الشمالية بأنشودة عن حرية المبادئ والأفكار، فإنه لن يشعر، إلا قليلًا، بالحاجة إلى أن يكون رجلًا حر المبادئ والأفكار، وإذا ما تغنى كذلك بأنشودة عن شرعية القانون، فإنه يشعر بأنه فقد القوة الدافعة للدفاع عن القانون وحمايته. إن الرجل الفرنسي أقل انذهالًا بالموسيقى، ولذلك فهو قلما يشد انتباهه هذه الحساسية. ومع ذلك، فإن بضعة أبيات جميلة، ولو كانت لا تعني شيئًا، من شعر فيكتور هوغو[15] (Victor Hugo)، تسمح لنا بأن نتخيّل مقدار الإغراءات التي تحويها.

(3)

في ضوء الملاحظات التي سبقت، نستطيع أن نحدد السمات الرئيسة لسيكولوجية الشعوب اللاتينية.

اللاتيني الفرد هو أساسًا إنسان واع يسعى قبل كل شيء إلى إثبات نفسه. وفي حين أن الأنكلوسكسوني الشديد التواضع على المستوى الفردي، والشديد الاعتزاز ببلاده إلى حد عدواني، يتعاون مع غيره بإخلاص، بالنظر إلى كونه مدنيًا بالتقليد المتوارث كما بالغريزة الفطرية، فإن اللاتيني ينظر إلى الأمور من خلال شخصه. فهو عمومًا يتميز بالكبرياء والأنفة والزهو وحب الظهور، وقد يضحي في سبيل نجاحه الشخصي بنجاح الجماعة. وتجده يسارع إلى بذل الجهد والتضحية من أجل تسجيل نقطة في سجل شرفه الشخصي وليس في سبيل الواجب العام. ولا شك في أن كلًا من العرقين اللاتيني والأنكلوسكسوني أناني على طريقته الخاصة، لكن الأنكلوسكسوني هو بالحق صوفي صاحب تفكير عملي. أما اللاتيني فهو شكاك، ولكنه يملك - على كل حال - أكثر من الأنكلوسكسوني الإحساس بالواقعية. إن العمل في صورته الحديثة التي

(15) فيكتور هوغو (1802-1885) (Victor Hugo) شاعر ومسرحي وروائي فرنسي رومنطيقي يعتبر من أهم الكتاب باللغة الفرنسية كما أنه كان شخصية سياسية ومثقفًا ملتزمًا أدى دورًا أساسيًا في تاريخ القرن التاسع عشر. كتب الشعر الملحمي والشعر الملتزم (ضد نابليون الثالث) كما كتب الرواية الشعبية التي حصدت المجد (البؤساء، أحدب نوتردام... إلخ). يعتبر من كبار المساهمين في تجديد الشعر والمسرح في فرنسا.

هي التنظيم، أكثر اتفاقًا مع إمكانات الأنكلوسكسوني. ومع ذلك ففي بعض الظروف التي لم يعد للنظام شأن فيها، خصوصًا في الأزمات، نجد اللاتيني يعرف جيدًا كيف ينجو بنفسه؛ فهو قوي الأعصاب وقليل العاطفية إلى حد ما، فهذا المخلوق الذكي يكشف عن أنه يجيد التخلص من المآزق والأزمات. ويجب ألا تخدعنا بلاغته وغزارة تعبيراته الكلامية، وهي بلا شك لا تخدعه هو إلا في الحدود التي يحلو لنفسه فيها أن ينخدع.

ويجب أن نقرر أن هذه الخصال التي يتصف بها الفرد، لا تخدم المجموع بحال. وفي الحقيقة، فإن اللاتيني لا يرتقي أبدًا إلا إلى الأشكال البدائية والمحدودة من التجمع، ولكنه حينذاك ينخرط فيها بكل حماسة ووفاء المناصر العنيد: فهو لا يتجاوز المدينة باختياره، بل هو يفضل دائمًا حياة العشيرة. وتبدو العائلة له ببساطة، بحسب التعبير الدقيق لهنري باربوس[16] (Henri Barbusse)، وكأنها «مؤامرة صغرى». وأنا في غاية الدهشة كم أن هذا الاصطلاح (العائلة) يثير آراء مختلفة لدى الأنكلوسكسوني البروتستانتي، وعند اللاتيني الكاثوليكي. فعند سكان البحر المتوسط، وفي الحضارات التي نشأت منهم، فإن تداعي المعاني التي يولدها هذا المصطلح تدور حول معنى الرهط من الناس المتضامنين في ما بينهم برباط مصالحهم الناشئة من الروابط العائلية. ويتتابنا جميعًا الشعور بوجود شيء مقدس كما في كل ما يمس ذلك العنصر العميق

(16) هنري باربوس (1873-1935) (Adrien Gustave Henri Barbusse) كاتب فرنسي من أسرة بروتستانتية، دخل نادي الكتاب في سن مبكرة بعد مشاركته في مسابقة شعرية نظمتها صحيفة باريسية ونشر أول ديوان شعري له عام 1895. مارس الصحافة وكتب النثر والرواية. وفي عام 1914 تطوع في مشاة الجيش على الرغم من المرض وشارك في الحرب في الخطوط الأمامية حتى 1916 وكتب روايته الشهيرة عن الحرب (النار (*Le Feu*)) والتي نالت جائزة غونكور 1916. وفي عام 1917 أسس وترأس أول جمعية لقدامى المحاربين لينضم عام 1923 إلى الحزب الشيوعي الفرنسي ويصبح من أصدقاء لينين وغوركي. أسس مجلة عالم (*Monde*) التي كتب فيها كبار الكتاب من العالم كله (توقفت 1935). كان من أشد المعجبين بالثورة الروسية وكتب عنها ولها كثيرًا، وحاول بلورة أدب بروليتاري، وهذه كانت موضة يسارية وشيوعية في تلك الأيام بتأثير من الجدانوفية الروسية في الأدب. أسس حركة للسلم شاركه فيها رومان رولان وألبير كامو. كتب سيرة حياة ستالين (1935) ومات في روسيا في السنة نفسها وسارت كل باريس في جنازته.

والغامض المسمى رابط الدم. ومن تداعي المعاني نفسه تشتق فكرة عفة المرأة التي يدافع عنها اللاتيني، اللاأخلاقي غالبًا، بغيرة الرجل الشرقي. إن العائلة والعشيرة والمدن والجمعيات والنقابات والزبائن، هي الحقيقة الواقعية لجميع الناس الذين شكلوا حياتهم في صورة هذا المجتمع. فالدولة التي نتصورها على أنها سلطة جليلة الشأن، ما زالت بعيدة جدًا. ويجب والحالة هذه أن نكون على علاقة طيبة مع أولئك الذين يستولون عليها، ويعرفون كيفية استخدامها. وفي هذه الظروف تصبح البراعة السياسية بمعنى المكيافيلية مشاعة بين الناس. لكن لن يكون هناك سوى القليل من المواطنة المدنية بمعنى «الخدمة العامة» على الطريقة الأميركية. فالضعف الملموس الذي لوحظ على المجتمعات اللاتينية هو أنها لم تنجح في إرساء قواعد لنظم سياسية قوية لها صفة البقاء. إنها تنتقل من الفوضى إلى الاستبداد من دون أن تجد ولو لمرات قليلة «الحالة الوسطى» التي بلغها - في غير مشقة - السويسريون والإنكليز والهولنديون، وهم الذين ليس لهم من اللاتينية شيء.

إن المحددات نفسها المترافقة مع المواهب الفردية نفسها تتكرر بالنسبة إلى اللاتيني في ميدان الإنتاج؛ فهو شعب نابغ واسع الحيلة، سريع التخلص من المآزق (debrouillard)، بحسب التعبير الذي نحبه كثيرًا. وحين يحب عمله يكون قادرًا على التفاني فيه كما الفنان، والإخلاص الدائب له بحماسة عاطفية خلاقة؛ وقد تولد عزة نفسه المفعول نفسه، فهو ملح في أن يظهر للملأ، في أن يُثبت للناس، بأنه هنا، لا بل وكما نقول بالعامية «أينما ترميه تجده واقفًا»... ففي هذا الميدان، يعتبر اللاتيني متفوقًا بشكل ملحوظ على قرينه الأنكلوسكسوني، وعلى أهل الشمال. وهو تاجر، يتصف بالفطنة والمهارة والتبصر، وبالحذر والتوفير، ما يجعله يضرب بسهم وافر في المشروعات الصغيرة، مع احتفاظه بالقدرة على إنجاح المشروعات الكبرى. وأنت تجده أمامك في كل مكان يُحتاج فيه إلى المرونة والدبلوماسية، لا بل والدسيسة حتى. كما أنه يتمتع بقوة الحجة وصدق الإقناع، والقدرة على سوق البرهان على ما يحكم عليه من قضايا. وفي البلاد اللاتينية تقيم «إدارة الأعمال» للناس وزنًا كما تقيم للأشياء سواء بسواء. والمبدأ في ذلك هو «قبل أن تكسبه عميلًا، يجب أن تكسبه صديقًا أولًا». وقد يكون في

هذا المبدأ بعض الجوانب الإنسانية التي تخل بنظام الإدارة، لكنه مبدأ يعيش ولا يموت، ويحيا ولا يفنى... يدر الربح ولا يجلب الخسران.

هذه الصفات نفسها تتحول إلى مناسبة لظهور العيوب في مجتمع الإنتاج الصناعي الكبير: أي إنه في عصر صار فيه من الضروري تحقيق دقة الإدارة وحسن التنظيم، تصبح شروط النجاح متناقضة في العمق مع المناخ اللازم لتفتح الفرد. لقد كان البحر المتوسط مركز اقتصاد العالم. ولقد ضاع هذا المركز منذ اكتشاف المحيطات والقارات عبر المحيطات، وخصوصًا منذ الثورة الصناعية الجديدة التي لم تعد قائمة على العبقرية الفردية للمنتج، بل على التنظيم الميكانيكي لعصر في طريقه إلى أن يصبح عصرًا جماعيًا. وهكذا، فإننا نرى أن اللاتينيين ينجحون بوصفهم أفرادًا في المجتمعات الأنكلوسكسونية، وقد ينجحون أحيانًا في هذه المجتمعات أكثر من الأنكلوسكسونيين أنفسهم، بيد أنهم ليسوا هم من يجدد اقتصاديات العالم؛ وإن كان يوجد في فرديتهم ما يقف حجر عثرة في طريق الإنجازات الضخمة في عصرنا هذا. وإذا كان هناك من ثقل خاص بالأشياء الجميلة حقًا، كما يقول الكاتب الفرنسي موريس بارّيس[17] (Maurice Barrès) فإن في هذه المشروعات العملاقة المميزة لعصرنا، شيء من الإغفال والسرية الجماعية المتناقضة مع الفردية اللاتينية.

هل معنى ذلك، أن نسقط من حسابنا دور الفرد في الإنتاج؟ قد يكون ذلك عندما نقصد الحديث عن الكم في الإنتاج، لا الكيف. فنحن نحتاج إلى الفرد حين نتصدى للحديث عن الكيف، ومهما تكن الإنجازات الثقافية للشعب الأنكلوسكسوني، شعب الشمال، فإن أوروبا، لن تكون أوروبا من دون رصيد

---

(17) أوغست موريس بارّيس (1862-1923) (Auguste-Maurice Barrès) روائي فرنسي وصحفي وسياسي أمضى وقتًا في إيطاليا وصار وجهًا من وجوه الأدب الفرنسي بعد مؤلفه عبادة الذات (*The Cult of the Self*) (1888). انتخب نائبًا عام 1888، وأدى دورًا سياسيًا مهمًا حتى وفاته. ارتبط اسمه الأدبي بتيار الرموزية (Symbolism) الفرنسي وهو المعادل لتيار الجمالية البريطاني (Aestheticism) وتيار الانحطاطية الإيطالي (Decadentism) (تسمية أعدائهم لهم). تميزت أعماله بتمجيد حب إنساني للذات كما كان له ارتباط غامض بحركة التصوف السحري. كان من أشد المعادين لقضية درايفوس وكان من الذين نشروا وعمموا مصطلح «الوطنية القومية» (Nationalisme) باعتبارها حمائية واشتراكية.

الثقافة اللاتينية. فاللاتينية هي التي تحافظ في القارة القديمة على تراث الأدب الكلاسيكي الذي يثبت أكثر من أي شيء آخر دعائم شخصية أوروبا، وهي أيضًا التي تعطيها ذلك النضوج الذي يميّزها عن حيوية الشباب الأميركية وعن تلك الحيوية الشابة المزيّفة في روسيا.

اللاتيني يبدو عليه بسهولة أنه متنقل غير أن دعائمه ترتكز على الحكمة والحذر في الحياة الخاصة، وهما لا يتوفران دائمًا لدى أهل الشمال. واللاتيني يبدو عليه أيضًا أنه لا يبالي إلا قليلًا بالأخلاق، ولكن غياب الوهم يمتد أثره إلى شخصيته بالذات، وفي الأقل إلى أعماق ضمير هذا الشامخ بأنفه. وقد لا أكون مجافيًا للصواب إن اعتقدت بأن نوعًا من الصراحة الفكرية تطبعه أكثر من أولئك المخادعين من أهل الشمال الذين ليس عندهم الشجاعة للنظر إلى أعماق نفوسهم. إذًا، فاللاتينية تعكس إحدى السمات الدائمة للروح الإنسانية.

(4)

هناك إذًا حضارة لاتينية ذات مناخ خاص باللاتينية، وقد يكون من العسير أن نحلل عناصر هذا المناخ، ولكننا نستطيع التعرف إليها من خلال أشياء لا يمكن تحديدها، ومن خلال حضور خاص بها، ومن خلال عطر غير محدد يفوح أريجه في فضائها، أو ضوء من طبيعة خاصة يشع منها. فإذا وصلنا إلى حدودها ونحن قادمون من الخارج لمسناها لأول وهلة من دون أن نتردد في التعرف إليها. فلو كنا قادمين من أوروبا الوسطى إلى أقاليم البحر المتوسط أو من أميركا المسماة شمالية صوب تلك المسماة عن حق اللاتينية، فإننا ننطبع بالانطباع نفسه، حيث نجد في كليهما أسلوبًا خاصًا من الحياة ولونًا خاصًا من الحكومة وطابعًا خاصًا من الأخلاق والدين والروح الفنية، ونجد فيها شكلًا من الحرية الفكرية التي يصعب تحديدها.

ولننظر إلى المنطقة التي رسمنا حدودها آنفًا، وسنرى أن اللاتينية أشبه ما تكون بحالة المد والجزر؛ فأحيانًا تنبسط مساحتها وأحيانًا أخرى تنحسر عن بعض الأراضي التي غزتها. فمنطقتها القصوى هي بالتقريب منطقة

الإمبراطورية الرومانية، وتشمل في خارج أوروبا: أميركا الإسبانية والبرتغالية. ولكنها اليوم أبعد ما تكون من أن تشمل هذه الإمبراطورية. ذلك أن المناطق الشمالية المتطرفة من الإمبراطورية الرومانية، وهي مناطق لم يكن اللاتين قد استوطنوها بالكامل، غزتها عناصر جرمانية وسلافية (صقالبة) أو منغولية، وهي عناصر لم تنعكس عليها آثار البحر المتوسط الحضارية. وقد تمخضت عن ذلك قارة أوروبية لم تعد مراكز ثقلها ومراكز فاعليتها المعاصرة نابعة أساسًا من التأثير اللاتيني. فرومانيا الأمس، لم تعد كذلك من حيث العنصر والحضارة، إلا تجاوزًا وتهذيبًا. وفرنسا التي تنتسب من ناحية العنصر إلى شعوب الكلت والجرمان أكثر من انتسابها إلى شعب البحر المتوسط، ليست بالمعنى الصحيح لاتينية العنصر إلا في جزئها الجنوبي؛ ولو أن المدرسة الرسمية الموحدة ونظام التعليم الكلاسيكي في فرنسا قد جعلا منا لاتينيين في سلوكنا وفي طريقة التفكير ووتيرة الروح. وقد انطبعت أميركا الإسبانية والبرتغالية بهذا الطابع، لدرجة أن نفوذ أميركا الشمالية لم يفلح حتى الآن في طمس معالمه. لقد ظهر طمس المعالم بالأحرى في الداخل، حيث الجو يتراوح بين جبال الأنديز والمناخ الاستوائي؛ هنا ظهرت خصائص هندية أو زنجية تهدد بتشويه الأثر اللاتيني في هذا الجزء من العالم.

وبالتالي، فإننا نرى ارتسام «سفوح» أو أوجه؛ فالوجه اللاتيني لأوروبا هو وجه الإمبراطورية الرومانية التي لا نستطيع أن نحددها تحديدًا كافيًا على الخريطة عندما نتصدى لمناقشة مشكلات القارة القديمة، والتفكير في حلول لهذه المشكلات، لأن ردات الفعل لم تكن هي نفسها في كل الأجزاء التي سادها النظام الروماني والقانون الروماني والملكية الرومانية. ويجب علينا في هذا المقام أن نتأمل خريطة تقدم المسيحية لا في عهد الإمبراطورية فحسب، بل في العهد الكاثوليكي الروماني أيضًا. ففي هذين العهدين تغلغلت الروح اللاتينية، ورسخت أقدامها في التراث البربري لهذه القارة. فليس من شك في أن هناك فرقًا بين ذلك البلد الذي بقي مسيحيًا ثمانية عشر قرنًا، وذلك البلد الآخر الذي لم يعرف المسيحية إلا من خمسة أو ستة قرون؛ وعلى هذا لا يعتبر «السفح» السلافي - وإلى حد ما السفح الجرماني - إلا نصف أوروبيين.

فهناك عالم مختلف تمام الاختلاف متجه وجهة أخرى، وهو يبدأ من المنطقة الثلجية في شمال ألمانيا عند غابة توتوبرغ (Teutoburg Wald) التي فقد فيها القائد الروماني فاروس[18] (Varus) طوابير جنده. وتقدم لنا أميركا - مع الفرق - سفوحًا مشابهة: منها الأنكلوسكسوني، واللاتيني (أو الهندي). والوحدة الجغرافية للعالم الجديد لا تقوى على إخفاء تنوع الثقافة التي لا تزال قائمة بها، والتي لن تقوى القرون على محو آثارها.

وقد أتى وقت تنازع فيه أهل البحر المتوسط وأهل الشمال سلطان العالم. ويبدو أن المنافسة أشد اليوم بين الشرق والغرب منها بين الشمال والجنوب لأن الغرب قد اكتسب في نظرنا شخصية خاصة به، كانت مساهمة اللاتينية فيها عظيمة. نعم لم تكن أوروبا اللاتينية هي التي صنعت الثورة الصناعية، وقد حاولنا أن نستقصي تعليل ذلك، بيد أن هذا لا يحملنا - تبعًا لهذه الحقيقة - على عدم تقدير حجم الدور الجوهري الذي أدته أوروبا اللاتينية في تقدم الإنسانية. فالنظرة اللاتينية في فهمها للأمور وفي التصور الخاص للحياة، تشكل وجهًا لا يستغنى عنه في حضارتنا، فإننا نحقق بهذه النظرة أرقى ثقافة وأكثرها نزاهة، وفي صورة نوعية ودقيقة يغلب عليها الأدب أكثر مما يغلب عليها العلم. وسنرى في ما بعد الدينامية التي لا تقاوم لدى الأنكلوسكسون. أما عن اللاتين، فإن لهم نظامًا عجيبًا يفصل - بوعي - العمل عن الفكر ويتيح للفكر أن يقف أمام الواقع ذاته - ومن دون توسط من مناخ مكتنف - وذلك هو الضمان الأكيد للحرية الفكرية الكاملة. وإذا ما انتُزعت اللاتينية من العالم، فإنه يفقد بلا شك هذه المقدرة النفيسة.

(18) بوبليوس فاروس (46-9 ق.م) (Publius Quinctilius Varus) رجل سياسة وجنرال عسكري روماني هزم في معركة حاسمة في توتوبرغ دمرت فيها 3 فيالق رومانية.

الفصل الثالث
«البراعة» عند الشعب الفرنسي

(1)

لنبدأ أولًا بتحديد موقع فرنسا كي نبحث في وضعها الجغرافي عن حقيقة الظروف التي تفسر لنا ماهية الطبع الفرنسي. فلفرنسا ثلاثة سفوح أو أوجه، ونتيجة لهذه الوجوه الثلاثة، تعد فرنسا غربية وأوروبية ومتوسطية في آن. وينتج عن ذلك توازن خاص وفريد من نوعه.

من ناحية جبهتها الأطلسية تطل فرنسا على العالم الخارجي بنافذة مفتوحة على المحيط الواسع، وبذلك تتعرض للإغراءات الخارجة عن القارة، ولإغراء المغامرات البعيدة. هذه الـ «فرنسا» البحرية، الاستعمارية، التوسعية، تنتمي إلى المجموعة الليبرالية لدول الحضارات «الأنكلوأميركية» وهي في هذه الغربية تبدو حقًا «غريبة». فرياح الغرب الدائمة التي تهب على شواطئها تحمل إليها من المحيط شيئًا غير العذوبة الرطبة والنقية. وعلى العكس من ذلك، ونظرًا إلى أنها «قارية» نجدها ترتبط بأوروبا برباط الدم الذي لا ينفصل. وهي تختلف في هذا كل الاختلاف عن إنكلترا الجزيرية. غير أن كل الحزام الشرقي للبلد، أي ذلك الجزء الذي آل من طريق تقسيم شارلمان إلى لوثار[1] (Lothaire)، إنما هو من

(1) لوثار، بالألمانية *Lothar* وبالفرنسية *Lothaire* (795-855) هو إمبراطور الرومان (817-855) الذي حكم مع والده (الإمبراطور الكارولنجي لويس التقي) حتى عام 840 ثم أصبح ملك بافاريا وإيطاليا ووسط فرنسا. اختلف مع أشقائه وأدت صراعاتهم إلى زوال إمبراطورية الفرنج التي أسسها جدهم شارلمان وقاد ذلك إلى إرساء أسس تطور فرنسا وألمانيا الحديثتين.

أوروبا الوسطى في كثير من سماته الجغرافية والأخلاقية التي لا تغيب عن عين الناظر. وفي إطار هذه النظرة، لم نعد أطلسيين بل بريين، وأوروبيين خصوصًا. وكل التاريخ القديم والحديث يؤدي إلى هذه النتيجة: وهي أنه لا يوجد فرنسا من دون أن توجد أوروبا، ولا يمكن أن تكون أوروبا من دون فرنسا، ففرنسا جزء لا غنى عنه في أي نظام قاري.

ومن طريق جبهتها المتوسطية تتصل فرنسا اتصالًا مباشرًا بأفريقيا وآسيا والشرق الأقصى، أي في المكان: مع عالم خارجي عظيم، وفي الزمان: مع أمجد ماضٍ للإنسانية. ونحن نعرف الوحدة الأساسية لحوض البحر المتوسط، حيث تتشابه في كل مكان من مرسيليا إلى بيروت، ومن أزمير إلى برشلونة، وعلى ذلك فنحن على صلات وثيقة بمجتمعات لم تعد معاصرة لنا، وبأنماط من الثقافة تعدها أوروبا الشمالية غريبة عليها، ولكننا نرتبط بها بجاذبية خفية. وفي حين أننا نجد فلاحنا بعيدًا كل البعد من ذلك القائم بالزراعة الميكانيكية في العالم الجديد، فإننا نستطيع أن نعثر فيه على بعض التشابه مع «المزارع الصيني». فالأحواض والمساكب والمصاطب الزراعية في الريفييرا الفرنسية تعكس العمل الصبور لأجيال من الفلاحين: وهذه المدرجات الصناعية من الأراضي الزراعية تُذكّرنا بإنسانية خالدة لا تنال منها تقلبات الزمن.

وتأتي الخصيصة الوحيدة للسيكولوجية الفرنسية من هذا التنوع الذي صَهَرته القرون: فخلقت منه وحدة جديدة، ويقصد بهذا التنوع مجموعة متناقضة، تتجه في وقت معًا إلى الشرق وإلى الغرب، وإلى الماضي وإلى المستقبل، وإلى التقليد وإلى التقدم. فليس ثمة بلد أشد منه جرأة في آرائه وأكثر روتينية في عاداته. فأنت تجد دائمًا في فرنسا، ووفقًا لوجهة النظر، شيئًا يستحق النقد، ولكن فيها أيضًا دائمًا شيء يستحق الإعجاب.

وليس أيسر من ذلك أن نحدد جغرافيتنا العرقية. لا يوجد ما يسمى «بالعرق» الفرنسي، بحيث إن التعبير لا يعني شيئًا عند استخدامه. والواقع، أنه يوجد في الشمال جرمانيون، وفي الهضبة الوسطى وفي الغرب كلتيون (Celtes)، أو إذا

أردنا ألبيون (Albins)، وفي الجنوب متوسطيون. فنحن كما يقول سينيوبوس[2] (Siegnobos) من عرق مختلط، ولكننا نعرف جيدًا أن الاصطفاء الحاد لا يطوّر الذكاء، وأن ليس أي اختلاط بين الأعراق يعطي نتائج سيئة. ويبدو أن الشعب الفرنسي قد أثرى بهذا اللقاح المتنوع؛ فنحن مدينون للاتينيين بصفاء الذهن وموهبة التعبير، وللكلتيين بروحنا الفنية، وبفرديتنا التي تندفع أحيانًا فتصل إلى درجة الفوضى، وللجرمانيين بما فينا من عبقرية تنظيمية بناءة.

غير أن كل هذه الصفات المتباينة، قد انصهرت في وحدة واحدة، وتحولت جميعًا إلى صفة عامة واحدة، لم تتح لشعوب أخرى كالشعب الألماني مثلًا. فالوحدة الوطنية التي توصلنا إليها لم تقم على أساس العرق، وقد تكون الأصول الإثنية متميزة بعضها من بعض، ولكن على نقيض الشعبين الإنكليزي والألماني لم يَسُدْ عرق على عرق؛ فجميع الفرنسيين سواء انتسبوا إلى الجذع الجرماني أو الألبيني أو المتوسطي يعتبرون أنفسهم فرنسيين على قدم المساواة من دون فارق ناتج عن العرق أو الدم الذي يجري في عروقهم. ولكن هل أستطيع أن أقول الشيء نفسه عن الأنكلوسكسوني البريطاني بالنسبة إلى الكلتي أو عن الأميركي الشمالي بالنسبة إلى النيويوركي الأسمر، ناهيك بذكر احتقار النازي للسلافيين بالأمس؟ لقد نتجت الوحدة الوطنية الفرنسية في الأكثر من التكيف القديم مع الأرض والمناخ ومن تقاليد تاريخية، أحدثت نوعًا من نمط العيش أو من الثقافة ودعمته. إنها وحدة اجتماعية أكثر منها سياسية، بحيث تتجلى قوة الأمة في الأسرة وفي الفرد خصوصًا لا في الدولة. والمواطنية المدنية في فرنسا هي دون العادي، أما الملاط (الأسمنت) الاجتماعي فله قوة الصخر.

ولما كان الفرد في بلدنا أساس الدولة، فلا يفوتنا أن نذكر أن أزمة الفردية في فرنسا التي نشهدها اليوم، تبدو في منتهى الخطورة. فتكويننا – على عكس كثير من البلدان الأخرى – قديم ويعتبر منجزًا، في نواح كثيرة، منذ أمد طويل.

---

(2) شارل سينيوبوس (1854-1942) (Charles Seignobos) مؤرخ فرنسي متخصص بالجمهورية الثالثة وعضو في عصبة حقوق الإنسان.

ففي حين أن ألمانيا لم يتم تكوينها إلا منذ عام 1870، وأميركا منذ حرب الانفصال، وروسيا منذ الثورة البلشفية (على افتراض أن هناك نظمًا نهائية)، فإنه ينبغي علينا الاعتراف بأن الشخصية الفرنسية كانت قد اكتملت منذ القرن الثامن عشر، ونحن لا نشعر بثقة أن التطورات التي حدثت في ما بعد قد حسنتنا. إن حضارتنا بمقارنتها مع الحضارات الأخرى لتعتبر من دون شك حضارة في سن البلوغ.

إن الأزمة التي نعانيها - والحقيقة أننا على وعي بها - قد نتجت، منذ أن بلغنا قبل قرنين مرحلة النضج الفكري، عن حدثين عالميين لهما أهمية ضخمة: فقد غيرت الثورة الميكانيكية وطرائق الإنتاج كل ظروف الحياة المادية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قلب تطور العالم خارج أوروبا، مقاييس العظمة ومعاييرها، وكذلك التناسب بين البلاد، ونقل مركز الثقل في العالم. وروح النظام الجديد التي تسري في العالم كله ناتجة من مسيرة الإنتاج الضخم الذي أحل الكم محل الكيف، والعمل الجماعي الذي حل محل العمل الفردي. فكل الظروف إذًا تسير ضد تقاليدنا التي هي تقاليد ريفية وحرفية وفردية جدًا. ويجب علينا بالتالي أن نكيف أنفسنا تبعًا للظروف المستحدثة، ونحن نعرف ضرورة ذلك، ولكننا نعرف أيضًا أن خير صفاتنا لا تخدمنا في هذا التكيف دائمًا في حين أن نقائصنا تبدو فيه واضحة جدًا وساطعة تحت الشمس.

(2)

ما إن نلاحظها حتى تتكشف الروح الفرنسية عن اتجاهين متضادين: الأول نجده في شخصية سانشو (Sancho) والثاني في شخصية «دون كيشوت» (Don Quichotte).

هناك أولًا ميل عملي، بل مقترب جدًا من أرض الواقع، يظهر خصوصًا في مزاج الفلاح الفرنسي وسلوكه التقليدي. ويرجع الأصل في هذا المجال أساسًا إلى الكلتيين، على ما أظن، لأن الكلتي سواء في ذلك الرحالة أو الشاعر أو الخيالي، يرتبط ارتباطًا شديدًا بأسرته وأرضه وبكل ما يشده إلى بيئته، هذا

هو ما يميزنا أساسًا من الأنكلوسكسون والشماليين. وهذه الخصال تنمو أكثر ما يكون وبقوة شديدة، في حياتنا الخاصة. أما في الحياة العامة، فإنك ستجد أمامك رجلًا آخر ذا خصال أخرى. ومن هذه الناحية نجد أن الفرنسي بوصفه رب عائلة وعضوًا في هذه الأسرة أو فردًا، يحرص على المصلحة المادية، فضلًا عن أنه ذو عاطفة قوية مشبوبة تجاه الملكية الفردية، بالمعنى الروماني: uti et abuti، أي الاستخدام وسوء الاستخدام في آن. وهو في الأعمال الخاصة إنسان حسن التصرف يتمتع إلى درجة كبيرة بروح القصد والاعتدال، ويكاد أن يؤخذ عليه عدم التطلع إلى أعلى والرضا بالقليل، فالمثل يقول له: «عصفور في اليد خير من اثنين على الشجرة» وهو يؤمن بهذا... وبالاختصار نرى الفرنسي في حياته اليومية واقعيًا، يقف برجليه على الأرض، ولا ينخدع بالكلمات. وأعمال الفرنسيين تدار عادة إدارة حسنة، أو في الأقل حين تدهمهم الحروب والكوارث؛ نرى أثاث منازلهم مصونًا وملابسهم في حالة جيدة لفرط العناية بها، وهم لا يحبون الاستدانة، وميزانيتهم دائمًا في حالة توازن، وإذا كان انخفاض النقد سيجعل هذه الإدارة الحكيمة مستحيلة، فإنهم يحنون إلى الماضي ويأسون على الزمن الذي كانوا يستطيعون فيه - ولو ببعض التضحية - أن يرتبوا معاشهم وفقًا لقواعد الحكمة المالية التي ورثوها عن آبائهم. وهذه الحكمة وروح الادخار اللتان تدهشان الأجنبي قد تتحولان إلى ضيق في الأفق وإقليمية، بل - إلى حد ما - إلى مادية. ففي بلد قديم كبلدنا، حيث يصعب كسب المال، أليس من الطبيعي أن يتمسك الإنسان بالمال ويحميه؟ والأميركي أكثر بذلًا وكرمًا من الفرنسي؛ ولكنه إذا فقد ثروته فإنه يؤمن بإمكان تعويضها في حياته، أما نحن فلا نحمل هذا الوهم.

وليس هذا لعمري سوى وجه من وجوه طبعنا، يناقضه اتجاه، ليس أقل وضوحًا أيضًا، نحو الجماعية والمثالية والتجرد من الغرض. فالفرنسي إذا ما اطمأن على مصالحه ثم حدد بسرعة مطامحه تحت هذا السقف، تراه يحرر عقله بنوع من الفصل بين الفعل والفكر. وعند ذاك يسمو إلى التجرد الفكري بعملية انفصال لا أرى لها مثيلًا لدى أحد سوى الصيني. فترانا وقد تخطينا ضيق أفق القومية الطبقية أو العرقية لنسمو إلى فكرة عن الإنسان، هي إنسانية بكل معنى

الكلمة. وبهذا كانت قدرتنا على الإشعاع وقدرتنا على تحرير العقول وفتح النوافذ، قدرة لا تضاهى. وهذه الخصيصة كما رأينا قد ورثناها عن اللاتينيين من طريق الكلاسيكية التي هي أساس كل تعليمنا، والتي تُوجِّهنا نحوها دائمًا غريزتنا القومية الأشد عمقًا.

لنحاول الآن أن نفهم الفرنسي بوصفه فردًا، وهي أضمن طريقة للنفاذ إلى لب الموضوع. كل خير في فرنسا وكل شر فيها، كل عظمتها وكل ضعفها، تأتي من مفهومها للفرد: وإنه لمفهوم جليل، ويحتمل أن يكون أيضًا مفهومًا مصابًا بالمرض.

المسألة قبل كل شيء مسألة المطالبة بالاستقلال، وخصوصًا الاستقلال الفكري. فالفرنسي يقول إنه يفكر بنفسه ويقضي بنفسه ولا ينحني أمام أي سلطان، وبالتالي فهو أساسًا غير امتثالي، ومعاد للدكتاتورية. وإذا حدث أن اتبع أمرًا عن تعصب أو عن طاعة عمياء من خلال التضحية ببساطة بكل تفكير نقدي، فإن ذلك يرجع إلى الإيمان المتعصب بمبدأ أو بنظام أو بسياسة، ولكن ذلك لا يكون على شاكلة الرجل الألماني الذي إذا اتبع أمرًا ما، فإنه يتبعه بطبيعته الطيعة. في أميركا قد تحصل على كل شيء من الفرد باسم «الفاعلية»، أما في فرنسا، فإنك لا تحصل من الفرنسي على شيء إلا باسم مبدأ ما. وفي ضوء هذا الاتجاه، فإن الفكر الفرنسي، سواء كان ذلك من زاوية النقد أو من زاوية «التعصب الأيديولوجي»، يبدو بحق لا أداة من أدوات التحرر فحسب، بل خميرة خطرة وثورية عند الاقتضاء. وحيثما يمر الفرنسي، تهب من خلفه رياح تحرك الغبار وتزلزل أحيانًا دعامات الدول. وفي هذا المعنى كتب شارل بيغي يقول: «نحن نرفض بكل قوانا العقائد التي تعلّمها الدولة رفضنا لتلك التي تقول بها الكنيسة، فخير أن يتكون مئة فرد يتمتعون بعقول متحررة من أن يكون لنا الآلاف من ذوي العقول الباهتة المستعبدة».

والحال إننا لندرك جيدًا أنه ليس هناك استقلال فكري من دون استقلال اقتصادي، ولهذا فإن مطالبتنا بالاستقلال الفكري تصحبها مطالبة بالاستقلال في حياتنا الخاصة، فنحن قبل كل شيء لا نريد أن نعتمد على الآخرين،

وبالأخص على آخر معيّن، أكان جارنا أو رئيسنا: وبدلًا من أن نعاني من تدخله، فإننا نؤثر، على غباتنا، أن نلجأ إلى الدولة؛ فسلطتها في الأقل هي سلطة مغفَلة. ونحن نعرف أيضًا، أن الاستقلال يشمل حدًا أدنى من الأمن. وقد ظل الفرنسي لفترة طويلة يعتمد على نفسه فحسب لتحقيق الاستقلال، ومن هنا كانت رغبته الجامحة إلى التملك والادخار واهتمامه الدائب للحصول على معاش يحميه في شيخوخته. وطموح الفرنسي معقول ومتواضع على العموم، غاية ما ينشده في حياته: منزل صغير وحديقة ومعاش يسد به رمقه ويقضي به غلته. وهناك مثل فرنسي يقول: «كوبي صغير ولكنه يطفئ ظمئي»، ولا أعرف مثلًا آخر يعبر بأوضح من ذلك عن عقلية فرنسية معيّنة.

في ظل الجمهورية الثالثة كان الحزب الراديكالي، المعبّر بحق عن نكهتنا السياسية المحلية، يحيل على الدوام برنامجه باتجاه المقارنة، مدعيًا دائمًا الدفاع عن «الصغير» ضد «الكبير»، التاجر الصغير، المالك الصغير، وحتى الغشاش الصغير. ويمكننا أن نقرأ على باب مقهى باريسي في المنطقة السابعة، اللافتة التي تحمل اسمه: «الوزارة الصغيرة».

وفي ما ذكرناه آنفًا من خصال الفرنسيين نجد مزيجًا من المثالية والتفكير الرخيص. يقول الأجانب غالبًا إن الفرنسي «مغرض»، فهو يعرف أن الحصول على المال عسير، وأنه إذا ما اكتسبه الإنسان فلا بد من المحافظة عليه، وبالتالي فإنه يجب تضييق القيود والرقابة عليه... ذلك هو العرف لدى الفلاح الفرنسي. وبما أن تقاليدنا هي تقاليد الريف، وهو في فرنسا قريب دائمًا، فإننا نقر بأننا حريصون كل الحرص على أموالنا، وكثيرًا ما نكون أنانيين، متحرزين ضد من يريد أن يأخذ مالنا، وبالتالي متحرزين من الدولة. وأكثر من ذلك فإننا نغار منها ونحقد عليها في بعض الأحيان. ومع هذا فقد نشأ من هذه العيوب ذاتها شعب فريد في تطوره. شعب في سن البلوغ والنضج، نعم وهذا هو الأمر الجوهري، شعب يعرف كيف يواجه الحياة من دون طفولية ومن دون نفاق، ومن دون وهم كذلك. إننا شعب من دارسي الطباع. وفي الختام، فإن هذا الرصيد من حكمة الفلاحين عبّر الشاعر لافونتين (La Fontaine) عنه في قصصه: فواقعيته، واعتداله،

وفهمه الجيد للأمور، والذي يحمل أحيانًا بعض الكلبية (cynisme)، كل ذلك يمثل رأي الشعب الفرنسي في الناس وفي الأشياء.

إذًا فنحن قوم إنسانيون، متحضرون خاصة، ليس في عدتنا المادية فحسب بقدر ما في توازن عقلنا. ونحن نحمل شعورًا غريزيًا ضد كل ما هو فوضوي أو ما يجاوز الحد المعقول، ونكره تلك الضخامة (kolossal) التي يفتن بها الألمان. إن شعار: «لا تضخيم ولا تهويل» هو أحد الشعارات الأكثر قدسية في تربيتنا الأسرية، نحن نتجه دائمًا كلما أمكن ذلك إلى مخاطبة العقل والمنطق. وقد أبدى لي رجل إنكليزي، عميق إعجابه عندما سمع سيدة فرنسية تقول لطفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات: «كن منطقيًا (*sois raisonnable*)»، وأضاف قائلًا: إن المرأة الإنكليزية تقول لطفلها في هذا الموقف: «كن ولدًا صالحًا (*be a good boy*)»، و«هذا شيء جد مختلف». نحن في الحق ديكارتيون، تعلمنا عند لافونتين، ومشينا في خطى قدماء الإغريق، ويا له من نسب رائع.

وإذا سئلت من أي جانب لا تزال هذه الصورة صحيحة اليوم؟ فإني أجيب: إنها صحيحة عندما تنطبق على الفرد الفرنسي في حياته الخاصة، على الفرنسي التقليدي الذي ما زال موجودًا بالفطرة على الرغم من الحروب والثورات وتخفيضات النقد، ولكن علينا ألا نخطئ في هذا، فهو نمط من الرجال تكوّن في وسط اقتصادي واجتماعي آخذ في الاختفاء، ما يجعلنا نتساءل كيف يمكنه أن يصمد في ظروف وجودية صارت مختلفة اختلافًا تامًا.

(3)

هناك مفهوم فرنسي بحت يتعلق بالعمل، وهو مفهوم ورثناه عن أقدم مزدرع وطني يحمل مذاقنا المحلي، وينحصر هذا المفهوم في تمجيد العمل المتقن، وفي التعاون البناء ما بين الفكر والآلة، وفي الرغبة الغريزية في إظهار الشخصية الذاتية في الإنتاج، ولذا نجد العامل عندنا يريد دائمًا أن يضع توقيعه على كل ما ينتجه. وإنها لظاهرة بديعة تلك التي نشهدها لدى صاحب الحرفة القديمة الذي لا يكاد ينتهي من عمله حتى يرجع إلى الوراء خطوة... ليتأمل ما

صنعت يداه... وكما الأب الأبدي في اليوم السابع، يشعر بالفخر للإنجاز الذي أتمه... وقد كتب بيغي (Péguy) صفحات ممتازة في هذا المقام[3] أذكر منها:

«هل تصدقون أننا عرفنا في حياتنا عمالًا شديدي الرغبة في العمل. وعرفنا عمالًا لا يفكرون منذ بداية اليوم إلا في العمل. كانوا يستيقظون في الصباح المبكر جدًا وينشدون الأغاني فرحًا وطربًا لا لشيء إلا لكونهم سيقبلون على العمل بعد حين. وفي الساعة الحادية عشر يستأنفون الغناء عند ذهابهم لتناول الغذاء. كان العمل متعتهم الحقيقية وجوهر كيانهم وسبب وجودهم. كان للعمل شرف عظيم لا يدانيه شرف آخر، الشرف الأجمل من كل شرف آخر، الأكثر مسيحية، ولعله الشيء الوحيد الثابت لديهم. لقد عرفنا تلك العبادة للعمل المتقن والتي يحافظ عليها حتى متطلبات حدها الأقصى. لقد رأيت بعيني رأسي أثناء طفولتي «حشو» الكراسي بالروح وبالهمة والنشاط نفسيهما، وبتلك اليد التاريخية نفسها التي شيّدت لهذا الشعب الكاتدرائيات العظيمة. لم يكن هؤلاء العمال يخدمون أحدًا، فهم كانوا يشتغلون. وكان عندهم شرف مطلق، كما يليق بالشرف أن يكون. كان ينبغي أن تكون كل قطعة من الكرسي متقنة الصنع، هذا كان هدفهم، هذه كانت أولويتهم. لم يكن ينبغي أن تكون متقنة الصنع إرضاء لرئيسهم، أو للخبراء في الصنعة، أو لعملائهم، بل لأنه كان ينبغي أن تكون القطعة متقنة الصنع: لذاتها، وبذاتها، وفي صميم ذاتها».

لم يكن بيغي يخترع شيئًا هنا. «فهو عرف في شبابه بأورليان»، بحسب ما يقول الأخوة ثارو[4] (Tharaud)، «إنسانية عجوز كانت ثقافتها الأصلية تتشكل من تقاليد محلية وتجربة دهرية، لا تدين بشيء أو تدين بالقليل فحسب للخارج، وحيث السكان أقرب إلى الأرض وحياتها، شعب من العمال المزارعين، كان حتى الأمس ريفيًا خشنًا، يحضر معه إلى مهنته الجديدة كل القيم الزراعية القديمة، من حب للعمل وفرح بالعمل، مدهشين فعلًا، ومن عبادة العمل المتقن، أي باختصار كل ما له علاقة بعالم قديم جدًا، عالم الأمس، عالم أقرب بكثير إلى فرنسا النظام القديم منه إلى فرنسا اليوم».

---

(3) Charles Péguy, *La France*, N.R.F. (Paris: Gallimard, 1939).

(4) Jérôme et Jean Tharaud, *Notre cher Péguy* (Paris: Plon, 1926), p. 19.

وكما نرى حقًا، فإن هذا المصدر هو في الأساس حرفي. والواقع أن الفرنسي يعشق الخلق والاختراع، ثم كثيرًا ما يحدث أن يهمل التطبيق فلا يهتم به... إنه يزرع في حين يحصد آخرون، وهذا يفسر لنا لماذا كانت فرنسا في أصل اختراع كثير من الأشياء: السيارة والطائرة على سبيل المثال، ولكنها لا تكون موجودة عند توزيع الأرباح. وقد عبر عن ذلك جان كوكتو (Jean Cocteau) في عبارة موجزة مفيدة؛ إذ قال: «فرنسا التي لا تبالي... كانت تحمل بذورًا ملء جيوبها، وكانت تتركها تتساقط بإهمال خلف ظهرها، ثم كانت تأتي شعوب فتلتقط هذه البذور وتحملها معها إلى بلادها لتزرعها في أرضها، حيث أنتجت لها زهورًا ضخمة، من غير عطر أو شذى...».

وهنا يعن لنا أن نتساءل: أيمكن أن تتواءم هذه المفاهيم، على جدتها، مع الطرائق الجديدة للإنتاج؟ وجوابي أنها تتواءم جد المواءمة، على عكس ما قد نعتقد لأول وهلة. ففي التنظيم العقلاني الصناعي نجد «التفكير الفرنسي» الخلّاق، والبنّاء فكريًا، في مواجهة ذلك النوع من المشكلات الذي يلذ له أن يعالجها، ولا يغيب عن بال أحدنا ماذا يتضمن مذهب تايلر الإنكليزي (Taylor) إنه عبارة عن تأييد مبالغ فيه (شبه عدواني) للعقل في مقابل روتين التقاليد. وفي هذا الاتجاه يمكن أن يندرج هذا الرياضي (تايلر)، ولو أنه لم يكن يعي ذلك، في عداد تلاميذ ديكارت. والفرنسي «الديكارتي» يعتبر حقًا رائد التنظيم والتنميط، ذلك أن «الثورة» (الفرنسية) هي التي أتت بالنظام المتري الذي ما زال الإنكليز والأميركيون معارضين له. وتفكيرنا التحليلي والتعميمي ولغتنا – أداة الدقة – قد هيئا لنا استخدام العقل للتفكير أكثر من أي كان. وأكبر خطأ ترتكبه دعايتنا هو تمجيدنا كثيرًا لإنجازات فرنسا الأدبية: وليس لنا أي مسوغ كي نهمل التقنية وما تسميه الولايات المتحدة في عبارة رقيقة «المعرفة العملية» (Know how).

ولكننا نفقد نحن الفرنسيين – للأسف – جميع صفاتنا عند التطبيق كما يمارس اليوم. وسواء كان عاملًا أم فنانًا أم أديبًا، فإن ما يدفع الفرنسي إلى العمل كما قلنا هو شرف المهنة والكرامة. في حين أن ما يطلب اليوم من العامل هو: قوة الاحتمال والوعي والقدرة على مقاومة الملل في العمل

الأوتوماتيكي والمغفل، إن كان الأمر يتعلق بما يسمونه سلسلة التجميع. في هذا النوع من العمل حيث يفقد العامل شخصيته، لا نلمس للفرنسي إلا موهبة يسيرة، ولا عجب في ذلك. وهو يبدي أحيانًا القليل من الحماسة، والقليل من الضمير حتى، في العمل الذي يبذل للآخرين، أي ذلك الذي لا يهمه شخصيًا فلا يكترث بإنجازه جيدًا. فالعامل الفرنسي لا يعمل جيدًا إلا إذا كان يعمل لنفسه، أو إذا تحمس لعمل يشعر أنه مرتبط به، وعند ذاك ترى منه نشاطًا وفاعلية لا حدّ لهما، ولكن ليس ذلك بدافع المصلحة أو الضمير، وإنما بدافع الشرف والكرامة. ومن هنا نرى أي خطر تشكله علينا تلك الاتجاهات في حضارة أصبح منهاجها عملًا فنيًا تطبيقيًا بالمرة، وحيث أضحى فيها العمل، بل والاختراع نفسه، جماعيين وصار العمل الفردي غير ذي موضوع.

والمسألة هي إذًا أننا في حاجة قصوى، في عالم اليوم، إلى إيجاد أخلاقيات جديدة، وهي أخلاقيات جديدة بالنسبة إلينا نحن الفرنسيين خصوصًا. والمشكلة تنحصر الآن في العناية بالفرد مع الاعتراف بضرورة إدماجه في المجتمع. وإلى الآن لم يتح لفرنسا الوصول إلى حل لهذه المشكلة.

وأصل الآن إلى مسألة تبدو لي مهمة جدًا في تكوين الفكر الفرنسي بقدر أهمية مفهومه عن العمل، ألا وهي رأينا الخاص في الدين. فجو الحياة الدينية في فرنسا هو في الأصل جو بلد كاثوليكي، وهذا البلد لا يزال يحتفظ بشكل لا لبس فيه بالطابع الديني وإن بدا أنه غير مؤمن أحيانًا، وهو طابع لن يندثر أو يمحى بفعل التكوين الأصلي والدهري لفرنسا. فالفرنسي حتى إذا كان متشككًا في الدين أو حتى معاديًا للدين، فإنه يعيش ويفكر ويتصرف في إطار من الفكر الروماني. والفرنسي المتوسط يجد نفسه على راحته داخل إطار الفكر الكاثوليكي، في حين أنه يجد نفسه دائمًا لا يستريح في جو التفكير البروتستانتي الذي يبدو له مصطبغًا بصبغة أجنبية لا يدري ما هي، ويلوح له أن من الصعب عليه التكيف معها. ومن هنا ذلك التنافر الأساس بين فرنسا والبلاد البروتستانتية. ومن هنا أيضًا سوء الفهم المستمر والمشوب أحيانًا ببغضاء خفية تسيء إلى علاقاتنا مع الشعوب الأنكلوسكسونية.

وتنطوي الكاثوليكية الفرنسية على أثر صلب من عهد ما قبل المسيحية ينعكس في الاحترام الشعبي الذي يستمر حيًّا، لبعض الأيام ولبعض الأمكنة التي تعتبر مقدسة، بالمعنى الذي كان الأقدمون يعطونه لكلمة sacrum اللاتينية. لكن الكاثوليكية الفرنسية تشمل أيضًا، وبوجه خاص، الانتماء إلى مجتمع روحي يعبّر عن نفسه في الكنيسة (بالمفرد لأنه لا يمكن أن يكون هناك سوى كنيسة واحدة) التي تعم بركاتها بواسطة الأسرار والقربان (sacrement) التي يمنحها الكاهن المؤهل وفقًا لمراسم دينية معينة (السيامة أو رسامة الكاهن (ordination)) تضفي على الحياة لونًا من البروتوكول الصوفي.

ويقوم هذا النظام على أساس من الضبط والربط: فيخضع الفرد روحيًا، ولكنه يعود ليجد نفسه على مستوى آخر، فهو الضعيف لأنه كان في حاجة إلى هذه الدعامة، والرسول، والصوفي، ورجل العمل لأنه يجد في هذا الخضوع نفسه حرية مسلك جديدة. فالكنيسة في فرنسا هي إذًا عبارة عن سلم من المراتب تعطي للمجتمع «إطارًا أخلاقيًا» وهي بهذا عامل انتظام، ودورها في حياة البلد، ليس من الناحية الدينية فحسب، بل الاجتماعية والسياسية، هو دور عظيم. فكون الفرنسي كاثوليكيًا أو معاديًا للكاثوليكية، إنما يعتبر في فرنسا أمرًا سياسيًا، إضافة إلى كونه مسألة دينية، وحين تقف الكنيسة في وجه الدولة وكأنها سلطة/ قوة أخرى، فإنه ينتج عن ذلك وجود نزعة معادية للكنيسة في فرنسا؛ وهذا ما لا تعرفه المجتمعات البروتستانتية.

ولم يعلمنا هذا الدين لا المسؤوليات الأخلاقية للفرد ولا ممارسة الحرية السياسية. لقد وضعنا في إطار مدعم من «النظام الكنسي» الذي لا ننكر عظمته، لكنه يشابه أيضًا منظمة بوليسية عليا للعقول والأخلاق. وقد خضعت بلادنا إلى حد كبير لهذا الدين، ولكنها قاومته أيضًا إلى حد كبير تارة من طريق «مذهب الشك»، وتارة أخرى بأن تشرك مع الممارسة ادعاء عدم التضحية بالحرية النقدية. وقد حدث أن عددًا كبيرًا من الفرنسيين الذين قاوموها بقوة، خرجوا على الكنيسة كراهية إلى حد ما، وأعداء لها، ولكن ظل الأكثرون فيها، إذ توصلوا إلى طريق من التعايش (modus vivendi) يحفظ لهم الحرية العقلية. وبما

أنه لا يوجد تقريبًا بروتستانتيون في فرنسا، فإنه يمكن القول بأن جميع الفرنسيين سواء الذين ظلوا على ولائهم للكنيسة، أم الذين خرجوا على طاعتها - يحملون طابع الكاثوليكية. وفولتير من هذه الناحية هو حقًا نتاج صاف لهذا المنبت. فما من بلد بروتستانتي كان مستطيعًا أن ينبت مثل فولتير. لقد بلغنا في بلدنا درجة من تحرر العقل لم يعرفها بلد آخر، فقد تخلص العقل - ليس من العقيدة فحسب، بل أيضًا من إكراهات الأخلاق - فوصل إلى استقلال لا تعرفه إنكلترا المتطهرة ولا ألمانيا ذات النظام المنهجي، ولا أميركا صاحبة الفاعلية... هذا التحليق في التفكير الذي يستنشق الإنسان فيه الهواء المر والمنعش، هواء القمم العالية، يدهش غالبًا الأجانب الذين يتاح لهم الاتصال به، يدهشهم كأنه معجزة خالصة.

وفي السياسة كانت النتيجة أقل توفيقًا. ففي الوقت الذي راحت فيه فرنسا الكاثوليكية تنتظم في إطار نظام تسلطي، اتجهت الملَكية - وكانت قبل ذلك أكثر توازنًا - إلى نظام مطلق. وفرنسا الحديثة، فرنسا الثورة، هي نتاج ثورة مزدوجة ضد السلطة، أكانت سلطة الملك، أم سلطة الكنيسة. ومن هنا تشوهت لدينا فكرة السلطة وفكرة الحرية في آن. ولم نستطع أن نتصور سلطة تكون متحررة، أو حرية تكون بنّاءة. وهذا العيب في أصل فرنسا المعاصرة، وهي ما برحت تعاني منه.

(4)

إن مسلكنا في الحياة السياسية والاجتماعية والخاصة، على السواء، ليتأثر تأثيرًا مباشرًا بما سبق ذكره وبالمنابع المختلفة التي نبعت منها شخصيتنا القومية. ومن السهل أن نرى ما نحن مدينون به لأصلنا اللاتيني ولأصلنا الكلتي. إنها مزايا ولا شك، بيد أنها تتحول بسهولة إلى عيوب، إما نتيجة للتطرف وإما نتيجة لسوء استخدامها. والقوة المقابلة والتي توازن العرق الجرماني موجودة هنا ولا شك، ولكنها في العموم غير كافية، خصوصًا في الساحة العامة. ففي

فرنسا هناك دومًا وبشكل متناسب: كثير من فرنسجيتوريكس[5] (Vercingetorix) وكثير من نوماس رومستانس[6] (Noumas Roumestans).

إذًا ماذا ورثنا عن اللاتينيين؟ورثنا بنيانًا اجتماعيًا متينًا إلى حد مدهش، يقوم على الأسرة وهي أكثر قوة وأمنع صلابة وأشد بقاء من الدولة ذاتها؛ ولكن التعصب العشائري والتحزب الزبائني والانتماء النقابي، تصبح عند الاقتضاء مفاهيم أكثر وضوحًا للوعي الشعبي من المصلحة القومية. وقد ورثنا عن اللاتين أيضًا مفهومنا للقانون، لذلك القانون المحدد المكتوب المختلف جدًا عن القانون العرفي البريطاني. فالرباط الاجتماعي يبدو لدينا كأنه عقد بين شركاء لا يثق واحدهم في الآخر، معتبرين جميعًا أنه من الأحسن تأكيد المؤكد مرتين (على حد قول بعض القصاصين) وأنه لا يوجد ما يكفي من الشهادات الجامعية. فنحن شعب من المحامين (لابسي الثوب، بالفرنسية Robins، وبالإيطالية Togati)، لا يعتقدون كما اعتقد روسو (Rousseau) – ذلك السويسري – بأن الإنسان خيّر بطبيعته.

ومن هنا كان مفهومنا للدولة وللسلطة العامة على وجه الإجمال، فنحن نعتبر الدولة – تبعًا لمفهومنا اللاتيني الحقيقي – أشبه ما تكون بكيان خارج عن الفرد وأعلى منه، ومن المحتمل أن يكون خطرًا عليه. والواقع أننا نعتبر الدولة عدوًا إلى حد ما، يجب على المرء أن يحمي نفسه منه، ومن الحرص أن يبتعد المرء عنها ما أمكن وذلك في سبيل المصلحة العليا للأسرة... كان

---

(5) فرسنجيتوريكس (حوالى 80–40 ق.م) قائد غالي (gaulois) لإحدى القبائل، نجح بتوحيد معظم القبائل والشعوب الغالية لصد هجومات الجنرال الروماني يوليوس قيصر الذي هزمه في معركة أليزيا (52 ق.م) وسجنه ثم أعدمه في روما. يعتبر فرسنجيتوريكس أول من نجح بتوحيد هذه الشعوب كما أنه كان من أبرز القادة والاستراتيجيين العسكريين في زمانه. اعتبره الفرنسيون ممثلًا لهويتهم وحضارتهم القديمة خصوصًا مع تصاعد الصراع الألماني – الفرنسي؛ وتحول لاحقًا إلى أيقونة أسطورية وقومية في فرنسا حتى أنه صار ما بين الأعوام 1870 (بعد هزيمة الفرنسيين على يد الألمان) و1950 في الكتب المدرسية الفرنسية رمزًا لفرنسا وأول قائد فرنسي حقيقي.

(6) عنوان رواية لألفونس دوديه وهي تتحدث عن غزو العادات والأخلاق الباريسية لفرنسا العميقة.

كونفوشيوس[7] (Confucius) يقول: إنه من حسن الأخلاق أن يسرق المرء من الدولة ليطعم أباه العجوز، ولسنا بعيدين من أن نشاطر الفيلسوف رأيه، فنحن في فرنسا نحمل شيئًا من الاستنكار الخفي لكل من يدفع الضريبة أو يسدد رسم الجمرك من دون أن يحاول أن يتخلص منها. إننا لا نعتبره شخصًا سيئًا وإنما نراه مقصرًا لم يبذل ما كان في وسعه القيام به. ولكننا في الوقت عينه نرى الدولة أداة قوة يمكن الاستيلاء عليها: فأعداؤنا قد يستخدمونها للسيطرة علينا، وهذا أمر لا يمكن التسامح فيه بالنظر إلى طباعنا. أما إذا كان أصدقاؤنا هم الذين سيستولون عليها، فإننا سنستفيد معهم. ومن هنا كانت تلك الحماسة الحزبية التي تجعل حياتنا العامة مختلفة جد الاختلاف عن مثيلاتها في إنكلترا وسويسرا، حيث تعتبر الدولة ببساطة تعبيرًا عن الجماعة. وهنا يظهر التناقض بين الكاثوليكي والبروتستانتي، لأن بنياننا الاجتماعي ظل كاثوليكيًا في السياسة كما في الدين.

ونحن مدينون للاتينيين أيضًا بقدرتنا في التفكير والتعبير، وقدرة الفرنسي على التحليل تجل عن الوصف. حتى إن أقل واحد شأنًا بيننا، رجل الشارع مثلًا، يتمتع بقدرة خارقة على التعميم، وبموهبة التمييز في أي مشكلة، لاستخلاص المبدأ الأساس والتعرف إلى النتائج التي يمكن أن تنتج عنها. وفي أي ظرف يواجهه سيعرف الناخب - بغريزته الصادقة - أين هو الاتجاه المناسب: إلى اليمين أم إلى اليسار؛ وهو سيدرك مسبقًا بعقله المنطقي المحب للتقدير الاستقرائي ما هي نهاية الطريق: الرجعية أم الثورة. وبمثل هذه الخطوط الفاصلة تتميز الأحزاب في فرنسا، حيث يكون المبدأ فوق التطبيق العملي مما يثير دهشة الرجل الأجنبي الذي تعود أن يضحي بالمبدأ وهو صاحب العقل السليم الذي يغلب عنده حب الحياة أولًا. ولعل هذا الموقف المتناقض يرجع إلى وضوح شديد في التفكير عندنا، الأمر الذي يدفعنا إلى استعراض المشكلات بطريقة واضحة ذكية، مما قد يجعل الحلول متفجرة، بدلًا من أن

---

(7) كونفوشيوس (551-497 ق.م) معلّم وفيلسوف وسياسي صيني صاحب مدرسة ركّزت على تعليم المسؤولية الأخلاقية للفرد وللحكومات والاستقامة في العلاقات الاجتماعية مقرونة بالقسط والميزان وبالدقة والصرامة.

يساعد على تسهيلها. فسهولة التعبير لدينا تبدو هنا كحبائل نصبت لنا. وإذا قارنا أنفسنا - من هذه الوجهة - بالألمان الذين تقيدهم لغتهم فلا يستطيعون إخراج ما بداخلهم، فإننا سنعجب لمقدار الصفاء والوضوح الذي ينجح الفكر الفرنسي أن يتواصل بواسطته مع غيره. ونحن في هذا نندرج مع سكان البحر المتوسط أكثر مما نندرج مع أهل الشمال، ولكن مع ذلك ففي نقطة وسط بين الاثنين؛ لأنه إذا كان الاعتدال وعدم التأنق في لغتنا قد حال بيننا وبين «الغنائية» الفصيحة على الطريقة الإسبانية، فإن كلاسيكيتنا تضطرنا فكريًا إلى البناء من حيث يرفض الإنكليزي ذلك بعناد. وفي هذا المجال، فإن المدرسة الثانوية «الليسيه» تطبع كل الفرنسيين بدمغة لا تمحى.

وبعد... فقد تحدثنا كثيرًا عما نحن مدينون به للاتينيين، ولكننا لم نتطرق ما فيه الكفاية إلى الخصال التي أخذناها عن الكلتيين. وإني لست بعيدًا من أن أرى في هذا الميراث الكلتي العنصر الجوهري لتراثنا الاجتماعي والعاطفي. وهنا يتجه الفكر توًا إلى الغموض، إلى شعر التراث البروتاني (bretons) (نسبة إلى مقاطعة Bretagne الفرنسية)، وإلى السحر الرومنطيقي للفولكور الغالي (gaulois). ولكننا ورثنا عن الكلتيين أيضًا حس المنفعة والميل الشديد إلى الادخار، والجدية في إدارة ميزانية الأسرة، والتعلق بالأرض. وينظر الأجنبي إلى الفرنسي باعتباره رجلًا لامعًا وخفيفًا، غير قادر على التحدث جديًا في أمر من الأمور. ويا لخطل هذه النظرة! وعندما نتصل بجالياتنا الفرنسية عبر المحيطات، في أميركا اللاتينية مثلًا، نرى أن مواطنينا الذين يشغلون مراكز مهمة في تلك البلاد مدينون بهذا لتلك الصفات القوية الجادة التي ورثوها عن أجدادهم الفلاحين أو الجبليين، ولو أن بعضهم يعتبرها خسيسة. وترى الإنكليزي في مثل هذا الوسط أكثر ادعاء وأناقة، ولكنه أقل استقرارًا وثباتًا، وترى الفرنسي من أصل ريفي في تلك البلدان أقل أناقة، محتفظًا بمظهره الريفي القروي الذي يعكس طبعه الخشن، ولكنه فلاح يلبس جزمة ممتلئة صلبة. ولا يعرفنا كثيرون بهذا الطابع الذي يناقض سمعتنا بأننا غير مستقرين. ولكن، هل ما هو أشد صلابة من منطقة السهول الوسطى عندنا والتي تكدس لنا النقود؟

ولعلنا ورثنا عن الكلتيين أيضًا ذلك الجانب الفوضوي في فرديتنا. وهذه الفردية إذا لمعت في مجال الفكر أو الفن، فإنها غير مكللة بالنجاح في الميدان الاجتماعي، فهي أم الغيرة التي تعتبر كل تدخل من جانب الجماعة إهانة لها. ومن الفردية أيضًا جاءت السمة الهدامة لذكائنا الذي يشعر براحة في المعارضة أكثر من شعوره بها في التعاون. فاللاتيني - الذي ما زال يتذكر روما القديمة - قادر على فهم المنشآت السياسية الكبرى والإعجاب بها في حال عدم استطاعته تحقيقها. أما الكلتي فهو بصفة خاصة شخص مقاوم... وبقدر ما إننا نرفض، بدافع الطبع أكثر من العقيدة، التدخلات الضرورية من جانب المجتمع، فجل الذي أخشاه أن تكون هذه الصفات هي ما نأخذه من الكلتيين.

هذه النتائج التي ترتبت على الأصل المزدوج (الكلتية واللاتينية)، رائعة في الميدان الفكري، ولكنها تصبح، عند الاقتضاء، مضرّة في ما يتعلق بالسياسة. ويتعرض الفرنسي للوقوع في إفراط مزدوج، سواء أكان ذلك بسبب إخلاصه لمبدئه أم بسبب أنانيته. وتبدو هذه الأثرة أحيانًا في أحط درجاتها، ولكن هناك ما يعوّض عنها عندما نكرس أنفسنا لجنون المبادئ: وقد أوضح روبير دو جوفنيل[8] (Robert de Jouvenel)، ذلك المتابع والناقد الدقيق للسياسة الفرنسية، أن مشروعات القوانين بالنسبة إلى أعضاء البرلمان، أهم بكثير من القوانين، ذلك لأن المبادئ - وليست المصالح - هي التي تحتل المكانة الأولى في مناقشاتها، ونحن نحولها (المبادئ) بالحماسة إلى لون من التعصب الأيديولوجي الذي ننتهي من خلاله إلى المبالغات الحمقاء. والحق أن فرنسا قد عاشت - طيلة أجيال - في ظروف بلد يتمتع بكثير من الامتيازات، بلد لم تكن تبدو فيه وكأنه من الضروري والمنطقي أن تحدث نتائج المبادئ: فكان بإمكان المرء أن يقول إنه ثوري وهو في الوقت نفسه يحيا حياة بورجوازية، وأن يمدح أي مذهب

(8) روبير دو جوفنيل (1882-1924) (Robert de Jouvenel) صحافي فرنسي كان مقربًا من التيار الجمهوري الراديكالي، وهو شقيق رجل السياسة والصحافة هنري دو جوفنيل (1882-1924) المفوض السامي لفرنسا في سورية ولبنان (1923-1925). ارتبط اسم روبير بعد وفاته بتيار المعادين للبرلمانية، وذلك بسبب المقدمة التي وضعها بول موران لكتاب روبير دو جوفنيل جمهورية الرفقاء عام 1934، على الرغم من أنه كان في شبابه مناضلًا يساريًا جمهوريًا وديمقراطيًا.

ديماغوجي من دون أن يكون لذلك أثر في حياته الخاصة. وفي كتاب روبير دو جوفنيل جمهورية الرفقاء (*République des camarades*) الذي ألفه عشية قيام الحرب العالمية الأولى، قال الكتاب: «فرنسا بلد سعيد، تربته خصبة، والعامل الحرفي فيه ذكي مبدع، والثروة فيه مجزأة. والسياسة فيه رأي الأفراد وذوقهم، ولكنها ليست شرط حياتهم».

لقد تغيرت الظروف تمامًا وبقي علينا أن نعلم إن كان الفرنسي في الأحوال الحاضرة، يدرك أن المبادئ عندما نطبقها يمكن أن يكون لها أثر في المصلحة الخاصة لكل فرد؟ إن الانفصال الذي تحدثنا عنه في ما سبق بين المبدأ وتطبيقه لم يعد مقبولًا اليوم كما كان بالأمس. فالفرنسي الذي يصوت بصفته مذهبيًا متعنتًا مع اليسار هو - غالبًا - الفرنسي نفسه الذي ينزلق إلى الأنانية المطلقة عند الدفاع عن مصالحه. وهذا الشيوعي المالك - وما أكثر الملاك الشيوعيين لدينا - على أتم استعداد للدفاع بكل ما يملك من قوى عن ملكيته، بل إنه قد يجد من الخطأ الفاحش أن يفرض عليه نظام المزارع الجماعية «الكولخوز». وكل أولئك الذين يصوتون بإيمان وحماسة عاطفيين في جانب التأميم نراهم على الرغم من هذا لا يثقون في الدولة، ونراهم أمام المسائل التي يعتبرونها خطيرة، يعتمدون على أنفسهم. وهم يجيدون التخلص من المآزق التي يقعون فيها. وهم يشبهون في ذلك - إلى حد ما - الصينيين. وقد وجد بول موران (Paul Morand) تشابهًا غريبًا بيننا وبينهم مثل الولع بالاقتصاد، وفن المحافظة على الأشياء مدة طويلة بترميمها أولًا بأول، والمهارة في الطهي، والحذر، والأدب الموروث عن أجيال سابقة، وكراهية الأجانب المتأصلة، غير أنها مقت سلبي، والمحافظة التي تهب عليها العواصف الاجتماعية من وقت إلى آخر، وغياب الروح العامة، والحيوية عند الشيوخ الذين تجاوزوا سن الأمراض. فهل يمكن الاستخلاص بأن ثمة تشابهًا كبيرًا بين جميع الحضارات القديمة[9]؟

بناءً على ذلك، فإن الفرنسي عندما يلجأ إلى السلطة العامة، يجد نفسه تواقًا إلى اعتبارها بقرة حلوبًا، يريد أن يحصل منها على الحد الأقصى، وليست

---

(9) Paul Morand, *Hiver Caraïbe* (Paris: Flammarion, 1926).

منشأة هو شريك متضامن فيها. فتراه عندئذ ينشد الامتياز والرعاية والتزكية، أكثر مما ينشد المصلحة العامة. وكلنا يعلم كيف يحيا عضو البرلمان والمكانة التي يؤديها في حياته العملية بصفته نائبًا للأعمال التي لا يستطيع ناخبه أن يقوم بها في دائرة نشاطه. ويعتقد صاحب الدخل أن صندوق الحكومة المالي لا رصيد له، وأن الصناعة المؤممة يمكن أن تدور إلى الأبد بخسارة. ولا بد من تربية صعبة ليدرك أنه في النهاية ليس كما يعتقد صاحبَ (حاملَ) سند، وإنما هو مساهم في شركة كبرى هي: فرنسا ذاتها.

وفي انتظار ذلك، فإنه مع وجود مواهب عظيمة في فرنسا، ومع الكرم في بذلها والإخلاص فيه، فإنه من المعيب أن تكون الحياة العامة غير فاعلة على نقيض فاعلية الفرد، وثمه فكاهة لا تخلو من الصواب: فرنسي واحد يعني شخصًا ذكيًا... فرنسيان اثنان يعني نقاش... ثلاثة فرنسيين يعني الفوضى. فهل علينا أن نحسد زملاءنا وراء المانش؟ إنكليزي واحد يعني شخصًا غبيًا، إنكليزيان اثنان يعني الرياضة، ثلاثة إنكليز يعني الإمبراطورية البريطانية؟

(5)

وقد يكون من العزاء لأنفسنا أن نتذكر نصيب فرنسا في هذه الحضارة الغربية، إذ هي إحدى دعائمها من دون شك. وإذا كان عليّ أن أبحث في هذه المساهمة التي أفتخر بها كل الفخر، فإنني لن أتردد حين أضع في الاعتبار الأول إيمان الفرنسي الكبير وثقته بذكاء الإنسان أي بالإنسانية ذاتها، فهو يعتقد أن هناك حقيقة إنسانية خالصة تخص جميع الناس، وأن الذكاء يستطيع إدراك هذه الحقيقة، وأن اللغة تستطيع التعبير عنها (في الأقل باللغة الفرنسية). لأن الفرنسي يؤمن أن الفكر لا يوجد، بل لا يولد أصلًا، إلا إذا أمكن التعبير عنه. أما قبل ذلك، فهو شيء افتراضي، أي إنه لا يوجد في الواقع؛ لأنه يعتقد أن «الشكل» ضرورة للوجود الواقعي. وفي هذا ينحصر الفارق الكبير بين الفكر الفرنسي والفكر الألماني. فالفكر الألماني لا يحس بالراحة إلا في «الصيرورة» في «الافتراضي»؛ لأنه يعتقد أنه إذا تحدد أصابه الاقتصار والاختزال، فهو يعتقد أنه عميق طالما كان غامضًا، ويعتبر وضوح الفكر لدينا سطحية. أما نحن فنهدف

إلى العكس؛ لأننا نؤثر من الأمور أوضحها ونعتقد أننا نقترب من الحقيقة إذا أقتربنا من النور... فنحن مثل اليونانيين نؤثر النظام الفلسفي المتناغم على الفوضى والعماء، ولا نعتبر أن ما ينتمي إلى مملكة الظلام هو ملكنا. وتفوّق العقلية الفرنسية الحقيقي ينحصر فعليًا في الإضاءة على المسائل وفي تمييز ما يستحق البقاء من كل ما تقدمه لنا الطبيعة. ولم يتأخر جان كوكتو[10] (Jean Cocteau)، هذا الملاحظ الماهر للسيكولوجيات الحديثة، في التعبير عن هذه الفكرة، إذ قال: «إن ألمانيا لا تعرف عسر الهضم، إن ألمانيا الحديثة تموت من الرضا، من تبسيطها المدرسي للثقافة الفنية. وللجمهور الألماني معدة قوية، فهو يكدس فيها غذاء غير متجانس، صحيح أنه يلتهمه باحترام وأناة، ولكنه لا يهضمه. وفي فرنسا نلقي بالغذاء، ولكن لدينا بعض المعد التي تختار وتهضم أحسن مما يوجد في أي مكان آخر».

هذا الفكر الفرنسي - الذي يعي ذاته - يرى ضرورة الاتصال بغيره. وقيمة أداتنا الخاصة في التعبير عظيمة جدًا. وربما كان هذا أجمل ما ساهمنا به في حضارة الإنسان. وإن أي فكرة عادية إذا مرت عبر مصفاة العقل الفرنسي، اكتسبت الانتظام ودقة الوضوح، بل أكثر من ذلك أصبحت متداولة كأنها عملة دولية، يستطيع كل شخص استخدامها. وبهذا أصبح للفكر الفرنسي بُعدٌ دولي، وحدثت من ذلك معجزة أشبه ما تكون بمعجزة الخلق: فبمجرد أن أنشأنا الفكر ووهبناه كل مستلزمات الحياة، لم يعد ملكًا لنا، بل اكتسب حياته الخاصة بوصفه كائنًا جديدًا، بل على الأصح إننا بتنا نشعر أنه بتحرر هذا الفكر، فإنه يصبح عند ذاك ملكًا للإنسانية. وإذا كان هذا الفكر حقيقيًا بالنسبة إلينا فهو حقيقي بالنسبة إلى الناس كافة. وقد عابوا علينا أحيانًا ما سموه بـالاستعمار الثقافي وليس ثمة شيء أشد ظلمًا من هذا. فنحن لا نريد إلا أن نكون ناشري الفكر عالميًا، لأن «العالمية» هي البيئة الطبيعية لعقلنا.

---

(10) جان كوكتو (1889-1963) (Jean Cocteau) شاعر ورسام ومسرحي فرنسي، عضو الأكاديمية الفرنسية (1955)، اعتبر ممن كان لهم أثر في الفن في القرن العشرين. على الرغم من كل أعماله الأدبية ومواهبه الفنية، فقد ظل دومًا يردد أنه أولًا شاعر وأن كل عمل هو شعر.

ومن هنا يكون - على ما أعتقد - الحب الصادق والعاطفي الذي نكنه للغتنا، تلك الأداة الطيبة المجربة والفاعلة... وفي حين أنك تجد الإنكليزي يكتب في «رسائل إلى المحرر» (في الصحف) مكررًا تعليقاته عن الكتاب المقدس أو حكاياته عن حديقة الحيوان، فإنك تجدنا نحن ننكب بلذة غامرة على المناقشات عن اللغة وقواعدها ومشاكلها. ويُعتبر «مجمع اللغة» بقاموسه الأمين على هذا التراث القومي. وليس في هذا مجرد تزويق للغة، بل المسألة مسألة تكامل ثقافتنا وأصالتها، والتي قد تنهار لو انهارت أداة التعبير عنها. ونحن نشعر أنه يجب أن تُصان لغتنا بالعناية نفسها التي تُصان بها أداة صاحب الحرفة.

هذه الطريقة في تصور الفكرة والتعبير عنها أدت بفرنسا إلى أن تكون بطلة حقوق الإنسان، لأن فرنسا تبجّل بالغريزة، في كل كائن بشري، الإنسان المفكر. وهي من وجهة النظر هذه تؤمن بأن الناس جميعًا سواسية في الكرامة، مهما اختلفت بهم البلاد وابتعدت بهم الأعراق وتنوعت الألوان. وقد عبّر الفيلسوف باسكال[11] (Pascal) بقوة عن أحد معتقداتنا العميقة بقوله: «تنحصر كل كرامتنا في الفكر». ونحن إزاء البلاد التي تبدو أنها تجعل الرفاهية أو القوة هدفها الأسمى، وبعد أن نقف لهنيهة نتأمل عظمة إنجازاتها المادية، نشعر دائمًا بنوع من الحنين، هو الحنين إلى الفكر. ففي نظرنا، لا حضارة بالمعنى الصحيح إذا لم يتمتع البشر بالإنسانية. ومن هنا كان الفرنسي في كل مكان يمر به منبهًا موقظًا، بل وثائرًا، فهو حتى حين ينادي بالمذهب الثوري لكرامة الكائن البشري، إنما يشجع أيضًا ثورة الفكر قائلًا للأرقاء والسجناء والمحكوم عليهم بنظم الأحكام المطلقة: «فلتكن لكم الجرأة على الوجود». وعندما يتعرض الكائن البشري للخطر، وعندما تكون حقوق الفرد أو حرية الفكر موضع تهديد، فإن الناس يتجهون نحو فرنسا. وهناك دائمًا فرنسي يتسمى باسم «فولتير» أو بأي اسم آخر، يتبنى حق الإنسان المظلوم، ويدافع عنه دفاع الأبطال. وليست المسألة

---

(11) بلَيز باسكال (1623-1662) (Blaise Pascal) عالم رياضيات وفيلسوف ومخترع ولاهوتي فرنسي شهير اخترع أول آلة حاسبة وهو في عمر 18 سنة. انكفأ نحو التأمل الفلسفي واللاهوتي بعد تجربة صوفية دينية وكتب مؤلفاته المعروفة الأفكار (*Les Pensées*) وبنات الريف (*Les Provinciales*) التي لم تنشر إلا بعد وفاته عن عمر 39 سنة.

مسألة إحسان أو حب للإحسان وللخير، بل هي شيء آخر، فنحن هنا في قلب الغرب الذي لا يعد غربًا بكامل معانيه من دون فرنسا. وأعرف أنه من الممكن ذكر كثير عن مساهمتنا في تقدم الحضارة الغربية، ولكن يبدو لي أن هناك بيتًا من الشعر للشاعر اللاتيني تيرانس[12] يلخص هذه المساهمة أوفى تلخيص، إذ يقول:

Humani nihil a me alienum puto
I am a human being: I regard nothing of human concern as foreign to my interests.

«إني إنسان وأعتقد أن لا شيء مما يتعلق بالإنسان هو خارج اهتماماتي».

(6)

كيف ننتهي إلى خاتمة من جملة هذه العناصر المتناقضة؟ كان هناك أميركي بصير عرف بلادنا جيدًا ولكنه نفض يديه من الحكم علينا... قال: «أحيانًا، لا أرى لدى الفرنسيين سوى عيوبهم، لا أرى غير روتينهم أو إقليميتهم، وغيرتهم وعجزهم عن العمل الجماعي، ويبدون لي عند ذاك أنهم قوم لا يحتملهم أحد. وفي اليوم التالي لا أرى فيهم إلا محاسن حميدة، للسهولة العجيبة التي يعبّرون فيها عن فكرتهم، ولثقتهم في الكائن البشري، ولذوقهم السليم، وشعورهم الكريم بالتضامن بين الناس قاطبة، وعلى ذلك فإني لا أتصور بحال أن هناك أي شعب - اللهم إلا شعب الإغريق القدامى - بلغ مستوى من الثقافة ومن الحضارة مثل ما بلغه هذا الشعب». وكان رينان يقول: إنه في حالات كثيرة لا تنجلي الحقيقة إلا في تناقض المحاورة. ولم يحاول ألفونس دوديه[13] (Alphonse Daudet) في روايته **تارتاران دو تاراسكون** أن يجمع في شخصية واحدة كلًا من دون كيشوت وسانشو. ومع هذا فليس

---

(12) تيرانس وباللاتينية تيرنتيوس الأفريقي (Térence *Publius Terentius Afer*) (159-190 ق.م) شاعر روماني من قرطاجه من أصل بربري.

(13) ألفونس دوديه (1840-1897) (Alphonse Daudet) شاعر وكاتب ومسرحي فرنسي من مواليد نيم (Nîmes) من أسرة كاثوليكية من التجار الأثرياء الذين أفلسوا وانتقلوا إلى ليون، وكان لذلك أبلغ الأثر في حياته جسده في روايته الأولى (1868) *Le Petit Chose* التي يصف فيها وفاة والده بسبب نكبتهم. انتقل إلى باريس لشغفه بالأدب وبحثه عن مجال للكتابة واختلط بالمجتمع الباريسي، حيث أصيب بالسفلس الذي أقعده. كتابه نوما رومستان يصف حياة ومزاج فرنسيي الجنوب وطابعهم.

بين شعوب أوروبا غيرنا نحن من وصل إلى هذه النقطة التي لا أسميها الصهر أو الدمج، وإنما نوع من التأليف بين المساهمات التاريخية المختلفة. فإن ألفًا وثمانمئة سنة من التاريخ، سارت في تيار متواصل، حتى صنعت منا أكثر البلاد الغربية تطورًا، لا بل أكثر البلاد نضجًا وبلوغًا، كما سبق أن قلنا. وإذا نظرنا في سيكولوجية الفرنسي، قادنا ذلك إلى القول بأن عيوب الفرنسي هي النقيض الذي لا بديل عنه لمحاسنه، وأن هذه المحاسن الاستثنائية ليست في الواقع إلا استخدامًا لبعض هذه العيوب والتكيف معها وتحويلها. وقد قيل: إن الطبيعة قد وهبتنا نوعًا من آلية للتوازن التي تقوّمنا دائمًا في الوقت المناسب وتمنعنا من أن نقع في الحفرة: ففرنسا الكاثوليكية الصادقة دائمًا في كاثوليكيتها هي أيضًا بلد العلمانية. وهذا الشعب الذي لا يستجيب لنظام والذي يصعب حكمه، ليس بشعب فوضوي، وإذا ما جنح إلى عدم النظام قليلًا، فإنه يخشى في النهاية أن يقع في الفوضى ويتردى في الاضطراب. وزيزان الحصاد هذه هي أيضًا وغريزيًا النمل الأكثر تجميعًا وادخارًا في العالم.

وكل هذا يشترك فيه جميع الفرنسيين، وتلك من سمات أي حضارة. فلا تقاس حضارة من الحضارات بعدد قممها، وإنما تقدر بمتوسط ارتفاعها، وهي ليست من صنع عظماء رجالها، ولكنها من صنع المستوى الأدنى لعناصرها البشرية، وخصوصًا من صنع إمكانات أقل عنصر من عناصرها. ومن هذه الوجهة كان الاندماج لدينا تامًا تقريبًا. فسواء أكنا «جرمانيين» أم «كلتيين» أم «متوسطيين»، وسواء أكنا من أصل شعبي أم بورجوازي، فإن قدراتنا على الإنجاز والتطور واحدة تمامًا. تمتلك باريس بيئة ثقافية فكرية راقية تعطي الانطباع بأنها بيئة للعقل فريدة في العالم. غير أن الأجنبي الذي يعرفنا، يؤثر فيه أكثر، ذلك الإدراك السليم الفطري، والذكاء المنفتح، والطبع الإنساني الباهر، إذ يصادفها لدى رجل الشعب أو لدى الفلاح. وثمة تقاليد عريقة دهرية أتاحت ونمّت في بلادنا (التي بدت حتى الآن مميّزة) فنًّا للحياة، وفي الآن نفسه حكمة قوامها القصد والاعتدال؛ لأننا تعلمنا أن الحياة قد تعطي كثيرًا، بيد أننا لا نستطيع أن نطلب منها كل شيء. ولربما كانت هذه هي الحضارة الحقة، الوحيدة.

الفصل الرابع
«العناد» عند الشعب الإنكليزي

لكي نفهم الشعب الإنكليزي على حقيقته، يجب أن نبدأ بتحديد موقع إنكلترا. قال المؤرخ الفرنسي ميشيليه (Michelet) في مستهل دروسه في الكوليج دو فرانس: «إنكلترا جزيرة. أنتم الآن تعرفون عن تاريخها ما أعرف». والملاحظة التي أبداها هذا المؤرخ العظيم لا تزال مهمة على الرغم من أن الأمر لم يعد يتعلق اليوم بجزيرة بكل معنى الكلمة. بيد أن ما يسترعي نظرنا ليس هو الوضع الجزيري، بل صغر مساحة هذه المملكة المتحدة التي لا تبلغ (إنكلترا واسكتلندا وأيرلندا الشمالية) سوى ثلاثمئة وثلاث عشرة ألف كيلو متر مربع، وتقدر مساحتها بنسبة 42 في المئة من مساحة فرنسا، و2 في المئة من مساحة الأراضي التي تتكون منها الكرة الأرضية، ولكن مع الإمبراطورية (أو بالأحرى الكومنولث كما تدعى الآن) صارت الأراضي الخاضعة للنفوذ البريطاني تشمل أكثر من ربع العالم. إذًا لا تستمد إنكلترا عظمتها من أرضها فحسب، بل إن لهذه العظمة أسسًا ومصادر أخرى.

هناك خمسة وأربعون مليونًا من الأنفس تعيش على هذه الصخرة، وقد مارس هؤلاء الإنكليز عملًا حاسمًا في العالم، وساهموا بنصيب يعادل - أو يفوق - غيرهم في تطور الحضارة الغربية، وهذا الأمر يسترعي النظر ويدفع إلى الإعجاب منذ الوهلة الأولى، ذلك أن بنيان هذه القوة الكبرى قد أقيم على رقعة صغيرة من الأرض. بيد أنه في ذات الوقت الذي نلمس فيه عظمة هذا الإنجاز، نرى فيه الضعف، فلكي تقام مثل هذه الإمبراطورية ولكي يحافظ على بقائها عبر قرون عدة، كان لا بد من وجود مجموعة صفات فريدة حقًا، كما نتوقع.

وليس ثمة موضوع أصعب من السيكولوجية البريطانية، ولم يسترع شعب ما أكثر من هذا الشعب انتباهنا واهتمامنا. فلقد شغف كثير من أعظم وأفضل أدبائنا وكتابنا بدراسة هذا الشعب، أمثال فولتير[1] (Voltaire) وتان[2] (Taine) وبوتمي[3] (Boutmy) وأبل هرمان[4] (Abel Hermant) وفي أيامنا هذه

---

(1) فرنسوا ماري أرويه الملقب بفولتير (1694-1778) (François-Marie Arouet) فيلسوف فرنسي طبع القرن الثامن عشر بفكره وتحرره وكانت له مكانة مرموقة في الذاكرة الجمعية الفرنسية والعالمية. وهو من فلاسفة عصر الأنوار الأساسيين وزعيم حزب الفلاسفة. ارتبط اسمه بالكفاح ضد التعصب الديني الذي سماه الشائن (l'Infâme) ودعا إلى التسامح وحرية التفكير والتعبير وكان معاديًا بشدة لكهنوت الكنيسة ومؤمنًا بإله خارج الأديان المعروفة. ومن سياسته الدعوة إلى ملكية معتدلة ليبرالية متنورة يؤدي فيها الفلاسفة الدور الرئيس. وهو مثال المثقف الملتزم بقضايا الحقيقة والعدالة استخدم سمعته للدفاع عن ضحايا عدم التسامح الديني والعسف. وإلى ذلك كله فقد تنوعت أعماله الفلسفية والفكرية والفنية والأدبية والمسرحية والروائية حتى طارت شهرته بوصفه أهم كاتب فرنسي في القرن الثامن عشر. ولعل أهم إنجازاته هو **القاموس الفلسفي المحمول** (*Dictionnaire philosophique portatif*)، **الرسائل الفلسفية** (*Lettres philosophiques*)، **رسالة في التسامح** (*Traité sur la tolérance*) **مسائل حول الموسوعة** (*Questions sur l'Encyclopédie*).

(2) هيبوليت تان (1828-1893) (Hippolyte Adolphe Taine) فيلسوف ومؤرخ فرنسي عاش يتيمًا في ملجأ باريسي، ولكنه تفوق في الدراسة ونال شهادتي بكالوريا علمية وفلسفية وجائزة التفوق في الامتحانات الرسمية العامة، والأول على دفعته في الدخول إلى قسم الآداب في معهد المعلمين العالي الذي يعد أساتذة التعليم الثانوي الرسمي. تبنى تان الأفكار الوضعية والعلموية التي شاعت في زمنه ونال الدكتوراه عن قصص لافونتين. عرف عنه اهتمامه بالأدب والشعر والفن ناهيك بالفلسفة والتاريخ حيث نشر مقالات فلسفية وتاريخية في أهم المجلات في عصره. وأبرز مؤلفاته **تاريخ الأدب الإنكليزي** (*Histoire de la littérature anglaise*) في خمسة مجلدات. أثرت هزيمة فرنسا عام 1870 في معنوياته وكذلك انتفاضة كومونة باريس فانكفأ يكتب وأصدر خلال سنوات (1875-1893) مؤلفه المعلم في مجلدات عدة **تاريخ أصول فرنسا المعاصرة** (*Histoire des origines de la France contemporaine*).

(3) إميل بوتمي (1835-1906) (Émile Boutmy) كاتب وسياسي فرنسي من المساهمين الأساسيين في تأسيس علم السياسة. درس القانون والحقوق ونال الدكتوراه وصار أستاذًا للقانون العام ولتاريخ الحضارات المقارن في المدرسة الخاصة للمهندسين (École spéciale d'architecture). وبسبب ما لاقاه من جهل الناس بالمسائل السياسية خلال الحرب الفرنسية-البروسية وانتفاضة الكومونة أسس مع رينيه ستورم (René Stourm) المدرسة الحرة للعلوم السياسية (l'École libre des sciences politiques) المشهورة اليوم باسم (Sciences Po). ومن أهم مؤلفاته **تطور الدستور والمجتمع السياسي في إنكلترا** (*Le Développement de la constitution et de la société politique en Angleterre*).

(4) أبل هرمان (1862-1950) (Abel Hermant) كاتب ومسرحي فرنسي دخل الأول على دفعته في معهد المعلمين العالي قسم الآداب وتفرغ للأدب والشعر. تخصص في الدراسة الساخرة لعادات =

أندريه موروا[5] (André Maurois). ومع ذلك فما من شيء في تاريخنا ولا في مزاجنا ييسر لنا تفهم هؤلاء الجيران القريبين منا والبعيدين منا في آن... وإنني حين أعبر ممر كاليه وأهبط في لندن، أشعر بأني قد هبطت عالمًا آخر. فإذا ما تعودت على هذا الجو الإنكليزي شعرت أني لم أعد أفهم بلدي. لم أستطع - ولو مرة واحدة - أن أفهم وجهة النظر البريطانية والفرنسية معًا، وقد نجحت أحيانًا في فهم الاثنتين، الواحدة إثر الأخرى. ولم أعرف شعبين أكثر غموضًا أحدهما تجاه الآخر من هذين الشعبين؛ وهذه القناة (channel)، حيث نلمح من مدينة دوفر، شواطئ فرنسا، هي من الناحية المعنوية عميقة وواسعة عمق وسعة محيط كامل.

(1)

لكي نتبين العوامل والظروف التي كونت الشعب الإنكليزي، يجدر أن نميز في هذا المقام: الوراثة والبيئة واللحظة بحسب تعبيرات تان (Taine).

إنكلترا جزيرة بلا ريب، ولكنها قريبة جدًا من أوروبا، وهذا القرب هو الذي حدد تكوينها العرقي من سلالات بشرية تتابعت عليها. فقد جلبت الغزوات إلى العرق الأصلي «الأيبيري» وهو عنصر سابق للكلتيين، جلبت له من داخل أوروبا - عناصر الكلت والرومانيين والسكسونيين والنورمانديين.

= وتقاليد الزمن الجميل وعرف الشهرة بسبب ذلك. خاض مبارزة مسلحة مع الدوق دوساغان الذي اعتبر أن هرمان أهانه في إحدى مسرحياته. دخل الأكاديمية الفرنسية عام 1927 وشارك في الكتابة بأبرز صحف تلك الأيام. تعاون مع الألمان خلال احتلالهم لفرنسا وحكم عليه بالسجن في 15 ديسمبر 1945 بتهمة التعاون مع الاحتلال وطرد من الأكاديمية. حصل على عفو وخرج من السجن عام 1948 وحاول تبرير موقفه خلال الحرب في كتابه الدفتر الثالث عشر: أحلام وذكريات فيلسوف منفي (1949) (*Le Treizième Cahier: rêveries et souvenirs d'un philosophe proscrit*).

(5) أندريه موروا (1885-1967) (André Maurois) واسمه الحقيقي إميل سلومون فيلهلم هرزوغ (Émile Salomon Wilhelm Herzog) روائي وقاص وكاتب سير فرنسي من أسرة يهودية امتهنت الصناعة تتلمذ في روان على الفيلسوف آلان (Alain) وترك المصلحة العائلية ليتفرغ للأدب. خدم في الجيش وكان مترجمًا للقوات البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى. نشر روايات عدة عن أيام الحرب، ولكنه اشتهر أكثر بالسير التي كتبها عن حياة كتاب كبار مثل فيكتور هوغو وبلزاك وجورج صاند ودزرائيلي وألكسندر فليمنغ والجنرال ليوتي.

ولكن يجدر ألا ننسى أن آخر هذه الغزوات يرجع إلى أكثر من ألف سنة، وتنقسم هذه الغزوات إلى أربع غزوات بشرية.

الغزوة الأولى كانت غزوة الكلت من القرن السادس قبل الميلاد حتى عصر قيصر. وتشمل «البروتانيين» (نسبة إلى سكان مقاطعة بروتانيا (Bretagne) في شمال فرنسا) والغايل (Gaél)، وقد أدخل هذان العرقان شعبًا ولغة وحضارة في البلاد. ثم أعقب ذلك الغزوة الرومانية من عام 55 قبل الميلاد إلى عام 410 بعد الميلاد، ولم تكن هذه الغزوة، إلا احتلالًا عسكريًا على مستوى صغير جلب معه نوعًا من التنظيم الإداري. وفي الشمال، لم يحصل أن غزا أحد أرض الغايل في اسكتلندا. أما الجنوب، فقد عرف النظام الروماني، ونستطيع أن نقرر أنه ما زال متأثرًا به. وتأتي بعد ذلك الغزوة الجرمانية في ما بين القرنين الخامس والحادي عشر، وهي غزوة دفعت بالكلت نحو الغرب فاحتل السكسون والاسكندنافيون الشاطئ الشرقي على بحر الشمال من فرنسا، ثم تعمقوا في الداخل واستقروا في البلد. وسيكوّنون العنصر المتغلب في الشعب البريطاني والذي سيترك أعظم الأثر فيه كمًا وكيفًا. فالإنكليزي اليوم ما زال في جوهره أنكلوسكسونيًا. وأخيرًا تأتي في المرتبة الرابعة الغزوة النورماندية في عام 1066 - وهي - إلى حد ما - صورة للغزوة الرومانية، إذ هي عبارة عن: احتلال عسكري وسيطرة سياسية لجماعة من أرستقراطية الأرض خلفت المحتلين السابقين. وقد جلب النورمانديون معهم اللغة الفرنسية ونظامًا للحكم وحضارة إن لم تكن رومانية خالصة، فإن لها في الأقل طابع الحضارة الرومانية، لأن هؤلاء الاسكندنافيين المؤجلين - الذين كانوا بالأمس من البرابرة - قد تهذبوا بإقامتهم قرنين في فرنسا.

ولنسأل أنفسنا ماذا أخذت إنكلترا من هذه الغزوات المتعاقبة. اثنتان منها كانتا غزوتان ضخمتان جلبتا معهما خصوصًا عددًا كبيرًا من الناس: الكلت والأنكلوسكسون؛ أما الغزوتان الأخريان فكانتا عسكريتين فحسب، وجلبتا معهما خصوصًا حكامًا: الرومانيين والنورمانديين. ونلاحظ أن هذه الغزوات الأربع لم تندمج أو يختلط بعضها ببعضها الآخر، وإنما تعاقبت إحداهما إثر

الأخرى، أو تلازمت الواحدة مع الأخرى، أو دفعت إحداهما الثانية، ولكنها لم تنصهر قط، وكأن الأمر عبارة عن طبقات جيولوجية ما زالت ظاهرة، وبفضلها لا يزال الكلتي حتى اليوم يتميز بوضوح من السكسوني.

والفكرة التي يحملها الإنكليز عن أنفسهم تتوقف على هذا التكوين التاريخي الذي ما زلنا نلمسه بوضوح في التكوين الاجتماعي الحاضر لهذا الشعب؛ طالما أنه يوجد دائمًا غزاة ومغلوبون، وسادة وتابعون. لقد خفّت من غير شك التمايزات الواضحة، ولكنها ما زالت موجودة، وعندما ننظر في سيكولوجية الشعب البريطاني فلا بد أن نحدد: هل نحن أمام كلتيين أم سكسونيين أم نورمانديين.

الكلتي الذي يُعتبر غريب الأطوار لا بل متقلبًا نوعًا ما، يلمع أكثر بوصفه فردًا، فلنتذكر مثلًا: برنارد شو، أو لويد جورج. أما الرجل السكسوني – العمود الفقري لإنكلترا – فيبدو على العكس أكثر الإنكليز قومية وأصالة: إنه هو جون بول[6] (Jhon Bull) حاملاً ذلك الجانب الجرماني للخلُق البريطاني الذي لا بد أن يلفت النظر. أما عن النورماندي هذا الاسكندنافي المؤجل والمتحول إلى روماندي، فإنه – بلا جدال – أعرق الأعراق وأكثرها أرستقراطية وأناقة. ومن المستحسن في إنكلترا أن يسمى الشخص هاركورت (Harcourt) أو كورتني (Courtney) أو تالبوت[7] (Talbot). وقد كان زمن أدار فيه شؤون إنكلترا السكسونيون والنورمانديون، ولكن المد الديمقراطي نشر الكلتية حديثًا في إنكلترا: فهل كان هذا في مصلحتها، لأن المسألة لا تتوقف على لمعان الذهن فحسب؟

وإذا حاولنا أن نلخص التعليق السابق، فإننا نصل إلى هذه الخاتمة، وهي أن المصير البريطاني تحدده العزلة الناتجة عن الطبيعة الجزيرية. غير أن هذه العزلة لم تكن بحيث حمت الجزيرة من كل الغزوات؛ ولكن بحر الشمال وممر

---

(6) شخصية خيالية ترمز إلى البريطاني العادي عمومًا والإنكليزي خصوصًا.

(7) أسماء عائلات نورماندية من أصل فرنسي قديم دخلت إلى بريطانيا بعد الغزو النورماندي لها عام 1066.

كاليه حفظاها من الغزوات طيلة تسعة قرون. وفي الحقيقة أنه منذ عام 1066 أي منذ معركة هاستنغز لم يحدث أي اتصال عنصري بين الشعب الإنكليزي وأوروبا. ويمكننا أن نسجل - من دون شك - استيطان بعض اللاجئين الفرنسيين من البروتستانت في القرن السابع عشر، ثم في القرن التاسع عشر التسلل الخفي إلى حي المال لعناصر ألمانية أو يهودية، ولكن تلك الهجرات لا تعدو في مجموعها هجرات فردية، بحيث إن إنكلترا اليوم يصعب عليها أن تعتبر نفسها بلدًا أوروبيًا حقًا.

وهناك وجه آخر لهذا التكوين وهو الفتوة الإثنية لهذا الشعب، ونحن الفرنسيين - بوصفنا لاتينيين أو من سكان البحر المتوسط - قد خلفنا وراءنا ماضيًا يرجع إلى أكثر من ألفي سنة، أما الإنكليزي فلا يستطيع مجاراتنا في هذا الميدان، ونتيجة لهذا فهو أقرب إلى الفطرة، وأقرب أيضًا إلى البربرية الأولى منا. وهو يستمد من هذا تلقائية ونضارة لا نعرفهما نحن، كما ويستمد من ذلك أيضًا صبيانية (ولدنة) لا نستطيع - نحن الفرنسيين - أن نألفها. وحين كنت أعمل مترجمًا في الجيش البريطاني إبان الحرب العالمية الأولى، أدهشني كثيرًا ما في أخلاق ضباطي، وخصوصًا الجنرالات منهم، من طفولية. ففي حين كنت أقرأ - كباقي زملائي الفرنسيين - مؤلفات فلسفية أو تاريخية - كان الجنرال يطالع الروايات البوليسية. وفي حين كنت أشغل أوقات فراغي في المطالعة أو المحادثة، كنت أراه ينصرف إلى مداعبة كلبه إلى ما لا نهاية، إذا لم يكن يلعب بالكرة مع مرؤوسيه، وهذا الولع بالكرات هو كما ذكرت ماري بوردن[8] (Mary Borden) خاصية بريطانية صرفة؛ فهي تقول: «اللعب بالكرة على اختلاف

(8) ماري بوردن (1886-1968) (Mary Borden) من أوائل الروائيين الأنكلوأميركيين ولدت لأسرة ثرية في شيكاغو. خلال الحرب العالمية الأولى تبرعت ببناء مستشفى ميداني من أموالها الخاصة في بريطانيا حيث كانت تعيش، واشتغلت هي نفسها فيها ممرضة... تزوجت الجنرال سبيرز 1918. برعت في كتابة القصص القصيرة. في بداية الحرب العالمية الثانية أسست مستشفى ميدانيًا نقالًا في فرنسا إلا أنها اضطرت إلى المغادرة بعد الاحتلال الألماني. جرى دمج الوحدة الطبية النقالة بجيش فرنسا الحرة في الشرق الأوسط، حيث رافقت ماري بوردن قواته حتى أفريقيا الشمالية ثم إيطاليا ففرنسا. نشرت رواية عن تلك التجربة نالت شهرة عالمية عنوانها، رحلة في ممر مظلم (*Journey Down a Blind Alley*)، وهي تتطرق فيها إلى خيبة أملها من قدرة الفرنسيين على بناء مقاومة فعالة ضد الألمان.

أنواعها يحفظ الصحة في حالة جيدة دائمًا، وفي الوقت الذي تشعرون فيه أن ليس لديكم عمل، ادفعوا بالكرات، كرات الغولف أو التنس أو البولو. فدفع شيء ما أو ضربه بطريقة متقنة هو شيء من أعظم المتع». ونحن نجد هنا خصلة قومية عميقة تحاكي ما لدى الألماني من متعة السير بنظام عسكري مرصوص تحت قيادة نقيب أو رائد.

وإذا انتقلنا إلى دراسة البيئة الجغرافية لهذا البلد، فإننا سنلاحظ للحال أنه ما من بلد كان فيه للمناخ هذا التأثير الحاسم والجلي في آن. والمناخ هنا هو نموذج المناخ البحري المحيطي النموذجي، الثابت، غير المتقلب، وهو ليس باردًا فحسب إنما هو جليدي، ورطب خصوصًا. وتهب على هذه البلاد رياح غربية تسودها ثلاثة أرباع العام، وتسقط عليها الأمطار دائمًا وتتخللها فترات صحو قد تحيلها النسمات النقية للمحيط الأطلسي إلى فترات رائعة. وفي مثل هذا المناخ الذي لا يعد مؤلمًا وإن كان لا يخلو من قسوة أحيانًا، لا بد كي نستمر في الحياة، من بذل جهد متواصل. فالاستيقاظ صباحًا يتطلب في إنكلترا طاقة، مثل عملية انطلاق صعبة، وهذا يفسر استيقاظ الإنكليز عادة متأخرين، كما يوضح لنا سر تناولهم إفطارًا مغذيًا مكوّنًا من «البوريدج» (مصنوع من الشوفان الذي يوقظ الخيول) ومن لحم الخنزير والبيض... إلخ، ولعله يمكن تفسير عادة تناول الخمور إلى ذلك أيضًا. كان أبي لا يشرب الخمر، ولكن عندما زرنا معًا مدينة غلاسكو في منتصف شهر تموز/يوليو طلب زجاجة من النبيذ الفرنسي.

لقد ترددت كثيرًا على جامعة أكسفورد، وكان يعتريني العجب وتتملكني الدهشة من بطء طلوع الشمس في هذه البلاد... فما أشد الفرق بينها وبين بلاد البحر المتوسط.

ينتج عن ذلك، أن الشعب الإنكليزي سيء التكيف مع مناخه. من هنا، تجد في سلوكه ردات فعل خاصة جدًا إزاء البيئة الطبيعية. فمن ناحية نرى خمولًا لدى العاديين الذين يواجهونه بالنوم. لكن من جهة أخرى يقاوم الأقوياء الحيويون وتتضاعف طاقتهم بهذه المقاومة ذاتها. فالألعاب الرياضية عامة في إنكلترا،

وهي في الحقيقة رياضية فعلًا، وهذا سر وجودها هنا، فهي ليست هواية بقدر ما هي ضرورة، إذ هي ثمن محافظة العرق على بقائه. وفي هذا تجد البروتستانتية الفرصة لتنمية إحدى فضائلها الأساسية ألا وهي العزيمة الواعية بذاتها. وثمة حِكَم شائعة تعبّر أعظم تعبير عما في الإصلاح (البروتستانتي) من قوة معنوية وما في الإنكليز من عناد، ونذكر من تلك الحكم هاتين الحكمتين: «خلقت الحياة لنسلكها صاعدين لا هابطين»... «خلق الإنسان ليسمو على ذاته».

ولا يكفي المناخ لمعرفة إنكلترا، بل يجب أن نضيف إلى هذا وضعها على الخريطة. فهي عاشت دائمًا منفصلة، إذ كانت في القرون الوسطى جزيرة صغيرة غريبة الأطوار، وإقليمًا متطرفًا منعزلًا من أقاليم أوروبا، حيث لا يوجد بعدها شيء، لا غربًا ولا شمالًا... وقد غدت منذ القرن الخامس عشر «سمسارًا» عالميًا في التجارة، من اللحظة التي أصبح فيها المحيط الأطلسي، بعد الاكتشافات الكبرى، همزة وصل تربط بين القارات. وحدث من ذلك الحين تناقض بين جزيريتها التقليدية وهذه الدولية التجارية التي صارت طابع البلاد ومصيرها الحقيقي. وهذا التناقض هو التعبير الخالص عن الشخصية البريطانية؛ لأنه إذا كانت إنكلترا - بحسب طبعها - قد ظلت أكثر البلدان «جزيرية» في العالم، فإن مصالحها واتصالاتها وعلاقاتها العالمية قد اضطرتها إلى أن تعيش من التبادل التجاري أي من الاتصال الدولي. وفي الحقيقة فإننا نجد في نفس كل إنكليزي هذا التناقض.

(2)

وإذا ما تحدثنا عن الخُلق الإنكليزي، فإن أول سؤال يتبادر إلى أذهاننا هو عن طبيعة الذكاء البريطاني. وتبدي فرنسا في هذا الموضوع رأيين متعارضين. فبعض الفرنسيين - ونحن نستذكر هنا كتاب ديمولين[9] (Demolins) - قد أكدوا

(9) إدمون ديمولين (1852-1907) مثقف فرنسي اجتماعي معاد للثورة ومن دعاة الحرفية التعاونية (إيجاد مؤسسات حرفية نقابية لها سلطات اقتصادية واجتماعية وسياسية). كان من تلامذة لو بلاي (Le Play) ومديرًا لمجلة العلم الاجتماعي (*La Science sociale*). قام برحلة إلى بريطانيا 1897 ونشر عند عودته إلى فرنسا كتابه الشهير سر تفوق الأنكلوسكسون (*A quoi tient la supériorité des Anglo-saxons*).

بحماسة «تفوق الأنكلوسكسون» وكنت طوال فترة شبابي أسمع آيات المديح المتكررة والحماسية، والتي كانت تضايقني تقريبًا وكأنها تقريع، عن طريقة عيش البريطانيين، العملية والنشطة، والتي كانوا يعارضونها مع ذوقنا البالي والعقيم للأدب. وكان لا بد - في ذلك العصر في الأقل - من الاعتراف صراحة بنجاح هؤلاء الجيران السعداء والفعّالين، ولكن الوسائل التي كان يجري مدحها أمامنا لم تكن تتفق مع تربيتنا الكلاسيكية، فكان لا بد بالضرورة من حدوث ردة فعل. فكانت الموضة يومها الادعاء بأن الإنكليز ليسوا أذكياء. واشتهرت بيننا عبارة حمقاء تقول: «وماذا يهم أن أكون غبيًا؟... يكفي أن لي أناقة إنكليزية!». وإذا سمحت لنفسي بمناقشة هذه العبارة الوقحة، فذلك لأن الإنكليز أنفسهم يشعرون بسرور غريب في الادعاء بأنهم «أغبياء». والحال أن الكولونيل الشهير برامبل[10] (Bramble) يقول شيئًا مشابهًا غير أن المترجم، محاوره، يبدي فهمه الصحيح للأمر حين يجيبه: «ما هذا التأنق؟». وإذا كان أصدقاؤنا في ما وراء المانش أغبياء حقًا كما يلذ لهم أن يصفوا أنفسهم، فلا بد أن تكون هذه الغباوة ذات طبيعة خاصة؛ لأنه ليس هناك أي تواضع في هذا الاعتراف الذي يتحفوننا به. وقد عرفت السير تشارلز ديلك[11] (Sir Charles Dilke) وهو واحد من أذكى البريطانيين الذين عرفتهم وأكثرهم لمعانًا، وقد سمع أحد محدثيه يسأله: «ما هي يا سيدي فكرتك العامة؟»، فقاطعه على الفور سير ديلك بطريقة متكلفة وبلهجة يشوبها شيء من التهكم: «سيدي، أنا رجل إنكليزي، وبهذه الصفة فإنه ليست لدي آراء عامة». ويجب أن نعترف أنه لكي يفخر المرء بأنه ليس لديه آراء عامة، فهذا لا بد من أن يتطلب درجة كبيرة من الذكاء.

والحقيقة أن الذكاء الإنكليزي هو من نوع خاص. فالإنكليز يحتقرون ذكاءنا القائم على المنطق. ويحلو لهم دائمًا أن يدعوا أنهم ليسوا من أنصار المنطق، وأنهم متمردون على المذهب العقلي لديكارت العدواني في منطقه،

---

(10) إشارة إلى رواية أندريه موروا الشهيرة صمت الكولونيل برامبل.

(11) تشارلز ديلك (1843-1911) (Charles Dilke) سياسي بريطاني من الاتجاه الراديكالي، عمل أمينًا عامًا للخارجية ووزيرًا في حكومة غلادستون وكان معارضًا عنيفًا للملكة فيكتوريا. اشتهر بعد عام 1860 بكتاباته الممجدة للإمبريالية البريطانية.

والذي يحلل ويتبيّن ويعيد البناء. وهم في أعماقهم، لا يرون أن المشاكل قابلة لأن تحل بطريقة هندسية مُرضية. أما الفرنسي الحامل سيكولوجية الرجل صاحب الدخل الصغير - فإنه يريد دائمًا أن يبحث لكل شيء عن حل، وبعد ذلك يستريح، ليأخذ ما يعادل تقاعدًا. أما أصدقاؤنا البريطانيون، فإنهم أكثر حكمة لأنهم يعرفون أن الطبيعة ليست قابلة لمثل هذه الادعاءات. وفي رأيهم إن الحلول الوحيدة التي يمكن الوصول إليها هي حلول مؤقتة هشة زائلة، وتحتاج إلى تعديلات وتصويبات دائمة. ففي زمن الملاحة بالشراع كانوا يرتبون السارية وموضع السفينة واتجاهها بحسب الرياح والتيارات التي تتغيّر بشكل دائم، فكان ذلك تكيفًا مستمرًا. ويتصف الرجل الإنكليزي في الحياة، وخصوصًا في الحياة السياسة، بتصرف ربان السفينة الشراعية: فهو يتطور في جو عدم الاستقرار بقبوله هذه القلقلة على أنها حقيقة لا يمكنه تبديلها، والتي من العبث الاحتجاج عليها. وليس الإنكليز فريدين في هذه النظرة فقد آمن بها الصينيون من قبلهم، ومن بعدهم الإيطاليون أيضًا. وها هو لوزاتي[12] الذي احتج عليه أحد أصدقائي بالقول: «ولكن يا معالي الوزير ليس هذا حلًا»، فما كان منه إلا أن أجابه بلهجته المتأنقة التي تعطي لكلامه نكهة مميزة للغاية: «ولكن يا صديقي العزيز، ليس ثمة من حلول أبدًا».

هل أعترف بأني أشعر بنوع من التعب عندما أجد نفسي مضطرًا إلى هذا التوضيح مرارًا وتكرارًا. وأخشى أن نكون - نحن الفرنسيين - متمسكين دائمًا بأمل إنجاز شيء نهائي: فنحن نبني حواجز من الحجر تتحدى الزمن، ونبرم معاهدات مصوغة صياغة أصولية، ونرفع ذلك كله في وجه عواصف التاريخ الهائجة. ونحتفظ بإيماننا بالذكاء. فعندما نقول عن شخص ما: «إنه ذكي» نعتقد بأننا قلنا كل شيء. ولكن يا أسفًا! فالفرنسيون كلهم أذكياء تقريبًا، ومع هذا فإننا لسنا أفضل حالًا. أما الإنكليزي فهو يحترس - بلا حياء - من ذوي الذكاء اللامع. إنه يعجب بهم ولا شك، ولكنه إعجاب من يساوره القلق وعدم الارتياح

(12) لويجي لوزاتي (1841-1927) (Luigi Luzzatti) من رجال القانون والسياسة والاقتصاد في البندقية ثم روما. كان وزيرًا للمالية في أربع حكومات ثم رئيسًا لمجلس الوزراء، وهو أول رئيس وزراء يهودي في إيطاليا.

على نقوده حين يجد نفسه بالقرب من مشعوذ ماهر. وهو ينظر إلى رجل الفكر على أنه بهلوان، ويعتبر أن في «الفكرية» شيئًا من مرض لا يدري كنهه. وإنه ليضع أمام الصفات اللامعة، صفات متينة «خيرًا منها ألف مرة»، بحسب العبارة التقليدية، وهي صفات توحي في الأقل بالثقة، بل إنه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، حين يُفضل القادة المضجرين نوعًا ما، ويقول عنهم: إنهم مأمونو الجانب (safe)، في حين أن تدبيرًا صامتًا يُبعد مِن الحكم مَن يمتازون بالفصاحة الزائدة أو من يتمتعون بمواهب بارزة. ولنقرأ تأييدًا لهذا الرأي في كتاب **البارزون في عهد فيكتوريا**، بقلم ليتون ستراتشي[13] (Lytton Strachey)، الصورة التي باتت كلاسيكية لدوق ديفونشير لورد هارتنغتون[14] (Lord Hartington) الذي أرادت الملكة فيكتوريا أن تمنحه مقاليد السلطة مؤثرة إياه على غلادستون. ولنذكر أنه لو لم تقع الحربان العالميتان لما وصل رجال مثل لويد جورج[15] (Lyod George) أو ونستون تشرشل إلى رئاسة الحكومة. ومنذ سنوات دعيت لإلقاء محاضرة في كلية إيتون فسألت من دعوني: «كيف يجب أن أتحدث إلى الشباب»؟ فأجابوني بقولهم: «لا تكن لامعًا»، وهي إجابة لا تحتاج إلى تعليق.

---

(13) جيل ليتون ستراتشي (1880-1932) (Giles Lytton Strachey) كاتب وناقد بريطاني ومن مؤسسي جماعة بلومبسبوري (Bloomsbury Group) وصاحب كتاب البارزون في عهد فيكتوريا (*Eminent Victorians*). ولكنه اشتهر أكثر لإقامته نوعًا جديدًا من كتابة السير الذاتية يجمع العمق السيكولوجي والعاطفي إلى عدم التوقير وخفة الدم وقد نالت السيرة الذاتية للملكة فيكتوريا جوائز عدة.

(14) وليام كافنديش، ماركيز هارتنغتون ودوق ديفونشير العاشر (1917-1944) (William John Robert «Billy» Cavendish, Marquess of Hartington)، سياسي بريطاني من حزب المحافظين، وزوج كاثلين كينيدي شقيقة الرئيس الأميركي جون كينيدي، وكانت كاثوليكية وهو أنغليكاني فرفضت العائلتان زواجهما. توفي بعد أربعة أشهر فقط من زواجه برصاص قناص في بلجيكا خلال الحرب العالمية الثانية حيث كان ضابطًا في الجيش البريطاني.

(15) دايفد لويد جورج (1863-1945) (David Lloyd George, 1st Earl Lloyd-George of Dwyfor) سياسي بريطاني ليبرالي ورجل دولة أدخل إصلاحات عديدة أدت إلى إقامة ما عرف باسم دولة الرفاه. كان وزير دولة لشؤون الاقتصاد والمالية ومديرًا للخزينة. وأشهر أدواره أن كان رئيسًا للوزراء في حكومة الائتلاف الوطني التي قامت لمواجهة الحرب (1916-1922)، وأدى الدور الرئيس في مؤتمر السلام بباريس 1919 الذي أعاد تنظيم أوروبا بعد الحرب وهزيمة ألمانيا. كان له أبلغ الأثر في الحياة السياسية والعامة في بريطانيا القرن العشرين، خصوصًا وأنه استعد للحرب بإدخال أنظمة الرعاية الاجتماعية والرفاهية في بريطانيا. وكذلك كونه قائدًا كسب الحرب ثم أعاد توحيد أوروبا.

تلك آراء يصعب على الفرنسيين وهم أتباع ديكارت أن يستسيغوها؛ فهم ما زالوا يؤمنون بالعقل وقدرته، أما الإنكليزي فإنه يعلن بطيبة خاطر إفلاس العقل، وهو يفعل هذا بشيء من السخرية الواثقة بنفسها، والتي أعترف أنها تغضبني إلى حد ما، ولو أنه كان في الإنكليزي شيء غير سليم لوصفت تلك السخرية بالسادية. وربما كان علينا أن نعتقد بأن ما ينكره الإنكليزي ليس هو الذكاء ولا العقل، ولكنه ينكر صورة الذكاء لدينا وصورة العقل لدينا. وما من أحد عرض وجهة النظر هذه خيرًا مما فعل سير أوستن تشامبرلين[16] (Austen Chamberlain) الذي يمثل صفات بلاده الحميدة خير تمثيل، حين قال في خطاب له في مجلس العموم في الرابع والعشرين من آذار/ مارس 1925: «إنني أحذر كثيرًا من المنطق حين يطبق على السياسة، وتاريخ إنكلترا جميعه يبرر قولي هذا، فلماذا جرى تطورنا بالسلام وليس بالعنف على نقيض شعوب كثيرة غيرنا؟ ولماذا لم نعان في بلادنا من الثورات أو ردات الفعل المفاجئة مثل ما

---

(16) أوستن تشامبرلين (1863-1937) (Sir Joseph Austen Chamberlain) رجل دولة بريطاني حائز جائزة نوبل للسلام. والده كان رجل سياسة وصناعي كبير وراديكالي ثم عمدة لبرمنغهام ووجهًا رئيسًا في الحركة الليبرالية والاتحادية في نهاية القرن التاسع عشر. يبدو أن والده خطط لدخوله السياسة منذ صغره فأرسله إلى فرنسا للدراسة في معهد باريس للدراسات السياسية، وذلك في أول عهد الجمهورية الثالثة؛ ثم سافر إلى برلين ونهل من الثقافة السياسية للقوة العظمى الأوروبية الأخرى، ولكنه في رسائله إلى أسرته كان يتحدث عن تفضيله لفرنسا التي أعجب بشعبها وبثقافتها. وخلال دراسته في برلين بدأت تساوره الشكوك حول القومية الألمانية المتطرفة ودرس طباع الألمان فكتب عن الشوفينية البروسية التي تتسم بضيق الأفق والتفاخر وعدم التسامح. انتخب بعد عودته نائبًا عن حزب والده «الحزب الليبرالي الاتحادي». وواصل سياسة والده والمحافظة على إرثه وسمعته حتى عُيّن سكرتيرًا ماليًا لوزارة الخزينة 1902، ثم وزيرًا للاتصالات في حكومة المحافظ أرثر بلفور الذي كان والده معارضًا له بشدة. وبعد وفاة والده صار أهم شخصية من الاتحاديين الليبراليين مع كونه في الوقت نفسه أبرز المرشحين المحافظين (اندمج الحزبان في ما بعد 1912). وخلال الحرب ساهم في الضغط على المحافظين للمشاركة في حكومة ائتلاف وطني وصار وزير دولة للهند وقاد حملة دعم عملية غزو العراق لزيادة الهيبة الإنكليزية أمام احتمال قيام ثورة إسلامية في الهند تدعمها ألمانيا. تنقل بعد الحرب في مناصب حكومية ورسمية عدة، وكان قد أصبح زعيمًا لحزب المحافظين، وكان الزعيم المحافظ الوحيد الذي لم يستلم رئاسة الوزراء خلال القرن العشرين. وأهم إنجازاته أنه حين أصبح وزيرًا للخارجية (1924-1929) ساهم في تأمين انعقاد معاهدة لوكارنو (Locarno Pact) (1925) التي جمعته مع وزير الخارجية الألماني غوستاف سترسمان (Gustav Stresemann) ووزير الخارجية الفرنسي أريستيد برايان (Aristide Briand) ليواصل بعدها الدعوة إلى المصالحة الألمانية الفرنسية التي كانت برأيه ستحمي أوروبا.

عانته بلاد أكثر تمتعًا منا بروح العقل المنطقي، على الرغم من التغييرات الكبيرة التي حصلت عندنا خلال القرون الثلاثة الأخيرة؟ سبب ذلك هو أن الغريزة والتجربة علّمتانا بالدرجة ذاتها أن الطبيعة الإنسانية ليست منطقية، وأنه ليس من الحكمة أن نتعامل مع المؤسسات السياسية كما نتعامل مع أدوات المنطق، وأنه على العكس من ذلك عندما نمسك عن دفع الآراء إلى نتائجها المتطرفة فإننا نجد طريق التطور السلمي والإصلاحات الحقة».

هذا الغياب المتعمد للمنهج، هو منهج في حد ذاته. يقول الإنكليز بفخر: «سأخوض غمار هذا الأمر» (I'll muddle through)، وهو لا يعني أبدًا ما يقوله الفرنسي: «سأعرف كيف أتخلص من المأزق» (Je me debrouillerai)؛ وإنما معناه «سأخوض في الأمر بقوة... وبهذا سأستطيع إيجاد مخرج». إن النجاح الدائم الذي أحرزوه طيلة قرون قد جعلهم يعتقدون أنهم ينجحون بمحاسنهم وعيوبهم على حد سواء، ومن هنا فهم يرضون بألا يصلحوا أنفسهم. لقد ظهر نجاح نظامهم طالما كان البلد ثريًا وكان يستطيع احتمال الأخطاء. أما الآن وقد ضاق الهامش، أفلا يجب أن يفكروا بطريقة أدق وأعمق؟

أي درس يمكن لنا أن نستخلصه من هذا في علاقاتنا مع أصدقائنا الإنكليز لو أننا نظرنا إلى الأمر على أنهم يفكرون جميعًا بطريقة السير أوستن تشامبرلين فحسب. إننا حينما نريد مقارعتهم الحجة بالحجة ونبغي إقناعهم بأسانيد لا تقبل المناقشة، نشعر أن ليس ثمة أمامنا أحد، ونحس أننا نصطدم بنوع من الجدار الأصم؛ ذلك لأنهم يقفون في المناقشة على أرض أخرى، وبالتحديد أكثر، على مستوى آخر. وأيًا كانت طبيعة الحجج والأسانيد، فإنها لن تزحزحهم من هذا الموقف. أوضح لي شخص بريطاني مهم، سبق أن تفاوض كثيرًا مع الفرنسيين في المؤتمرات الدولية، خطة دفاعه إزاء الفرنسيين، قال: «يحدث دائمًا، وغالبًا بسرعة كبيرة، أن يقول لي ممثل فرنسا: وأخيرًا يا سيدي، ألا توافق على أن 2+2=4؟ فأجيبه: كلا! وعندئذ تبدأ المناقشة المثمرة بيننا فحسب».

وبناءً على ذلك، فإنه ينبغي لنا حين نتفاوض مع الإنكليز ألا نساوم معهم

في أي حال من الأحوال. فهم سيشبّهوننا عند ذاك بتجار غشاشين[17] (mercantis) فقدوا كل معايير الحكم المنطقي على محدثيهم. والتعامل الصحيح معهم هو أن تحدد موقفك من أي مشكلة وأن تتمسك به من دون أن تكون هناك حتى حاجة لإبداء السبب. فهذه الصلابة ستجعلنا أكثر قبولًا وسنحصل بهذا على ما نريد أكثر مما لو كنا نحاجج منطقيًا. ولا أستطيع أخيرًا سوى إبداء الإعجاب بهذه الصخرة التي ترفض أن تتزحزح. أن يقول الإنكليزي عن نفسه إنه غبي! فكم هذا مريح، وأنا أقول هذا بغيرة دنيئة، إذ هو يتحرر من المنطق ويسير بسهولة، لا بل بلا وعي، في المتناقض! كان لورد كورزون[18] (Lord Curzon) النائب الملكي السابق في الهند يقول في استعلاء: «نحن نحكم بشخصيتنا» والحق أنه بفضل قوة الخلق والطبع، غالبًا ما يكون للعناد البريطاني الكلمة الأخيرة.

وها نحن نعود مجددًا إلى النقطة الأساس، أي إلى القوة الأخلاقية المعنوية. وهنا يبدو الإنكليزي مطبوعًا بطابع تكوينه البروتستانتي، أي إنه من الناحية الأخلاقية (ولا أقول ذلك عن الناحية الفكرية) فرد بذاته. والدين والسلوك في نظره مسألتان شخصيتان خصوصيتان لا تستدعيان بالضرورة وساطة إكليروس، بالمعنى الروماني للكلمة. وهو يعتبر نفسه مسؤولًا شخصيًا عن أعماله وسلوكه. والاهتمام بالغفران أمر غريب عليه، لأنه يعتقد أنه عليه أن يتصالح مع ذاته، ومع ضميره. وهذا الشعور الصامت بالواجب هو أحد الخصال المميزة للخُلق البريطاني: فالإنكليزي الذي يحسن عمله، لا يطلب تشجيعًا ولا ثناء من رؤسائه. وقد يعتبر تدخلهم - حتى ولو كان لا غبار عليه - نوعًا من التطفل في مجال هو من اختصاصه فحسب. «لقد كان علي أن أقوم

---

(17) تسمية شاعت لوصف تجار المشرق الذين يقومون بكل الألاعيب والاحتيالات من أجل تحصيل المال.

(18) الماركيز كورزون هو جورج ناتانيال كورزون (1859-1925) (George Nathaniel Curzon, Marquess Curzon of Kedleston) كان لوردًا (1898-1911) ثم إيرلًا (Earl) (1911-1921)، رجل دولة بريطاني محافظ. كان نائب ملك الهند ووزيرًا للخارجية ثم مرشحًا لرئاسة الوزراء، أدى الدور الأهم في مشروع تقسيم البنغال 1905 الذي أدى إلى أزمة كبيرة للإمبراطورية البريطانية في الهند، وفي رسم خط كورزون في أوروبا الشرقية. اشتهر بصراعاته وخلافاته مع الجميع، وكان معتدًا بنفسه مغرورًا لا يجامل، مما زاد في عداواته.

بأمر ما. وقد أديته وليس هناك شيء أكثر من ذلك، فهي مسألة تتعلق بشرفي، والمدائح التي قد توجهها إلي لن تضاعف من ارتياحي الخاص بأني أديت ما كان علي أن أؤديه». وليس هذا من قبيل الإحساس بالكرامة الذاتية، ولكنه صورة قومية - صورة خاصة جدًا - من مشاعر الشرف.

يجب أن نضيف هنا أن مما ييسر السبيل لهذا الضمير في العمل كون الإنكليزي مطيعًا رغبته وبسهولة. وإنه يحب أن يندمج في نظام يرسم فيه عملًا معينًا له وليس في هذا أي ذلة أو أي شعور بالتبعية، ولكنه الفخر بتأدية واجب يكون مقبولًا منه ولا يتضمن أي تضحية في كرامته. وثمة شيء من أعظم ما حققه الشعب البريطاني في حياته ألا وهو «النظام في/ ضمن الحرية» وهذه الخصلة هي من وحي البروتستانتية طبعًا، ومع ذلك فإن إنكلترا لم تقطع صلتها تمامًا بالكاثوليكية؛ ذلك لأنها حين انفصلت عن روما في الديانة فقد أعلنت أنها ستظل كاثوليكية بالمعنى الواسع للكلمة. فالأنغليكاني بحكم الطبع والتراث (وكل إنسان غير امتثالي) يحب المراسم والطقوس، وبالتالي فهو يشعر بانجذاب حقيقي لاحتفالات الكنيسة الكاثوليكية، وهذا هو سر الاتجاهات الكاثوليكية في الكنيسة العليا الإنكليزية. وقد يظن بعضهم أن الكنيسة الإنكليزية إن سارت إلى نهاية منطقها، فإنها ستعود إلى الحظيرة البابوية؟ كلا، لأن البابا يبدو - في نظر هذه الجزيرة - كأنه حاكم أجنبي؛ بل وأشر من ذلك: حاكم إيطالي. وبصفته جزيريًا حقيقيًا، يريد الإنكليزي أن يكون كاثوليكيًا - بالمعنى العام للكلمة - ولكنه يرفض قبول حكم سلطة غير قومية ولو في المسائل الروحية.

وها نحن أولاء نرجع - مرة أخرى - إلى فكرة «الجزيرية» التي تعبّر بعمق عن رغبة كل إنكليزي في التحررين الداخلي والخارجي. فالإنكليزي هو «الليبرالي» (التحرري) بحق، إنه لا يفرض نفسه، ولكن يريد أن يُترك هادئًا مطمئنًا. يجب أن تحترم حياته الخاصة، وليس لكائن من كان أن يتدخل فيها. ومع ذلك، فإن هذه (الليبرالية) (التحررية) مصطبغة بلون من اللامبالاة والأثرة، وقد يكون في هذا أحسن ضمان للحفاظ عليها: سيحترمون حريتك إذًا، ولكن

ربما كان هذا أيضًا لأنهم لا يبالون بك كثيرًا؛ ولكل أمرئ حياته الخاصة. وفي هذا شيء من قلة الإنسانية. ويمكننا أن نقول عن هذا الشعب الممتلئ بالإحسان والخير، إنه أقل إنسانية من شعبنا نحن. الشعب الإنكليزي لا يشعر بوحدة غيره من البشر وتضامنهم. يعتقد بعضهم أنه شعب متغطرس (يزدري غيره) - ولست متأكدًا من ذلك - ومع هذا فإني أشعر بحرج حين أرسم حدًا بين هذا الاحترام لحرية الآخر عند الإنكليزي، وانعدام اهتمامه - الذي يوشك أن يكون احتقارًا - لكل ما يراه الآخر أو يفعله في الحياة. وفي الأساطير صورة عن إنكليزي يقول: «يبدأ وجود الزنوج عند كاليه». ولعله كان يريد بلا شك أن يمزح، ولكني أعتقد مع هذا أن المسألة ليست كلها مزحًا. وليس الإنكليزي شخصيًا بالرجل المتكبر، لكن المواطن البريطاني متكبر قوميًا: فهو يعتقد أنه من جوهر آخر غير جوهر «الناس» الآخرين الذين يشكلون بقية بني الإنسان. وعندما نقول له إنك شعب الله، فإنه لا يكون بعيدًا من تصديق ذلك.

من هذه الرغبة في البقاء متميزين، ينشأ تحرز صلب من كل ما هو ليس إنكلترا، ومن بين الأجانب التحرز من اللاتين خصوصًا. فالإنكليزي يعجب بالفرنسي لذكائه وإحساسه المرهف بالفن والفكر، ولكنه لا يثق بالفرنسي أخلاقيًا. كما أننا نستطيع أن نرى، وخصوصًا عند أهل الجزيرة البلديين الخام (وهم كثر بعد ذلك)، ممن لم يغادروا جزيرتهم حتى الآن، نوعًا من الابتعاد أو الانطواء حين يتطلب الأمر التعاون معنا. وعندما يقررون التعاون معنا، فإن ذلك يكون على طريقة التواطؤ بين طرفين. وقد استمعت بهذه المناسبة إلى قصة امرأة إنكليزية دعيت إلى الإدلاء بشهادة في قضية جنائية، وطلب منها أن تدلي بأقوالها عن كل ما تعرفه عن سلوك المتهمة. وقد بادرها القاضي بهذا السؤال: «هل سمعت ما يثبت القول بأن هذه المتهمة سيئة السلوك؟ فأجابت «كلا»؛ ثم بعد تردد قصير قالت: يجب أن أقر أنها تلقت تربيتها في باريس». وهذه لم تكن ملاحظة طيبة من جانب السيدة بالطبع!

وهذا الإنكليزي الذي يأخذ الأمور على محمل شخصي في كل ما يتعلق بالمسؤولية الأخلاقية، ليس مع ذلك فردًا يحمل جميع صور الفردية، فهو على

أي حال ليس فردًا بالمعنى اللاتيني الذي ينطوي على استقلال الروح النقدية، وادعاء كل فرد أنه يكوّن لنفسه رأيًا خاصًا باستخدامه عقله. ونحن نشك كل الشك في أن يكون الرجل الإنكليزي قادرًا على أن يكوّن لنفسه رأيًا عن حرية وفق ما يمليه عليه عقله، كالرجل الفرنسي. والواقع أنه يتبع - عن طيب خاطر - الرأي الذي يشير به عليه زعماؤه ورؤساؤه. وعندما يتحدث رئيس حزب من الأحزاب إلى الأعضاء، فإن جميع الأعضاء لا يشعرون بأي مضايقة في اتباعه. وربما يكون هذا هو سر الانتظام الجميل الذي يصنع قوة النظام البرلماني البريطاني، كما أنه قد يكون أحد مصادر تلك النزعة المواطنية المدنية، وذلك الإخلاص للشأن العام، والتي يجب على كل فرد بمقتضاها أن يقدّر حتمية اندماجه في المجتمع واشتراكه في الحياة الاجتماعية مع عدم التخلي عما تتصف به طبيعته الفردية من اعتداد بالنفس.

هذه الحقيقة تفسر لنا كيف أن الإنكليزي يكون ذا فاعلية عندما يندمج في بنيان أي منظمة تعمل بشكل جيد، ولكنه يضيع تائهًا إذا فرض عليه أن يتصرف بوسائله الخاصة تجاه موقف ما، أي أن «يتخلص من المأزق» بحسب عبارتنا الأثيرة. وليس هناك من أحد غير الرجل اللاتيني، ساكن البحر المتوسط، من يسمو قدرًا ويتعالى منزلة ساعة الأزمات. ففي حين أن باسبارتو[19] (Passe-partout) هو على النقيض من فيلياس فوغ[20]، إلا أنهما ينجحان في مهمتهما، كل على طريقته وبالوسائل الخاصة به والتي تنسجم مع شخصيته. ومن هذا يتضح لنا مفهومان للحياة الاجتماعية وطريقتان لمواجهة العمل والمسؤولية والفاعلية. إننا نستطيع أن نحصل على كل شيء من الرجل الإنكليزي، من طريق شعوره نحو تأدية الواجب. كما نظفر بكل ما نرجو من الرجل اللاتيني، من طريق اعتداده بنفسه. وقد قيل كثيرًا عن أن الشماليين يتفوقون على الاثنين معًا: وأنا لا أعتقد بصحة هذا في جميع الحالات.

---

(19) جان باسبارتو هو شخصية في رواية جول فرن الشهيرة حول العالم في ثمانين يومًا ومعنى اسمه يشبه اسم علي الزيبق أي الرجل الذي يتسلل ويتزلق في أي مكان. وكان في رواية جول فرن خادمًا للإنكليزي فيلياس فوغ.

(20) فيلياس فوغ هو البطل الرئيس في رواية جول فرن ويمثل شخصية الإنكليزي التقليدي.

(3)

لقد ساهمت بريطانيا بنصيب وافر ومميز في تقدم الحضارة الغربية، وبالتساوي في الأقل مع مساهمتنا في ذلك، وإن كانت مختلفة، حتى أننا لندهش - لأول وهلة - من وضعنا في هذا المقام ضمن العائلة الأوروبية نفسها.

على أننا نجد أن الرجل الإنكليزي هو من بين جميع الشعوب المتمدنة، أقرب الناس إلى الطبيعة الفطرية وذلك تبعًا لحساسيته ولمسالكه. أما الفرنسي فإنه - من طريق محاولاته المتعددة في تعريف هذه الطبيعة وتحليلها وتصنيفها - يخاطر غالبًا بتشويهها وإعطائها معنى هي أبعد ما تكون عنه. وعندما يزعم الأميركي أنه يتغلب على طبيعته بوسائل اصطناعية، فإنه يتجاهل تمامًا بعض قوانين النضج الأساسية، وهذا التجاهل قد يتسبب بزوال حضارته. أما جون بول (John Bull) (يمثل شخصية الرجل الإنكليزي عامة)، فإنه يتمتع بمعنى الطبيعة، وبقوة الشعور بقوانينها. فنراه يتطور ويستخدم ويفكر ويعمل بالانسجام التام معها، كما لو أنه جزء منها، ومن دون أن يتجاهل في الوقت نفسه أن قانون الحياة يشتمل كذلك على عدم الكمال؛ فموقفه هو موقف التكيف، أي التواضع.

ومن هنا تنبع طريقة خاصة بالبريطانيين في النظر إلى الأمور، وحين يقول الفيلسوف بيكون[21] (Bacon) إنه لا يمكننا التحكم بالطبيعة إلا بإطاعة قوانينها (Naturae non nisi parendo imperatur) فهو إنكليزي حقًا. فإخوانه في الوطن وكل تلاميذه، بقدر ما أننا إخوان وتلاميذ ديكارت، لم يشمخوا بأنوفهم على الطبيعة أو الأشياء. ولكنني لن أقول أيضًا إن الإنكليز قوم مختلفون: فقد يكون من المناسب أن نقول ببساطة إنهم قوم طبيعيون، وهذه الخصلة تنطبق عليهم تمام الانطباق، لا سيّما وأنهم يعدون في صف أولئك الذين تغلب عليهم سلامة النية أكثر من الخداع والغدر، لأنه إذا وجد أن إنكلترا قد مارست الخداع والغدر[22]

---

(21) فرنسيس بيكون (Francis Bacon) (1561-1626) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنكليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية من طريق فلسفته الجديدة القائمة على «الملاحظة والتجريب».

(22) آه يا ألبيون الغدارة (Perfidious Albion) هي عبارة تحقيرية بحق الإنكليز خصوصًا في العلاقات الدولية والدبلوماسية، وهي تشير في الأصل إلى أعمال خيانة ومكر وخداع وغدر بالتحالفات =

(Perfide Albion)، فلا بد أن يكون هذا قد حصل، كما سنرى لاحقًا، في ظروف خاصة جدًا ودفاعًا بشكل من الأشكال عن كيانها ووجودها (وهذا لا يمنع من أن يكون قد حصل غدر).

هنا نلتقي بسمة الشباب كما سبق أن التقينا بسمة الجزيرية: فالإنكليزي يظل من بعض نواحي وجوده شابًا لا يتعدى سنه الخامسة عشرة. فهو شاب على طريقة الحيوانات الصغيرة، ومن هنا سلامة طويته الساحرة، والبساطة التي لا مثيل لها في معاملاته اليومية، فتبدو أعيننا الفاحصة المدققة بالقياس إليها وقحة (كلبية (cynique)) في النهاية. كما أننا سنجد بعد ذلك في صداقته للحيوانات الشكل المثالي لتعبيره عن شبابه الدائم، لا بل لتحليق إلى أعلى المطارح؛ وأنا أعتقد أنه يفضّل الحيوان على الإنسان. قرأت منذ سنوات عدة في صحيفة التايمز، لو سمحتم لي، هذا الخطاب الموجه إلى رئيس التحرير: «سيدي، لقد لاحظت في حديقتي أمس، حضور فَرَاشتين، ويعني هذا ظهورها قبل أسبوعين مما هو معتاد في هذا الفصل من السنة». من هذا نرى كيف أن صحيفة إنكليزية تعد الوسيلة الإعلامية الأكبر للمدينة، تسمح لنفسها أن تنشر في إحدى صفحاتها هكذا رسالة. وقد سبق لي أن أشرت إلى هذا في محاضرة لي في إنكلترا، وفي اليوم التالي عرض علي أحد الذين استمعوا إلى محاضرتي خطابًا آخر نشر حديثًا في صحيفة التايمز كذلك، وقد جاء فيه: «سيدي، في أسبوع سلامة المرور، وقعت حادثة يهم القراء أن يقفوا على تفاصيلها. فعندما كنت في طريقي إلى جامعة أكسفورد هذا المساء رأيت كلبًا يعبر الطريق على مهل أمام سيارتي. فأبطأت سيري منبهًا إياه بزمور من السيارة. فتوقف الكلب عن المسير، ثم هز ذيله ورجع إلى الوراء. وفي الوقت الذي جاوزت فيه مكانه، رأيته على الرصيف ينظر نحوي معبرًا عن شكره وامتنانه بحركة لطيفة من

= قام بها حكام بريطانيا في سعيهم إلى تحقيق مصالحهم الخاصة وتطبيق سياستهم الواقعية (realpolitik). وكلمة برفيديوس اللاتينية تعني الحنث في اليمين أو في الوعود، وكلمة ألبيون هي الاسم الإغريقي القديم لبريطانيا. ولهذه العبارة التحقيرية تاريخ طويل خصوصًا في فرنسا وآخر التجارب الفرنسية مع بريطانيا الغدارة كانت بالنسبة إليهم أيام الثورة حين أيد البريطانيون الثورة ثم انقلبوا ضدها بعد إعدام الملك لويس السادس عشر فتحالفت بريطانيا مع الملكيات الأوروبية ضد الثوار الذين اعتبروا ذلك غدرًا وخيانة.

ذيله». وصاحب هذه الرسالة كان واحدًا من الشخصيات المهمة جدًا في جامعة أكسفورد. ويتضمن الكتاب الأبيض الذي نشرته وزارة الخارجية البريطانية بعد القطيعة مع هتلر لمحة مشابهة ذات معنى عظيم، كونها وردت في وثيقة رسمية. ذلك أن سفير إنكلترا في برلين أبرق إلى وزير خارجيته يخبره أنه نظّم عملية ترحيل موظفي السفارة بأمان وسلامة إلى الوطن، وهم ثلاثة عشر رجلًا وخمس نسوة وكلبين (هكذا في النص الأصلي للبرقية). فهل الأمر مجرد مزاح وفكاهة؟ وهل هذه المعلومة من طبيعة تهم وزارة الخارجية البريطانية؟ نحن لا نعرف ذلك، بيد أن من المؤكد أن شعبًا يتحدث بهذا الأسلوب عن أخوتنا الأدنى منا في مرتبة الكائنات الحية، لا يمكن أن يكون ماكرًا أو خبيثًا.

هذه الاستقامة، وهذه البساطة وهذه الثقة هي في أساس الحلول التي تقدمها الحياة الإنكليزية. وهي تفسّر كذلك من دون شك، كل الأصالة والتميز في العلوم والآداب البريطانية. وفيما أعتقد، ليس هناك من أحد يداني البريطانيين في ملاحظة الطبيعة، فهم قوم يحسنون النظر قبل الاستنتاج، ومن دون أن يروا لزامًا عليهم أن يصلوا إلى نتيجة بالضرورة، ذلك أنهم حكماء؛ وفضلًا عن ذلك فإنهم يعشقون مثالاتهم أكثر مما يحبون أنفسهم، بحيث لا يضيرهم أن تذوب شخصيتهم في سبيل ذلك. وهم لا يقتصرون في حبهم على الحيوانات التي يراقبونها بروح تفيض بالرغبة العاطفية، بل إن حبهم يتعدى هذا إلى الأشجار والأحجار، وكل هذه الطبيعة المعدنية التي نقول عنها إن لا حياة فيها وهي في نظر شعرائهم ليست كذلك بالتأكيد. وأدبهم يحمل طابعًا مشابهًا لهذا، خصوصًا عندما يكون الهدف دراسة السيكولوجيا: فهم ينظرون إلى الناس في أناة، ودقة، ونية صافية؛ كما لو كانوا يدرسون التاريخ الطبيعي ومن دون أن تكون لديهم - على الطريقة الفرنسية - أفكار مسبقة عن بناء رواية مثل مسرحية كلاسيكية. وقد جمعوا بذلك ثروة كبيرة من الشواهد وكأنها دار محفوظات لحضارة، حيث يسمح الكاتب لنفسه بأن يساهم فيها من طريق الدعابة أو النقد، ولكنه لا ينفك دائمًا يقاوم غواية تصحيح ما خلقته الطبيعة قبل أن يولد هو.

لكن المساهمة البريطانية، وخصوصًا في الأعمال المالية والسياسية، لا

تنفصل قطعًا عن تطور حضارتنا نفسه. فهم لم يخترعوا نظام الاقتراض المالي قبلنا، لكنهم مارسوه بطريقة لم يسبقهم إليها شعب آخر. فقد تصوروه على أنه استجابة للثقة التي يستحقها الرجل الأمين الذي يوثق في كلامه أكثر مما يوثق في توقيعاته. هذه الثقة المتبادلة بين أناس يعيشون معًا في جزيرة واحدة هي - من دون شك - الرباط الاجتماعي الذي يدهش له الأجنبي. ذلك أن عدم الثقة لا وجود له في ما بينهم - على عكس ما يحدث في أي بلد آخر، حيث يتطلب الأمر نوعًا من ضمان عدم الغش أو الخداع، لإقامة التوازن بين الأفراد والجماعات ولتحل الثقة في ما بينهم. وأعتقد أن إنكلترا هي البلد الوحيد في العالم الذي يسجل أمتعة المسافر داخل البلاد من دون إيصال، ولم أسمع قط أن هذه الطريقة أعطت نتائج سيئة.

إن كلمة «الجنتلمان» التي يوصف بها الرجل الإنكليزي قائمة على هذا المبدأ: «مبدأ الثقة» فهي ترادف في لغتنا كلمة الرجل الأمين النزيه المستقيم (Honnête Homme) حين نسقطها على الميدان الاجتماعي والدنيوي. ولكن هناك بعض الظلال من الفروق: حيث يكون هناك تشديد أقل على «آداب العقل والفكر» وتشديد أكثر على «آداب السلوك والعادات»، إضافة إلى تطلب أخلاقي على مستوى عال: «الجنتلمان» في هذه البلاد الموصوفة بالامتثالية، هو الرجل الذي يعرف كيف يتصرف في العالم كما يعرف كيف ينتقي ملابسه، في الوقت والظرف المناسبين، والذي يستطيع أن يبقى تحت مستوى درجة الكمال التي قد تجعله يؤخذ مأخذ الرجل الذي اتخذها مهنةً له (انظروا إلى قول جورج برومل[23] (Georges Brummell): «اهتم واعتن بشكلك ولكن لا تتطرف في ذلك» (Care, never extreme care)... ولكن «الجنتلمان» هو كذلك من يعرف كيف يحافظ على كرامته المعنوية والأخلاقية لا تشوبها شائبة، ما يجعلنا بالتالي

(23) جورج برايان برومل (George Bryan Brummell) الملقب أيضًا برومل الجميل (Beau Brummell) (1778-1840) مثال الغندرة والتأنق في بريطانيا. لم يكن غنيًا ولا جميلًا ولا نبيل المحتد، ولكنه حظي بإعجاب كل المجتمع اللندني. وهو الذي أدخل لباس الرجل العصري حين صمم وأقام لبس البذلة ذات اللون الغامق مع السروال الطويل الساقين والمستقيم مع ربطة العنق... إلخ. ثم كانت له مساهمات كثيرة في تطوير الموضة وآداب السلوك المهذب والأناقة والكياسة... إلخ.

نثق به ونعتمد عليه. ولا أظن أن إنكلترا قد انتهت إلى مفهوم أعظم نبلًا، وأكثر وطنية أساسًا، من هذا المفهوم. فهل لي أن أفصح عن أنني أضيق ذرعًا أحيانًا بالجنتلمان بسبب تحديداته الظاهرة للعيان، خصوصًا وأن الناس يقبلونها بحبور بالغ. ولكن حين نرى كثيرًا من الفظين على المستوى الدولي، ويعلم الله كم هم كثيرون من هذه الفئة، فإننا نرجع إلى الجنتلمان كما يرجع المرء إلى مرفأ أمان أخلاقي لا مثيل له.

وأخيرًا، وفي مجال السياسة، ودائمًا للأسباب نفسها، فقد وضعت إنكلترا حلولًا لمشكلات كثيرة، لم تستطع كل البلدان الأخرى حلها. فهي علمتنا، بل برهنت لنا فعلًا على أن الحرية والسلطة ليستا فكرتين متناقضتين، وأن الإنسان يستطيع أن يطيع قوانين بلاده من دون أن ينال هذا من كرامته، وأن الحرية لا تعني أبدًا الفوضى وانعدام النظام، كما أن السلطة لا تعني الاستبداد. وهذا (كما سبق أن لفتنا الانتباه إليه) تفسير لمفهوم كالفن (Calvin) للمجتمع الذي لا يربطه مع ما نسميه السلطة الحاكمة إلا روابط قليلة، بالمعنى الذي كانت عليه الإمبريوم الرومانية[24] (Imperium). وليست الحكومة سلطة مفارقة، تفرض أوامرها على رعايا من فوق، لكنها ببساطة تعبير عن المصلحة المشتركة، ونوع من النيابة/ التفويض عن الجماعة التي عليها أن تدير شؤونها بنفسها ولنفسها، تمامًا مثل فرد أو مجموعة من الأفراد، وبذلك لا تنطوي إدارة الشؤون العامة

---

(24) الإمبريوم (Imperium) هو اصطلاح من اللغة اللاتينية، يعني تقريبًا «سلطة القيادة» أو «الحاكمية». في روما القديمة، كان يتم تمييز أنواع السلطة والنفوذ المختلفة بمصطلحاتٍ مختلفة، وبالتالي فقد كانت وظيفة مصطلح الإمبريوم التعبير عن سيادة الدولة على الأفراد. يشير الإمبريوم بالدرجة الأولى إلى استعمال فردٍ للسطات المفوَّضة إليه بدرجة أو بأخرى، وكان يُطلَق على الأشخاص الذين يُمنَحون سلطات الإمبريوم هذه اسم الحكام. كان الحكام بعض أعلى وأهم المسؤولين في الحكومة الرومانية، ورتبهم الرسميَّة في روما كانت الإيديل والبريتور والرقيب والقنصل وقائد الفرسان والدكتاتور. وفي المجتمع الروماني، كان الإمبريوم مصطلحًا يدلُّ على السلطة القانونية. فالرجل الذي يحظى بالإمبريوم (والمُسمَّى «إمبراتور») كانت لديه بالواقع سلطة مطلقة يمكنه استعمالها في حدود كونه حاكمًا أو حاكمًا ثانويًا. كان يمتاز بحق النقض، وفي الآن ذاته كان يمكن أن ينقضه أي حاكم أو حاكم ثانوي بسلطة مساوية له، مثل قنصل زميلٍ له، أو بالأحرى، كان يحقُّ لمن يمتلكون إمبريوم مساويًا له أن ينقضوا قراراته.

على نوع من السرية أو الخطورة أو الخسارة. أما عندنا - نحن الفرنسيين - فإن إدارة الأمور، ليست توكيلًا من المحكومين للحاكمين، بل هي في أساس معنى الدولة، أي داعي المصلحة العليا.

ومنطق الدولة هذا (داعي المصلحة العليا) موجود أيضًا هنا (عند الإنكليز)، ولكن في السياسة الخارجية، حيث يدعو الداعي إلى المحافظة على المصلحة القومية العامة. وبصفتهم من التلاميذ البعيدين ولكن الحقيقيين لكالفن، فإن الإنكليز يعتبرون عن إيمان صحيح أن قوانين الأخلاق، يجب أن تمتد إلى السياسة. ومع ذلك، فإن هذا الشعب يحب الحياة، وقوانين الحياة لا تتفق للأسف دائمًا مع هكذا مثالية. وقد وجد لوثر (Luther) حلًا واقعيًا لهذه المشكلة[25]؛ لكن الإنكليز كانوا أقل شجاعة من «لوثر» وقد اكتفوا بالأخذ بما سماه كازاميان[26] (Cazamian) التفويض الضمني: فرجل الدولة البريطاني يحاول في ممارسته للسياسة أن يحترم قوانين الأخلاق، بيد أنه إذا لم تسعفه هذه القوانين أثناء ممارسته لحل مشكلة سياسية، وتعارض هذا الحل مع سلامة

---

(25) مارتن لوثر (1483-1546) (Luther Martin) راهب ألماني، وقسيس، وأستاذ للاهوت، ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا بعد اعتراضه على صكوك الغفران. نشر في عام 1517 رسالته الشهيرة المؤلفة من خمس وتسعين نقطة تتعلق أغلبها بلاهوت التحرير وسلطة البابا في الحل من «العقاب الزمني للخطيئة»؛ رفضه التراجع عن نقاطه الخمس والتسعين بناءً على طلب البابا ليون العاشر عام 1520 وطلب الإمبراطورية الرومانية المقدسة ممثلة بالإمبراطور شارل الخامس أدى به إلى النفي والحرم الكنسي وإدانته مع كتاباته بوصفها مهرطقة كنسيًا وخارجة عن القوانين المرعيّة في الإمبراطوريّة. أبرز مقومات فكر لوثر اللاهوتي هي أنّ الحصول على الخلاص أو غفران الخطايا هو هديّة مجانيّة ونعمة الله من خلال الإيمان بيسوع المسيح مخلصًا، وبالتالي ليس من شروط نيل الغفران القيام بأي عمل تكفيري أو صالح؛ وثانيًا رفض «السلطة التعليمية» في الكنيسة الكاثوليكية والتي تنيط بالبابا القول الفصل في ما يتعلق بتفسير الكتاب المقدس معتبرًا أنّ لكل امرئ الحق في التفسير؛ وثالثًا أنّ الكتاب هو المصدر الوحيد للمعرفة المختصة بأمور الإيمان؛ وعارض رابعًا سلطة الكهنوت الخاص باعتبار أن جميع المسيحيين يتمتعون بدرجة الكهنوت المقدسة، وخامسًا سمح للقسيس بالزواج. وعلى الرغم من أن جميع البروتستانت في العالم يمكن ردهم إلى أفكار لوثر، إلا أن المتحلقين حول تراثه يطلق عليهم اسم الكنيسة اللوثرية.

(26) لويس فرنسوا كازاميان (1877-1965) (Louis François Cazamian) أكاديمي وناقد أدبي فرنسي. له مؤلفات عدة بالفرنسية والإنكليزية تتناول الأدب الإنكليزي، أشهرها كتابه: تاريخ الأدب الإنكليزي (*A History of English Literature*)، الرواية الاجتماعية في إنكلترا (*Le Roman Social en Angleterre*)، وتطور المزاح الإنكليزي (*The Development of English Humor*)... إلخ.

الشعب، فإن التفويض الضمني يسمح له بخرق قوانين الأخلاق من دون مبالاة، وسيلقي عليه معطف نوح[27]، من دون أدنى كلمة، ستارًا من النسيان. هذا نفاق، بلا شك، ولكن هل تفضلون الكلبية (الوقاحة التهكمية) البسماركية؟

(4)

وقد صار العالم في القرن التاسع عشر أكثر قابلية للعيش بفضل النظام الإنكليزي الذي جدد شبابه التبادل الحر في التجارة. وقد نشأت من طريق هذا النظام علاقات اقتصادية ثابتة ومتكاملة بين مختلف القارات. وحين كنا نغادر شواطئنا قبل عام 1914، فقد كان هذا من أجل أن ندخل في الحال في جمهورية (مركنتيلية) تجارية دولية تعمل تحت الرعاية البريطانية، وحيث كانت الوسائل البريطانية هي السائدة. وكانت النتيجة أن استفاد جميع الأجانب على قدم المساواة مع البريطانيين، من هذه اللعبة المنصفة (fair play)، كما استفاد البيض عمومًا من «السلم البريطاني» هذا؛ بشرط واحد وهو ألا يرفضوا النظم المعمول بها في إنكلترا. وبذلك أصبحت إنكلترا تلقي على العالم دروسًا في الحرية، ولكن... لم يفهم العالم معناها، مع الأسف. والحال أن القرن العشرين متخلف عن القرن التاسع عشر في هذا المجال، ولما تعب الإنكليز من أن يلعبوا لعبة الحكماء العقلاء لوحدهم، قفلوا راجعين إلى حظيرة المبادئ نفسها التي تنادي بالحماية وبالاقتصاد الموجه الذي كان تركهم إياه سبب عظمتهم التليدة. ومع ذلك فقد ظلوا مخلصين كل الإخلاص لمبدأ حرية الفرد في المجتمع، وأعداء ألداء بطبعهم ومزاجهم، لكل أشكال الاضطهاد والاستبداد. ولم تنجح الحرب ذاتها في أن تثنيهم عن تقليد عاشوه قرونًا طوالًا فظلوا مؤمنين بأن الحرية منبع حيوي للثروة والقوة.

ويبدو أن جميع الاتجاهات العميقة في هذا القرن تسير - مع الأسف - في اتجاه آخر، ومع ذلك فإننا نشعر في أعماق أنفسنا أنه كلما ابتعدت بنا الخطى

(27) عبارة تعود إلى التوراة في قصة النبي نوح وتعني تغطية شيء مخجل عن أعين الغير، أو هي طريقة خجولة لتخبئة قصة مزعجة أو التقليل من قيمتها وأهميتها.

عن رسم «المثالية الإنكليزية» بعدت الشقة بيننا وبين الحضارة. واليوم، وقد جرى تجاوز النظام البريطاني، فإنه يقف موقفًا دفاعيًا. وفي موقف الدفاع هذا اضطرت إنكلترا إلى الأخذ ببعض التدابير وحتى ببعض المذاهب التي تتعارض مع تقاليدها الحرة كل التعارض. ففي ظل الظروف الجديدة تمامًا المتشكلة مع الإنتاج الصناعي ونظام التبادل التجاري وسلوك الولايات المتحدة في عالم مساواتي، كيف ستكيف إنكلترا نفسها، بل كيف تستطيع أن تكيف نفسها؟ لقد نجح الرجل الإنكليزي في القرن التاسع عشر بفضل مميزات فذة خاصة به. وقد تهيأت له سبل النجاح كذلك نظرًا إلى أنه كان يستفيد - في أوسع نطاق وأبعد مدى - من شبه احتكار للفحم والصناعة في زمن الآلة البخارية؛ ومن كونه كان يركز أيضًا عمله على أساس من ثروة حصلها كانت ضخمة في ذلك العصر: وكان يعتقد أنه يعمل في ظروف من المنافسة الخالصة، ولكن هذا الأمر كان هو «الطابع الدولي» المميز في ذلك العصر... فمبدأ: «شُقّ طريقك» كان يكفي لنجاح الرجل الإنكليزي في إطار هذه الشروط. والآن أضحى الوقت لديه أكثر ضيقًا من ذي قبل، ولم تعد وسائله الأولى تلائم الوضع الجديد: إذ يجب عليها في إطار منافسة أصبحت تجري على أرض مكشوفة، أن تتغلب بتفوقها العظيم في التقنية كما من طريق عمل أكثر قوة وزخمًا أيضًا.

وبغية تفسير مقدار النجاح الباهر الذي بلغه هذا النظام، علينا أن نضيف هنا إلى ما سبق بأنه مع كل الديمقراطية الحقيقية في مؤسساته إلا أنه ظل حتى وقت قريب أرستقراطيًا بحسب ما جرى عليه العرف ودرجت عليه التقاليد في هذه البلاد. فالناخب كان سيد نفسه، ولكنه كان يختار في أغلب الأحيان أن يمنح السلطة لممثلي طبقة النبلاء وأصحاب الثروة ولممثلي التقاليد القديمة، بحيث إن تلك الديمقراطية كانت تشتغل تمامًا مثل الأرستقراطية. ولم تستطع الحرب العالمية الأولى أن تغير كثيرًا من هذا الوضع. بيد أن الحرب العالمية الثانية قد أشعلت ثورة حقيقية: فقد أصبح الشعب متساويًا وهو صار يعتقد بأنه طالما ساعد في النصر فقد صار له الحق بالتالي في المساهمة بنهضة البلاد والمشاركة بكل فوائدها. ولم يعد الحال كما كان عليه في القديم، حيث لم يكن يصل إلى مقاليد السلطة وتسلم زمام الحكم في البلاد غير تلاميذ الكليات

الأرستقراطية، بل إن هناك رجالًا خرجوا من بين صفوف الشعب وأصبحوا قادة في الاتحادات التجارية وموظفين قدماء في الوزارات. إذًا، فالتغيير الذي حدث هو تغيير كامل، وكل المسألة تتلخص تاليًا في أن نرى إن كان هؤلاء القادة الجدد ستؤطرهم النخبة الأرستقراطية القديمة، وهل سيتثقفون عليها وسينصهرون فيها، مثل الوصوليين الصناعيين في القرن التاسع عشر الذين اندمجوا في طبقة النبلاء الإقطاعيين القديمة.

وعلى الرغم من أننا قد طرحنا هذا السؤال، فإننا لا نستطيع أن نجيب عنه حتى الآن. وكل ما نعلمه هو أن إنكلترا قد عرفت - بحسب تعبير التوراة - بأنها تصب النبيذ الطازج في أوان قديمة!

الفصل الخامس
«الانضباط النظامي» عند الشعب الألماني

تعتبر ألمانيا - أردنا أم لم نرد - قطعة رئيسة مهمة في المجموع الأوروبي، طبعت تطوره المعاصر أكثر من أي بلد آخر. وهي - أي ألمانيا - قارية أساسًا ولها مع أوروبا الشرقية صلة لا نملكها نحن (فرنسا)، خصوصًا وأنها مشبعة كثيرًا بالعناصر السلافية كما لاحظنا قبل قليل. إنها أوروبية خالصة، فهل يسوغ لنا ذلك أن نقول عنها إنها غربية قلبًا وقالبًا؟

إن أي دراسة لألمانيا هي دائمًا في غاية الصعوبة، وعلى الرغم من مظهر القوة الذي تبدو عليه إلا أنها بحق بلد التردد والصيرورة الدائمين، وهي بلد سلبي، بمعنى الاستعداد الدائب لتقبل أي تحوّل أو تبدّل جديدين. وفي صميم الأمر، فإنها على الرغم من عشقها للنظام والانتظام إلا أنها بلد ثوري. وقد جرى تضخيم هذه الصفات بفضل تاريخ ألمانيا الحديث نتيجة لتقلبات أدت إلى كارثة شبيهة بالزلزال الذي أودى نهائيًا بملامح البيئة السابقة. فما الذي يبقى من ألمانيا القديمة في النظام الحاضر الذي لا ندري أي اسم نطلقه عليه، إذ هو ليس ببناء سياسي تام، ولا بكيان إقليمي أو اقتصادي صناعي أو مديني، كما أنه ليس مجموعة مترابطة من العلاقات الخارجية. فما بقي هو الشعب الألماني نفسه الذي دفعت به المحن القاسية نحو هاوية سحيقة، إلا أنه ظل على الدوام حاضرًا بقوة وبأعداد كبيرة.

(1)

ما يصدمنا بداية هو أن الأرض الألمانية تفتقر إلى شخصية جغرافية. ففي ضوء هذا المظهر نقول إنه لا توجد «بلاد» ألمانية، إذ إن الإطار الجغرافي ينقصها، والحدود الطبيعية المتعارف عليها ليست ظاهرة، فلا ندري من أين تبدأ ولا إلى أين تنتهي؟ وبالمقابل، فإن هناك شعبًا ألمانيًا لا يعرف نفسه، ولا يريد في مثل هكذا ظروف أن يتعرف بنفسه إلى حدود ما. إن وحدة هذا الشعب لا تكمن في الرباط الذي يشده إلى أرض ما - كما هو الحال في فرنسا - بل في وعيه أو في الأقل في إرادته في أن يشكل عرقًا متماسكًا له لغته وثقافته وإحساسه بوحدته. إن غريزته الثابتة في أن يفيض عن حدوده، جعلت منه خطرًا دائمًا على جيرانه. ومن هنا نشأت قضية لم تحل حتى الآن في أوروبا طالما أنه يوجد في قلب القارة «ألمانيا» إما «غازية» وإما «مغزوة»، وهي مرنة وعدوانية في الآن نفسه، ولكن لا يمكن من دونها، بأي حال، إقامة أي بناء سياسي أوروبي دائم.

تُقسم ألمانيا إلى ثلاثة أقسام طبيعية تحددها الجيولوجيا، والمناخ، وذلك العنصر اللطيف الذي هو الانحراف الجغرافي نحو الشرق. فهناك ألمانيا الراين، وألمانيا الجبلية المعقدة جغرافيًا في الوسط والجنوب، وأخيرًا ألمانيا السهول الشاسعة الثلجية في الشمال وفي الشرق. القسم الأول من ألمانيا له صبغة أوسترازية (نسبة إلى أوسترازيا) (Austrasie)، في حين يغلب على القسم الثاني الصبغة النمساوية والسويسرية، أما القسم الثالث والأخير، فهو يقترب من الصبغة الروسية. والحال أن التقسيم الأساس يقع معظمه بين غرب ألمانيا وشرقها أكثر مما بين شمالها وجنوبها كما هو شائع. والخط الكبير الفاصل بين اتجاهات متعارضة متباينة والذي يفصل في الحقيقة بين حضارات مختلفة تمام الاختلاف بعضها عن بعض، لا يمثله نهر الماين[1] (Main) على ما هو معروف،

---

(1) ماين نهر في ألمانيا طوله 524 كم، واحد من أهم روافد نهر الراين. يمر خلال ولايات بافاريا وبادن - فورتمبيرغ وهسن.

وإنما نهر الإلب[2] (Elbe). لذا، فإننا نشاهد ونحن على انحدارنا في أرض ألمانيا وفي ظل نظام الرايخ، أن ألمانيا تتشكل من محورين: محور الراين (مع ألمانيا الجنوبية) الذي هو أساسًا من أوروبا الوسطى مع مؤثرات غربية قوية، والمحور البرليني (أو السهول الشاسعة) وهو ينتمي إلى أوروبا الشرقية أكثر من انتمائه إلى أوروبا الوسطى الحقيقية، مع خضوعه لمؤثرات شرقية قوية تسللت بمكر، ليس من الشرق البحري المشرقي أو المتوسطي وإنما من الشرق البري السلافي أو الروسي... وأعتقد أننا نقف هنا عند نقطة مطلة ستسمح لنا أن نحسن فهم السيكولوجية الألمانية بصورة أفضل.

وادي الرين هو بالنسبة إلينا نحن الفرنسيين بيئتنا الحاضنة، حيث لا نشعر بالغربة. في مدينة كولونيا، وفي إقليم البالاتينات (Palatinat)، وفي سلسلة جبال الغابة السوداء، لا تختلف الطبيعة أدنى اختلاف عنها في بلادنا: فنحن أمام أنواع الأشجار نفسها، والألوان نفسها، والمناخ نفسه أيضًا، على الرغم من كونه أكثر قارية (مناخ قاري بري (continental)). وبهذا الجو، فإن «ألمانيا الراين» التي تنتمي بصلة قربى قوية إلى الألزاس وإلى سويسرا وإلى النمسا، تنتمي أيضًا بوجه من وجوه صلة القربى إلى كثير من أقاليم فرنسا الشرقية مثل: اللورين وفرانش كونتي، لا بل حتى البورغوني وإلى حد ما السافوا. وبدءًا من منطقة الأوكسير (Auxerre) نرى الهواء يتلون بلون خفر يجعلنا نفهم أننا غادرنا البلاد الأطلسية/ البحرية واتجهنا نحو قطعة جديدة من القارة/ البرية. فهنا في الحقيقة توجد أوروبا وسطى جارة وشقيقة لأوروبا الغربية يمر محورها بسويسرا والراين، ولكن شخصيتها إلى الشرق حتى مدينة فيينا وإلى الغرب حتى داخل حدودنا، كما أن بعض آثار لها تصل حتى إلى إقليم لومبارديا. فالحدود السياسية لا تمنع وجود وحدة حضارية هنا بيننا وبين الألمان، تتجاوز الحدود، ولكنني كنت أشعر بحقيقتها طيلة طفولتي في إقليم الألزاس الذي ولدت فيه. وتثير كلمة أوروبا الوسطى، مقترنة بمنطقة زمنية، مناخًا جغرافيًا واجتماعيًا، وطريقة

(2) نهر إلب من أهم أنهار أوروبا الوسطى، ينبع من جبال الكارابات في جمهورية التشيك ويخترق التشيك وألمانيا قبل أن يصب قرب مدينة هامبورغ في بحر الشمال بطول كلي يبلغ 1094 كم.

عيش وإحساس وتفكير، خاصة بها، إن فهمنا معناها العميق الخصوصي نكون فهمنا ألمانيا الغربية.

ألمانيا الراين هي تبعًا لحضارتها التقليدية، إحدى المناطق الأكثر أوروبية والأكثر صميمية في القارة. كما أنها، مضافًا إليها ألمانيا الجنوبية، جزء كامل متكامل من الحضارة الغربية، إذ تعبر عنها ومثلها مثل فرنسا أو إنكلترا أو إيطاليا. وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن التأثير الروماني يبدو هنا عاملًا حاسمًا، فقد ترك تأثيره ليس على الشاطئ الأيسر من الراين والشاطئ الأيمن من الدانوب فحسب، وهما حدود الإمبراطورية الرومانية، بل وعلى منطقة الاحتلال العسكري بين الراين والدانوب التي يطلق عليها اسم «الحقول الجرمانية»[3]، وقد تركت روما في كل مكان سيطرت فيه آثارًا لا تمحى: فلم تعد العائلة ولا الملكية ولا الحكومة ولا الفرد، ما كانوا عليه في أماكن أبعد، أي عند الشعوب التي لم تعش قط في ظل نظام «السلم الروماني» (pax romana). ونحن نلمس هذا في وادي الراين وفي ورتمبرغ وفي بلاد بادن[4]، على عكس الحال في أقاليم بروسيا الشرقية. وضمن هذه الحدود نفسها تقريبًا، جلبت الثورة الفرنسية طابعًا «غربيًا»، وإننا لنجد في هذا الطابع حتى اليوم تصورًا للديمقراطية جدَّ قريب من مفهومنا لها، وتصورًا للفرد وللملكية، هي بحق ومن وجوه عدة، غربية. فأي ألماني من الغرب - وخاصة من الجنوب الغربي - يفهم فرنسا والروح الفرنسية أكثر من أي سكسوني أو بروسي. وإذا ما حاولت توضيح ما يميز أوسترازيا هذه، يبدو لي أنه في تنظيم متفوق للراحة المادية، في ما يسميه الألمان الحضارة (civilisation) بمقابل الثقافة (culture)، والمقصود هنا الحضارة المادية: ذلك أنه قبل الكارثة الراهنة (يقصد الحرب العالمية الثانية)، كانت الحضارة المادية، أعني التجهيزات الاجتماعية والتنظيم المدني والتقدم،

---

(3) الحقول الرومانية وكانت تسمى باللاتينية Agri decumates هي القسم الجنوبي الغربي الأقصى من جرمانيا بين الراين والماين والدانوب. هي تطابق اليوم منطقة Baden-Wurttemberg.

(4) بلاد بادن (Baden) منطقة تاريخية وجغرافية في الجنوب الغربي من ألمانيا تشكل جزءًا مما يسمى Baden-Wurttemberg التي يحدها شمالًا الهس (Hesse) وشرقًا الورتمبرغ (Wurttemberg) وغربًا الألزاس وجنوبًا سويسرا.

أكثر تطورًا عندهم مما كانت عليه في فرنسا أو إنكلترا. وكان المرء يشعر مع هذه الحضارة بالسعادة وهناء البال، وبالحرارة في حياته الخاصة المبنية على الراحة المادية العائلية فحسب؛ وذلك كله كانت ألمانيا تعطيه اسمًا لا يمكن ترجمته نظرًا إلى أنه غير موجود فعليًا عندنا: السكينة[5] (gemütlichkeit). وتعرف فرنسا أكثر من ألمانيا أدب الروح وصفاء الحياة الاجتماعية وإشراق جنباتها، بيد أننا كنا نجد قديمًا صوب الشرق (وفي سويسرا حتى اليوم) مستوى عاليًا للحضارة المادية الجماعية التي سبق أن حققتها أوروبا القديمة.

على خلاف ذلك، فإن بيئة ألمانيا الشرقية التي تبدأ حدودها من نهر إلب، أو من غابات توتوبرغر فالد (Teutoburger Wald) التي فقد فيها القائد الروماني فاروس (Varus) قواته العسكرية. وفي طريق باريس - برلين الذي يمر بكولونيا والروهر، يعبر طريق السكة الحديد أبواب وستفاليا التي جمّلها الرايخ بتمثالين تذكاريين للإمبراطور فيلهلم الأول وبسمارك... ويدخل المسافر عبر هذا الطريق مباشرة في سهل ذي تكوين ثلجي شاسع، يمتد دفعة واحدة حتى روسيا وسيبيريا، وهذه البلاد التي تبدأ هنا لم يكن للرومان أن يسيطروا عليها قط. ونحن نترك عند هذه النقطة الغرب الأوروبي المألوف لدينا، لندخل منطقة جديدة، ولا يبعد أن أقول بأنها قارة جديدة، تلك هي منطقة أوروبا الوسطى بلا شك، بيد أن الإنسان يشعر بأننا تجاوزنا درجة واحدة في العرض نحو آسيا بغاباتها وأشجارها الكثة المتكاثفة، وهذه المنطقة عبارة عن سهول شاسعة متشابهة، مسطحة، حزينة، وفقيرة، يشبه الرمل فيها لون رماد الحريق على غرار أحراج التنّوب عندنا (نوع صنوبريات) ما يجعلنا أحيانًا نقارن بينها وبين أراضينا البائرة، لولا أن السماء هنا تظل باردة وكئيبة. وبعد الأشجار الكثيفة ذات المساحات الواسعة من إقليم الراين؛ نلتقي بالفراغ والسكون في بقعة من الأرض لم يفلح عمل الحضارة في أنسنة طبيعتها، فلا يزال فيها شيء من التوحش الذي تولع

---

(5) الـ gemütlichkeit سمة مميزة لجو إنساني عطوف بحرارة ما يعطي انطباعًا بالهناء والراحة. وهي ترادف الاعتدال والأمان والسكينة وعدم الانشغال بالهموم. إنها الهدوء بعد العاصفة. وهي تتناقض تمامًا مع التوتر والخلافات والهموم التي يحملها الإنسان. كما تتناقض أيضًا مع العمل الشاق. لعل أفضل ترجمة لها هي راحة البال أو السكينة.

به الرومنطيقية الألمانية، يقرّب الإنسان من القوى البدائية، ما يجعلنا نستدعي، لغرابة الشبه، بعض سهول مماثلة في أميركا الشمالية. والحق أن انتصارنا على الطبيعة يبدو هنا انتصارًا سطحيًا كما هو الحال في القارات الأخرى، وواجبنا أن نتابع هذا الانتصار كل يوم وكأننا في عملية كفاح. في أوروبا الغربية لا يساورنا أبدًا هذا الشك في انتصار الإنسان على الطبيعة، بل لعل ذلك ما يميز أوروبا أكثر. ومن المفيد أن نذكر هنا على سبيل المثال أن فرنسا قد تحولت حتى في طبيعتها المادية بفضل العمل الدائب (الألفي) للإنسان، بحيث صارت إلى ما يشبه الحديقة. وتصنف ألمانيا الشمالية الغربية ضمن صنف آخر مختلف، فهي من الناحية الجغرافية ليست سوى تخم من تخوم الغرب.

مع ذلك، فإن الغرب هنا، في ألمانيا الشمالية الغربية، هو على طبيعته وروحه الحقيقية - أو في الأقل - كان كذلك حتى ما قبل مؤتمر يالطا والستار الحديد. وهو كان ينهض بين الحين والآخر في شكل مدن فخمة وحديثة إلى حد رهيب، تبدو وكأنها قد أقيمت وأعدت من الفراغ المحيط: تكاثر عظيم ومنظّم في الأبنية الشاهقة ذات النسق الواحد وعلى صف واحد، وهي تذكرنا بالنبت المتسارع والقوي للمدن الأميركية، مع شيء من دقة وصرامة نظام التوجيه البروسي، الواعي والحازم. وفي برلين خاصة - التي تنتصب أنقاضها العظيمة التأثير في صمت كثبان الرمل والبحيرات والغابات - نلمس أفضل من أي مكان آخر، مغزى إبداع وخلق ليس فطريًا عفويًا، إذ هو يمثل توكيدًا للغرب في أراضٍ ليست غربية جغرافيًا، وهذا يوضح بلا شك أحد أسباب الاختلافات الأساسية بين ألمانيا البروسية وفرنسا. ونحن الفرنسيين لا نعرف إلى أي حد نحن متحضرون وأريد بذلك أن أقول: إلى أي مدى فقدنا الاتصال بالطبيعة البدائية كي نصير قبل أي شيء آخر، متكيفين مع كل الظروف؟ والحال أن الألمان حافظوا على هذا الاتصال وهو يمارس على تفكيرهم نفوذًا ومكانة كبيرين. على بضع كيلومترات من برلين يتبقى هناك غابات هي أشبه بغابات روسيا من غاباتنا، والمحيط اللامحدود من سهول الشرق لا يبعد كثيرًا: ونحن نشعر في الجو بقربه وبحضوره، كما نشعر في أقاليمنا الفرنسية الغربية بقرب وحضور المحيط الأطلسي حتى حين يكون بعيدًا لا نراه. ويوحي هذا المكان

بحرية التفكير التي تبحث مخيلتنا عنها حيث البحر والفضاء. وقد دأب الألمان على البحث عنها من ناحية الشرق، في لانهائية «الفضاء» الروسي، حيث كان التوسع الاشتراكي القومي (أي النازي) يعتقد أنه سيجد فيه مثابة له. وينبغي ألا نخدع أنفسنا وأن نعترف بأن نقاط الجذب العميقة لألمانيا لم تكن نحو الغرب، بل نحو الشرق. والتعبير الذي كان يثير معنى الحدود في أذهان الأميركيين - ولوقت طويل جدًا - في سيرهم باتجاه المحيط الهادئ (الباسفيكي)، وجد لدى ألمان الأمس معادله في ذلك المحيط من الأراضي البكر التي تبدأ عند أبوابهم، والتي كان برنامجهم أن ينظموها وأن يستغلوها.

حين نتحدث عن ألمانيا يجب أن نضع نصب أعيننا خريطة الفتوحات الرومانية، ولكن هناك خريطة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها - خصوصًا حين نتحدث عن البلاد التي تقع في شرق نهر إلب - تلك هي خريطة تقدم المسيحية. إذ يتضح من تلك الخريطة أن «الفتح المسيحي» قد بلغ خط الراين منذ القرن الخامس، وخط نهر إلب في القرن التاسع. وأما الإقليم الذي يقع بين إلب وروسيا فقد اعتنق المسيحية في ما بين القرنين التاسع والثاني عشر. ولكن بروسيا الشرقية، وبلاد البلطيق لم تدخل المسيحية إلا في ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر. وهذا يجعلنا نقدّر كم أن مسيحية ألمانيا هي حديثة، في شرق نهر إلب وعلى الأخص في شرق «الأودر». وتملك الروح الجرمانية هنا نبعًا من الشباب لا تملكه فرنسا التي بلغتها الرومانية والمسيحية قبل ما يقارب ألفي سنة. ونحن نملك - في ما يتعلق بالماضي التاريخي - ألفين أو ثلاثة آلاف متر ماء تحت سطح البحر، حيث لا تملك بروسيا الشرقية من هذا القدر إلا أربعمئة أو خمسمئة متر. وقد روى لي وكهام ستيد[6] (Wickham Steed) أنه في أثناء حديثه مع اثنين من أهالي كاليفورنيا، طلب منهما أن يحدثاه عن أقدم مناسبة تاريخية يتذكرانها، فأجابوه بعد لأي أنها تعريفة رئيس الولايات المتحدة ماكينلي (McKinley) (1890). وقد خطر ببالي في محاضرة ألقيتها في برلين في عام 1930، أنه يمكنني ذكر هذا الجواب الموحش، وشبه المفزع بالنسبة إلى

---

(6) هنري وكهام ستيد (1871-1956) (Henry Wickham Steed) صحافي ومؤرخ بريطاني شهير. كان أول من نبّه الرأي العام للخطر الهتلري.

الأوروبيين، وذلك كمثال نموذجي عما هي أميركا. ولكن حدث أن تقدم إلي أحد وقال لي إنني أخطأت حين توقعت ردة فعل مماثلة لردة فعلي عند جمهور المستمعين. وشرح لي أن الماضي التاريخي لبرلين قصير جدًا نسبيًا، وأن أهل برلين يشعرون لأسباب كثيرة أنهم إلى حد ما مثل أهل كاليفورنيا في هذا المقام.

من وجهة النظر هذه، يبدو طابع الدولة الألمانية لنا في ضوء مختلف، كما يبدو كذلك التأثير الذى مارسته هذه الدولة أو حاولت أن تمارسه في كل من أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية. ففي هذه البلاد ذات العمق البربري والانجذاب الشرقي، كان الدور التاريخي للجرمانية هو أن تزرع فيها النظام الغربي. وقد حققت الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية برنامجًا على هذه الشاكلة في دول البلقان، وفي ظل شروط مريحة ومعقولة إجمالًا. وقد أزاحت ألمانيا من جانبها حدود الغرب إلى الوراء (أي إنها توسعت غربًا)، غير أنها فشلت أخيرًا حين تصورت عملها هذا بأنه نوع من الاستيطان للاستغلال، يديره كوادرها باسم تفوقها الخاص. فالغزو جرى لمصلحة أوروبا ولكن الغزاة الفاتحين لم يفتأوا أن شعروا هم بإغراء هذا الشرق وقد تمت لهم السيطرة عليه.

بقدر ما وجدت أوروبا الوسطى نفسها مدعمة في الشرق كما في الغرب بأقاليم تشاركها مصيرها وأهدافها، قامت بدور المحور الذي يقوم عليه توازن القارة كلها. ولكن المد القادم من آسيا قد غطى من جديد تلك المنطقة التي كان الغرب قد استرجعها، بحيث إن أوروبا الوسطى لم تعد سوى «حدود». وبتغيير تموضعها هذا، فإنها لم تعد تستطيع أن تؤدي، في أوروبا مقلوبة رأسًا على عقب، الدور نفسه الذي أدته في الماضي. غير أن ما يبعث على الدهشة هو أن وضعًا جديدًا جدًا كهذا هو في الآن نفسه مغرق في القدم: فحدود الاحتلال الأنكلوأميركي، كما اتفق عليها في «يالطا»، هي على وجه التقريب، حدود إمبراطورية شارلمان نفسها.

(2)

إن الشعب الألماني هو من أكثر شعوب العالم تحدثًا عن أصل العرق الذي ينتمي إليه، بيد أن هذا الشعب ذا العرق الأصيل لم يتوحد إثنيًا، حيث

يعيش في وطنه ثلاثة أعراق تختلف تمام الاختلاف وهم: الجرمانيون، الألبيون (نسبة إلى جبال الألب) والسلاف (الصقالبة)[7].

يشكل العرق الجرماني صميم الشعب، لا بل جوهره إن جاز لنا التعبير. فهذا العرق ينحدر من جرمانيي الغزو الروماني: إنهم الفرنجة والبورغونديون والألامان[8] الذين شكلوا أول حاجز في الغرب. ثم جاء بعدهم في الشمال والوسط قبائل السكسونيين والقوط والفندال، ومن ورائهم تتابعت موجات السلافيين، ثم قبائل الهون - وغيرها من القبائل المنغولية - في روسيا. وحين نرجع القهقرى إلى عشية الحرب العالمية الثانية، قبل عملية الامتزاج الرهيبة التي كانت من نتائج تلك الحرب، نجد أننا نصادف في اتجاهنا من الغرب نحو الشرق، وفي الترتيب نفسه، جرمانيين وألبيين وسلافيين وتتار[9]. وقد تجمعت الشعوب الجرمانية الخالصة في كتل متراصة متكاثفة، في الشمال الغربي على الأخص، ما بين نهر إلب وغابات إقليم ثورنجن[10] (Thüringen) وبحر الشمال. وفي هذه المنطقة بالذات يوجد المجال الحقيقي للعرق المسمى بالشمالي، والذي يشمل أيضًا اسكندنافيا، وفي خارج أوروبا الأجزاء الأنكلوسكسونية من إنكلترا والولايات المتحدة. ولم تتغير الخصال التي يتميز بها الجرمانيون منذ الغزو الروماني، إذا ما صدقنا وصف المؤرخ اللاتيني تاسيت (Tacite) حين

---

(7) السلاف، أو الصّقالبة هم مجموعة عرقية لغوية يتحدثون باللغات السلافية. يستقرون أساسًا في أوروبا الوسطى، وأوروبا الشرقية، ودول البلقان وقاموا في العصور الأخيرة باستيطان آسيا الشمالية. ينقسم السلاف إلى سلاف شرقيين (الروس والأوكرانيين والبيلاروسيين)، سلاف غربيين (البولنديين والسلوفاكيين والتشيكيين) وسلاف جنوبيين (السلوفينيين والكروات والصرب والمقدونيين والبوسنيين والبلغار).

(8) الإفرنج أو الفرنجة أو الفرنكيين هم مجموعة قبائل جرمانية غربية وكانت شكلت ما عرف باسم تحالف القبائل الجرمانية. دخل الإفرنج مناطق الإمبراطورية الرومانية من خلال ما يعرف الآن بألمانيا واستوطنوا المناطق الشمالية من بلاد الغال (حاليًا فرنسا وأجزاء من غرب ألمانيا) مكونين فيها إمارة شبه مستقلة.

(9) التتار (Tartares) مصطلح غربي ملتبس لأنه يضم شعوبًا عدة مثل التتار ومغول أوراسيا ومغول آسيا الوسطى.

(10) الثورنجن (Thüringen) وتسمى رسميًا دولة ثورنجن الحرة، هي مقاطعة في وسط ألمانيا عاصمتها إرفورت (Erfurt) وهي قلب ألمانيا الأخضر نظرًا إلى غناها بالغابات.

يقول: «الجرمانيون قوم مستطيلو الجبهة، طويلو القامة، أقوياء البنية، شقر أو حمر اللون، زرق العيون، وجبلتهم فاتحة». وقد أطلق الكاتب الفرنسي دو غوبينو (سبق التعريف به) عقيدة تفوقهم، وبذلك يكون قد أيّد فكرة الألمان، ومجمل الأنكلوسكسون الواعين، عن قيمتهم وعن الدور العائد لهم في العالم. وطبقًا لهذه الأطروحة لم يعد ساكن الشمال بالضرورة أكثر فهمًا من السلافي أو اللاتيني، لكنه يفوقهما خُلقًا وجدية، وبما يسميه الأميركيون «الشعور بالقيادة» أي حسن الاستعداد للرياسة والسيطرة. ويعد الألماني نفسه - في إخلاص يشوبه شيء من السذاجة - أنه من عرق متسام عن بقية الأعراق فهو يقارن نفسه في فخر إما بالعرق اللاتيني المنحط وإما بالسلافي ذي العرق الأدنى، وحيث يرى أن زعامته عليهما هي أمر عادي لا بل هي في شكل من الأشكال شرعية وتأسيسية.

من الألمان فئة ثانية ليست من الجرمانيين بل من الألبيين، ويوصفون أحيانًا بأنهم من الكلت وهم يسكنون إلى الغرب من (Thuringer Wald)، في إقليم «بافاريا» ومقاطعة «ورتمبرغ» وبلاد «باد» (بالألمانية بادن) وهم قوم صغار الرؤوس، سمر البشرة، وذوو قامة متوسطة، وكلما اتجهنا صوب الجنوب الشرقي نجد قِصَر القامة واضحًا لدى سكان هذه الجهات، حيث يقتربون في قصر القامة من النمساويين والسويسريين وسكان إقليم «أوفيرني» في بلادنا (Auvergne). وحين نتجول في ألمانيا نندهش بشدة من ذلك العدد الكبير من الناس الذين نلتقي بهم والذين ليسوا على الظاهر من الشماليين. ولكن ذلك لا يجعلهم لا يشعرون بالفخر والاعتزاز بجرمانيتهم، ولو أنه من الوجهة العنصرية ليس هناك ما يسمح لهم بذلك.

هناك ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي أن ألمانيا في الواقع أكثر سلافية مما قد نظن عادة. فقد احتل السلاف (الصقالبة) في غزواتهم في ما بين عامي 400 و700 بعد الميلاد ألمانيا الشرقية كلها ووصلوا حتى نهر إلب، وبذلك وجدت الأراضي الحالية لبروسيا الوسطى والشرقية و«سيليزيا» و«ساكس» وجدت نفسها مختلطة بالدم السلافي، مع «البوروس» «بورسيا الشرقية» والليك (بولندا) والفاند (شرق برلين) والسوراب (ساكس). ولم يحدث إعادة فتح

هذه البلاد غير الجرمانية على يد الجرمان قبل القرون الوسطى، وكان الفرسان التوتونيين عناصر تنفيذ هذا الاستعمار ذي الأسلوب الراقي، وذلك من خلال إقامتهم للمراقي (marches). وقد أصبح «البوروس» الذين اعتنقوا المسيحية بعد الوثنية هم البروسيين. وقد تحدثنا آنفًا عن روح هذه السياسة وطابعها: فألمانيا قد تغيرت الآن في حقيقة مظهرها نفسه، كما لو أن ذلك جرى بتأثير طابع قوي. وحين كنا نعبر بالأمس حدود هذه المنطقة - لأن تيارًا مضادًا هو في طريقه لمحو هذه الآثار الزمنية - التي تطالب الإدارة البروسية باستردادها، كنا نشعر بأننا قد انتقلنا بخطوات قليلة من قرن إلى قرن ومن حضارة إلى أخرى: هنا عند هذه النقطة ينتهي الغرب، وكان بالإمكان وضع علامة ترسم حدود هذا الخط الذى أُنشئ بواسطة الرومانيين على طول حدود إمبراطوريتهم (limes). ومع ذلك، فإن الوجود السلافي في هذه البلاد ظل أمرًا خفيًا باطنًا، وحتى الغزاة أنفسهم لم يشعروا بتسلله إلى داخلهم في «سيليزيا» و«بروسيا» وصولًا إلى «ساكس». ونحن نكتشف هذا الوجود من خلال الكلمات الكثيرة التي تنتهي بـلاحقة إتز (itz) أو إتزا (itza) وفي أسماء العلم حاملة اللاحقة «Ow». كما أن سيكولوجية الشعب نفسها تأثرت بهذا الوجود. فيا لتلك المرونة الهاربة أحيانًا خلف جلافة ابن برلين، وكم هي القربى كبيرة بين لهجة البروسي حين يتحدث الفرنسية ولهجة البولوني أو الروسي! وكم من التردد خلف ستار من الصلابة المخادعة. ونحن نشعر أن ألمانيا الشرقية هذه ما هي إلا عبارة عن بنيان فوقي جرماني قائم على عمد قوية تخفي تحتها مستنقعًا صقلبيًا.

ولا يكاد يخرج التأثير الشرقي في هذه المنطقة عما ذكرنا آنفًا، إذ إن علينا أن نتحدث أيضًا عن اليهود على الرغم من هذا السيل العارم من الاضطهاد الهتلري. ونستطيع أن نميز هنا بسهولة بين حركتين: الأولى حركة اليهود الذين «تغربوا» (صاروا غربيين) في القرن التاسع عشر: يهود «فرانكفورت» خصوصًا وهم رجال مال من أعلى الطبقات، اندمجوا في الاقتصاد الأوروبي؛ ويهود برلين أيضًا الذين قبلوا في الحلقات الرسمية للإمبراطورية وهم الذين تكاثر عددهم بعد عام 1871. وقد رمز إلى تكاثر عدد اليهود بإطلاق البرلينيين في عام 1895على شارع المنظر الجميل (Bellevue Strasse) اسم «شارع ليفي

الجميل» (Bel Levy Strasse)، ولا يفوتنا أن ننوه بالدور الكبير الذى أداه اليهود في العمليات المالية في ظل حكم بسمارك. من جهة أخرى، فقد انتشرت موجة جديدة من اليهود في ألمانيا عامة وفي برلين خاصة، وذلك نتيجة للحرب العالمية الأولى. وقد كان هذا الجمع من اليهود أشبه بقوم من الغريبين (exotiques) الذين كانوا أقل احتكاكًا بالغرب هذه المرة، وكانوا يشبهون إلى حد كبير الغزو اليهودي النيويوركي.

غير أن ما كان مثيرًا للاهتمام هنا هو أن نشاط هؤلاء الجدد الذين كانوا أصحاب سطوة في ظل جمهورية فايمار[11] (Weimar)، لم يقتصر على الجانب المالي كما في السابق، بل صرنا نجد هذا النشاط إلى حد ما عند تقاطع الطرق ما بين المال والعقل. فقد صاروا يمتلكون عددًا وفيرًا من دور السينما والمسارح والصحف والمتاحف، وحتى مهنة الطب. وبفضل هذا التدخل التلميحي الذي يتدرج من أطروحة الفن الطليعي إلى الإعلانات المالية، فإلى الدعاية للشيوعية، فإن حضورًا خفيًا حاذقًا للسوفيات صار ملموسًا نوعًا ما في العاصمة الألمانية التي كانت بعض ملامحها غير الغربية، والروسية الخفية، تبرز بغرابة. وكان بعضهم يقارن برلين بنيويورك قبل الحرب، وهذه المقارنة ليست خاطئة من حيث الظاهر، ولكن يبدو أن الأمر كان بالأحرى السير خطوة مرحلية نحو روسيا البلشفية. وكان الأمر ليكون أكثر صدقية حين نتحدث عن إحدى العواصم - المصافي مثل برسلاو في بولندا، وهي الآن مدمرة تمامًا، وقد كانت بالنسبة إلى اليهود مرحلة تدريبية للتكيف مع الحياة الألمانية. وهذه العاصمة الغربية جدًا وبشكل عدواني في إطارها الخارجي، كانت تخفي في نفسها بذورًا خداعة من الشرق بسبب وجود اليهود فيها على الأغلب.

(11) جمهورية فايمار (Weimar Republik) هو الاسم الذي أعطاه المؤرخون للنظام السياسي الذي أقيم عام 1918 في ألمانيا واستمر حتى 1933. نشأت هذه الجمهورية بعد ثورة 1918 التي أعقبت انكشاف هزيمة ألمانيا في الحرب الأولى. صوت البرلمان الجديد المسمى الجمعية الوطنية التأسيسية على دستور الجمهورية في 31 تموز/يوليو 1919 في مدينة فايمار التي أعطت اسمها بالتالي لكامل الحقبة التاريخية التي استمرت فيها الجمهورية في حين استمرت الدولة تحمل اسم الرايخ الألماني كما كان الأمر في ظل الإمبراطورية.

جلبت كل هذه الظروف مجتمعة الاضطهاد المعروف الذي حدث في ألمانيا: فالتربة الألمانية والتربة اليهودية كانتا مهيأتين لوقوع مثل هذا الاضطهاد الذي ليس له نظير، ومع ذلك فليس في إمكان المرء - حتى في يومنا هذا - أن يتجاهل أثر الخميرة اليهودية في تكوين ألمانيا. وقد أشار بسمارك إلى هذا الأمر، ليس من أجل التأسف عليه فحسب، حيث يقول: «لقد جلب اليهود في امتزاجهم مع بعض الأعراق الألمانية شيئًا من فوران الرغوة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نحتقره». ولا يقوى الفرنسي من الناحية الغريزية على فهم اليهودي لأنه تنقصه القدرة على اكتساب مودته والظفر بمحبته عند الاتصال به، ولذلك فإنه غالبًا ما يخطئ حين يعتبر بعض الخصال اليهودية الصرفة على أنها جرمانية. والواقع أن اليهودي الألماني ليس تمامًا مثل أي ألماني غير يهودي حتى لو تكيف واندمج وصار فوق مستوى الألماني الجرماني نفسه، ذلك أنه لا يتخلى عن الشعور والتفكير والتعبير بروحه اليهودية الأصلية: فأسلوبه وطريقة تعبيره وصياغة جمله، وطريقة تحليله العقلي ومناقشته القضايا والبرهنة عليها، تختلف تمامًا مع وضوح في الفكرة وضوحًا تامًا عالميًا لا هوية قومية لها ما يجعلها أكثر قربًا من أفهامنا (نلمس هذا على سبيل المثال في مؤلفات هاينرش هاينه[12] (Henri Heine)، وإميل لودفيغ (Emil Ludwig))[13]. والحال أن العنصر

(12) هاينرش هاينه (1797– 1856) (Christian Johann Heinrich Heine) شاعر وناقد وصحفي ألماني شهير ويعد من أهم الشعراء الألمان الرومنطيقيين. ولد في مدينة دوسلدورف في ألمانيا من عائلة يهودية كانت تمارس التجارة. بعد تلقيه تدريبًا في مهنة التجارة في مدينة فرانكفورت، درس هاينه القانون في مدينة بون ومدينة غوتينغن ثم في مدينة برلين. وفي سنة 1825 نال درجة الدكتوراه في القانون، وكان قبل ذلك قد اعتنق المذهب البروتستاني. وفي عام 1831 غادر الشاعر هاينه ألمانيا بسب الأوضاع السياسية السائدة آنذاك. واستقر في باريس حيث اشتغل مراسلًا صحفيًا لجريدة *Augsburger Allgemeinen Zeitung*. خالط هاينه فيكتور هوغو وأونوريه دو بلزاك وصادق كارل ماركس. وابتداءً من سنة 1835 جرى منع تداول كتاباته داخل ألمانيا. لحن فرانز شوبرت وروبرت شومان ويوهانس براهمس معظم قصائد هاينه وأغانيه.

(13) إميل لودفيغ (1881-1948) (Emil Ludwig) اسمه في الأصل إميل كوهن (Emil Cohn) كاتب ألماني ولد في بريسلاو (Breslau) وهي توجد اليوم في بولندا، من أسرة يهودية... تخصص في كتابة السيرة الذاتية لعدد كبير من القادة السياسيين والشخصيات التاريخية وبعض المفكرين. كتب المسرحيات والرواية، وعمل أيضًا صحفيًا خصوصًا خلال الحرب مراسلًا أجنبيًا ما بين برلين وفيينا واسطنبول. أجرى مقابلات تاريخية مع موسوليني ومصطفى كمال أتاتورك ولينين وستالين وكتب سير نابليون وغوته وبسمارك وستالين وحتى سيرة السيد المسيح.

الإسرائيلي نما إلى حد أصبح فيه جزءًا لا يتجزء من «التركيبة» الجرمانية، بحيث غدا من المقبول أن لا نضيع في الأمر. وعلى ذلك فقد صار «مركز جاذبية» سيكولوجية الشعب الألماني، في ظل كل من الإمبراطورية وجمهورية فايمار على السواء، موزعًا بين الشرق والغرب. والحق أن وجود ألمانيتان اليوم بأعراقهما المتشابكة المتداخلة لا يغير من وضع المسألة المذكورة هنا.

تتمخض عن هذه الملاحظات ذات الطابع الإثني نتيجتان مهمتان: النتيجة الأولى هي أهمية العرق في تصوّر الأمة لنفسها. فبالنسبة إلينا - نحن الفرنسيين - الأمة هي حضارة على أرض محددة وليس أي أرض غيرها. أما ألمانيا فتصورها لنفسها يقوم على كونها عرقًا أكثر مما هي أرض وحدود. فالمصير الجرماني هو مصير الجرمانيين، على عكسنا نحن، إذ لا نتخيل أنفسنا نقول إن مصير فرنسا هو مصير اللاتينيين أو الكلت أو الفرنكيين. إذًا ها هنا شيء من السلطان في هذه الإرادة التي يحملها عرق للسيطرة ولتنظيم أعراق أخرى يعتبرها أدنى منه عرقيًا. والشعور بالمساواة بين الأعراق البشرية المختلفة - وهو شعور طبيعي في نظر الفرنسيين - يظل غريبًا على الروح الجرمانية. ولعل هذه هي العقبة الأكثر خطورة التي وقفت في وجه استتباب السلام الدائم في أوروبا، وخصوصًا في أوروبا الشرقية: فلو كان الجرماني اعتبر السلافي متكافئًا معه في سلك الدرجات العرقية للقارة، لاتخذت المشكلة في أوروبا وجهًا آخر.

النتيجة الثانية، هي أن الألماني الذي ليس بالغربي تمامًا وليس بالشمالي تمامًا، لديه القدرة على الاتصال والتعامل مع روسيا لا نملكها نحن على أي مستوى. فهو تاريخيًا على تماس مع العالم الروسي، حتى مع وجود بولندا بصفتها منطقة فاصلة بينهما، وهو لذلك قريب ماديًا من الجو الروسي؛ فهذا الجو ليس بغريب عليه حتى لو أنه كان على الدوام يشعر بالخوف من هذا الجار البربري. هكذا يمكن تفسير التأثير الألماني في بطرسبورغ أيام حكم القياصرة، وفي موسكو من بعدهم. وقد كان من نتيجة هذا الاحتكاك الطويل المدى أن أصبح الألماني على معرفة جيدة بكيفية التعامل مع شرقيي أوروبا هؤلاء أو غربيي آسيا أولئك، خصوصًا وأنهم كانوا يتعاملون معه طبيعيًا، لأنه كان مناسبًا، ليس بصفته تقنيًا فحسب، وإنما كونه وسيط أعمال وعميلًا وموظفًا كذلك. وقد

كان لدى حكومة القياصرة العديد من كبار الضباط والسفراء والوزراء الذين كانوا أساسًا ألمانيين بكل بساطة. وحين تحدث بسمارك في مذكراته عن أيام سفارته في روسيا، ذكر كيف أن هؤلاء الروس (الألمان) - أعضاء السفارة - كانوا أكثر فاعلية من غيرهم. أنا أعرف أن الروس والألمان لا يحبون بعضهم بعضًا (ولا يوجد سبب كي يحبوا بعضهم بعضًا) ومع ذلك فقد كان هناك دائمًا بين البلدين تواطؤ غامض ناتج، إلى حد مثير للقلق، عن نوع من القرابة البعيدة.

لكن كيف منيت ألمانيا بهذا الفشل الذريع مع كل ما تملك من ثروة كبيرة في عناصرها الإثنية؟ إن انصهار هذه العناصر بعضها في بعض أو بالأحرى اندماجها الطيّب، لم يحصل فعليًا، وكان كل واحد من هذه الأعراق يعمل بحسب ما يرى أو بالأحرى ما يهوى، فأصبح بذلك عاملًا من عوامل بث الفوضى والدمار. وقد نشأ عن لقاء التواصل اللاتيني مع الجدية الجرمانية ظهور قوة خارقة في التحليل عند الألمان. وقد أدى العنصر البروسي دورًا كبيرًا في تكوين القدرة العظيمة على التنظيم لدى هذا الشعب، كما غرس فيهم العنصر الصقلبي نوعًا من التصوف، ولكن أيضًا غياب الاتزان والاعتدال، بحيث إن كل هذا النسق مات في النهاية. وكان كل عنصر من هذه العناصر، الرائع بحد ذاته، يخرج من حيث لا نحتسب، وبالتالي فلم يكن هناك تآلف صحيح وإنما تجاور متفجر.

(3)

كلنا يعرف مسرحية بيرانديلو[14] (Pirandello) المعنونة **ست شخصيات تبحث عن مؤلف**؛ هذه الشخصيات موجودة افتراضيًا، غير أنه ينقصها الشكل

(14) لويجي بيرانديلو (1867-1936) (Luigi Pirandello) روائي ومسرحي إيطالي ألّف مئات القصص القصيرة وحوالى 40 مسرحية، معظمها مقالب هزلية ضمن المسرح العبثي. في عام 1925 عينه موسوليني مديرًا فنيًا ومالكًا لمسرح الفن في روما (Teatro d'Arte di Roma). وصف نفسه بالقول: «أنا فاشي لأنني إيطالي». دعم موسوليني له جعله يدور العالم من لندن إلى باريس إلى فيينا وبودابست وبراغ إلى ألمانيا إلى الأرجنتين فالبرازيل... وبسبب خلافاته مع زعماء فاشيين معروفين انسحب من الحزب عام 1927 ممزقًا بطاقته. نال جائزة نوبل للآداب 1934. أيد ضم إيطاليا للحبشة وأعطى جائزة نوبل التي نالها للحكومة الفاشية كي تقوم بتذويبها لمصلحة حملة الجيش الإيطالي في الحبشة. كان آخر إيطالي ينال جائزة نوبل حتى عام 1997. وبيرانديلو هو صاحب نظرية خيانة الممثل للنص التي تركها لاحقًا لمصلحة نظرية تماهي الممثل مع شخصية الدور الذي يؤديه.

الذي يقوم عليه الوجود الحقيقي، والذي لا يستطيع منحها إياه غير تدخل خارجي فحسب. وهذه هي حالة الروح الألمانية الغنية بطاقاتها وإمكاناتها والتي لا تتطلب غير التعبير عن نفسها، وإن كانت مع ذلك جادة دائمًا في البحث عن شكل لا تجده إلا في الخارج؛ أي في عجزها عن أن تستمد شكلها هذا من داخل نفسها. وفي حين يُعبّر الفرنسي عن نفسه بشكل شبه كامل من خلال حضارته، نجد أن ألمانيا وفي سلسلة من التحولات التي لا تتكشف أي واحدة منها في النهاية عن أن لها خاصية البقاء، تظل على الدوام في حالة تغيّر. بعضهم سيقول إنها حالة مَرَضية، لكنني أعتقد أن الألمانيين يشعرون - في العمق - بميل خفي نحو هذا التردد في البت في الأمور مما يدع لهم أبواب المستقبل مفتوحة - كما يعتقدون - حتى لو كانوا في هوة سحيقة.

لكل من الشعب الفرنسي والشعب الألماني تصوّران فلسفيان ومزاجان خاصان يفصلان تمامًا بينهما، من حيث إن الأول يمثل وجهة النظر الستاتيكية (الثابتة)، والثاني يمثل وجهة النظر الدينامية (المتغيّرة). فالثابت عند الفرنسي هو الأمر المتحقق، المنتهي، في حين يرى الألماني في المتحقق والمنتهي ما هو كامل: ولعل هذا الشيء كامل، ولكنه حينذاك لا يعود قابلًا للتحول في نظره، وبالتالي فهو ميت، من دون نفع. في حين أن الدينامي على العكس من ذلك يمثل بالنسبة إليه جوهر الحياة نفسها، التي هي حركة: فهو تيار جارف لا يعرف له اتجاه ولكنه يجرفك معه ويجعلك تتواصل مع قوته بنوع من نشوة السكر الصوفية. ونحن نعارض بقولنا إن هذا التغيّر المستمر يظل إلى الأبد افتراضيًا. ولا يمكن حل سوء التفاهم هذا والمتعلق بالمعنى المزدوج المتناقض للكلمات نفسها، إذ إنه يتعلق بتصورين متعارضين لمعنى الكينونة و(الوجود).

التصور الألماني للفرد يختلف عن تصورنا نحن الفرنسيين. فنحن نعترف أن الألماني يحيا حياة روحية جادة وعميقة وإن كانت مضطربة وكامنة جيدًا في أغوار نفسه، بحيث إنه لا يستطيع التعبير عنها. والمقصود بهذه الحياة الروحية «تَقْوى» مركّزة، متحررة من كل تضامن مع الحركة والنشاط (التي تتركها للسياسة)، وهي شعور شبه صوفي يميل بقوة إلى الحلولية ووحدة

الوجود، وبالاتصال الحميم مع الطبيعة ومع القوى الأولية للهواء والأرض. ويعجز التحليل والكلمات عن التعبير للخارج عن حالة نفسية مشابهة كهذه، فإذا ما أراد الألماني أن يعبر عن حالته النفسية هذه فإنما يكون ذلك من طريق وسائل أخرى غير التحدث عنها بالكلام، كالموسيقى والغناء مثلًا، أو بالهيجان الجماعي والضبابي لحماسة يمكن وصفها بأنها ديونيسية، وأحيانًا أخرى يكون ذلك حتى من خلال الصيحات واللعنات، وهذا كله يفسر التأثير العجيب على نفوس المستمعين الذي حملته بلاغة الخطب الهتلرية التي كانت غالبًا غير مفهومة وإنما تحمل سحرًا قويًا. ويعتبر النثر الألماني - بوصفه وسيلة للتعبير - أداة متواضعة: فهي ثقيلة، مشوّشة، تدور بصعوبة حول الموضوع الرئيس. ولكن الشعر الألماني رائع عظيم وإن كان يصعب ترجمته إلى لغات أخرى، وهو يخاطب مباشرة الكينونة بذاتها. إذا كان لزامًا على الفرنسي أن يبحث في تجربته الشخصية عن حالات نفسية تشبه تلك التي عند الألماني، فإنه قد لا يجدها إلا في فترة طفولته الأولى، قبل أن يفعل العقل فعله في بناء ذلك الوعي القاسي الجاف.

نحن لا نرى هذه الحالة النفسية لدى الألماني إلا في القليل النادر - وفي كل ما نستطيع أن نراه من نفسية الألماني، فإن ما يثير دهشتنا هو خلوه من الشخصية وفراغ نفسه بمعنى ما. وقد كتب جاك ريفيير[15] (Jacques Rivière) يقول: «لندرسهم من أول نشأتهم قبل أن تصبح الإرادة الحديد التي اكتسبوها جزءًا من حياتهم، إنهم نكرات، لا يرغبون بأي شيء ولا ينتظرون أي شيء ولا يدّعون أي شيء!»[16] ومن هنا كانت تلك النتيجة التي جعلتهم قوة افتراضية، مفتوحة على شتى الإمكانات، وبالتالي متوفرة، وأساسًا مرنة. ولذلك، فإن أي حكومة تستطيع أن تصنع ما تشاء من هذا الكائن الذي لا يقاوم. ويوجد هاهنا بالنسبة إلى الدولة، وإلى أولئك الذين يمسكون بمقاليد الحكم فيها، إغراء

---

(15) جاك ريفيير (1886-1925) (Jacques Rivière) رجل آداب وفكر فرنسي أسس المجلة الفرنسية الجديدة (*La Nouvelle Revue Française*) (1919-1925).

(16) Jacques Rivière, *L'Allemand. Souvenirs et réflexions d'un prisonnier de guerre* (Paris: Gallimard, 1918).

رهيب، يضاعف من أثره أن الألماني إذا كان لا يعرف ماذا يريد، فإنه يريده بقوة من حين يريدها شخص آخر له. ويقول جاك ريفيير أيضًا: «إن الإرادة تحل محل كل شيء عنده ونحن نجدها في كل مكان، وهي تملأ حتى الشر الذي يجري على يديه، وقد تكون هي الخاصية الوحيدة التي ترشده وتلهمه في حياته». وفي كل مرة تنطلق فيها مثل هذه الإرادة، فإنها تجمح ولا يعرف لها حدود، إذ تخدمها الوسيلة الأكثر فاعلية. والفريد هنا أن الصفات التي تفاخر بها ألمانيا هي صفات التلميذ الجيد: ففي مقابل الفرنسي «الخفيف» يتفاخر الألمان بالدقة والمثابرة (fleissig) أي بإنجاز الأعمال حتى النهاية والتمام. وقد يتملكنا في بعض الأحيان الشعور بأن حب العمل، والعمل البسيط، والعمل للعمل، فيه شيء من المرض، وأنهم يلجأون إليه لملء فراغ خِلقي وراثي أكثر من الرغبة في الإنتاج. وعندما تسيطر الطريقة والمنهج على روح جرمانية، فإنها تستحوذ عليها بالكامل، فيصير الألماني حينها مخلصًا لهدفه، موضوعيًا في عمله بالكامل، لدرجة أنه إذا أطلق له العنان مرة، فإنه يمضي في طريقه لا يلوي على شيء غير معتمد إلا على طريقته الخاصة، وبهذا يصبح نوعًا ما وكأنه هو نفسه العمل الذي يجدُّ في متابعته، متحررًا من كل حكم مسبق، ومن كل قيد أخلاقي، ويكون منطقيًا مع نفسه في ذلك إلى حد الشراسة والتوحش. وهذا يفسر لنا لماذا يبدو رجلًا ثوريًا في بعض أعماله، وإذا عددناه رجلًا محافظًا، فإننا نخطئ تمامًا في فهم طبعه الحقيقي. فهو في كل ما يقوم به مثال الرجل الطليعي بحق المستعد لدمج كل الانقلابات وكل نوبات الجنون الشاذة في إطار من النظام: أكان ذلك حين يدعو إلى التكعيبية في الرسم، أو حين يدافع عن الإجهاض، أو ينظم الولادات الموجّهة، أو حين يعيد تنظيم الدولة أو يهتم بترتيب الانحرافات الجنسية وفق التسلسل الأبجدي.

مع ذلك فإني أضع «الموضوعية» في المقام الأول من صفات الرجل الألماني، وقد كتب إلي يومًا مفكر ألزاسي (نسبة إلى مقاطعة الألزاس) نافذ البصيرة وعلى دراية تامة بأوروبا الوسطى، في رسالة خاصة، تفسيرًا للموضوعية الجرمانية (sachlichkeit) حيث يقول: «إن مفتاح هذا في كلمة واحدة ذات قوة

سحرية هي: الاقتصاد (wirtschaft). وإذا كان الكاتب الفرنسي: شارل مورّاس[17] (Charles Maurras) يقول: «السياسة أولًا»، فإنني أقول بالنسبة إلى الألماني: «الاقتصاد أولًا». ففي السياسة الداخلية كان الحل الموفق لقضاياها في عام 1934 هو حل فون شلايخر (Von Shleicher) أي التعاون المباشر بين الزعماء والنقابات. ولكي نفهم الخُلق الألماني الذي هو نصف فردي ونصف جماعي، يجب أن نرى العمال حين يجتمعون للتشاور في نقاباتهم ورجال الأعمال حين يجتمعون للتشاور في اتحاداتهم. وإذا كانت النظم الاقتصادية المناقضة: كأنظمة فيلهلم الثاني (فتوحات بطبل وزمر) وأنظمة النازيين، هي تشويه لطبيعة ألمانيا، وإذا كانت ألمانيا قبلتها لا بل تحمست لها في بعض الفترات، فيجب ألا نخدع أنفسنا بالمظاهر؛ ذلك أن ألمانيا كانت تعتقد أنها تستطيع - عبر قوة الجمهور العام - الوصول إلى «سياسة الاقتصاد». ولا أدري كيف نترجم هذه الكلمة الألمانية (wirtschaft)؟ فهل هي الاقتصاد؟ كلا لأن هذه تعني مقولة عقلانية! إذ لا يتعلق الأمر هنا بالتملك على الطريقة اللاتينية، ولا بالفائدة وتكديس المال في سندات وريوع أو بالورثة على الطريقة الفرنسية (مع كل الجهد المبذول في فرنسا لهذا الغرض) ولا بالاستمتاع على الطريقة الفينيسية (نسبة إلى فينيسيا/ البندقية). فلنأخذ عوض ذلك تلك الكلمة الألمانية الأخرى (sachlichkeit) وترجمتها الحرفية: معرفة الشيء، الشيئوية، أو الجوهرية (مذهب فلسفي يقول بوجود أشياء قائمة بذاتها أي جواهر). إنها قرابين لا إنسانية إلى حد كبير، يقدم فيها الشخص، الأفراد كما الجماعات، أضحية للأشياء... هذا هو قانونهم الصارم والذي يذهب بهم في أغلب الأحيان إلى أبعد مما نتصور في القساوة والدناءة، إذا طلبت الأشياء ذلك!» (انتهت الرسالة).

إن ما ينقص هذا المفهوم هو روح القسط والاعتدال وهي من شروط الحكم العقلي. ومن الخطر أن نطلق العنان لثوران هذا الإنسان الذي ليست

---

(17) شارل مورّاس (1866-1952) (Charles-Marie-Photius Maurras) مؤلف وروائي وناقد فرنسي كان أحد قادة ومفكري حزب «العمل الفرنسي» (*Action Française*) وهو حزب ملكي معاد للبرلمانية ومضاد للثورة. وقد أثّرت أفكاره في التيار الكاثوليكي وفي القومية الأصولية. كان منظّرًا سياسيًا وصاحب تأثير ثقافي قوي في مطلع القرن العشرين ممهدًا في بعض نظراته وأفكاره للفاشية. له عشرات المؤلفات.

لديه عاطفة، لأن ثورانه نفسه هو العاطفي فيه، وكثيرًا ما قيل إن الألماني تنقصه الحصافة والذوق. وقد تخرجه دقته (grundlichkeit) عن جادة الطريق فيسقط بسهولة متساوية ما بين الضخم جدًا والصغير جدًا (ما بين الإفراط والتفريط) فينهار توازنه كما ينهار إحساسه العام ناهيك بإحساسه الخلقي. وقد رسم بول موران (Paul Morand) في كتابه ليلة شارلوتنبورغ (*Nuit de Charlottenbourg*) صورة حية لهذا الجانب من الروح الألمانية، فقال: «للألمانيين ولع شديد بالاستعلام والحاجة إلى التحليل. ولكن معلوماتهم تكون خاطئة لكثرة التفاصيل الزائدة، وتحليلاتهم تكون نتائجها مضطربة على الرغم من دقة وثقة الوسائل، وسبب ذلك هو التوتر كلما اقتربوا من نهاية النفق أولًا، وعمى البصيرة ثانيًا، بحيث إنهم يصلون أمام الحقائق الأولية وهم في حالة سيئة».

هذا العجز عن الاختيار، وهذا الغياب الأساس للضبط الداخلي يشكلان أخطر عيوب الألماني، وقد قال موريس بارّيس عن نابليون إنه كان «طريقة منهجية في خدمة شغف عاطفي». وقد نقول مثل هذا القول عن الألماني الذي ظل خارج الإمبراطورية الرومانية فلم يرث مثلنا نحن النظام الكلاسيكي. وقد قال لي رجل سويسري كبير اختلط بالألمان طيلة حياته وهو يصف الألماني: «إنه رجل كفؤ قادر (tüchtig)، داهية مكّار (gerissen) متمرس في الأعمال، غير أنه في نهاية الأمر رجل غبي (aber...dumm). ولعل هذا ما جعلنا نتساءل كيف أن الدولة الأكثر فاعلية والجيش الأقوى في العالم، قادا في نهاية الأمر هذا البلد إلى الهاوية.

(4)

التقينا في بحثنا هذا حتى الآن على صفات مثيرة للانتباه: الضمير والجدية والمثابرة في العمل. ولكن إذا أخذنا في اعتبارنا التصورات الأخلاقية لألمانيا، فإننا نرجع القهقرى مشدوهين كأننا في مواجهة هاوية. فما يميزهم تمامًا هو نظرة تشاؤمية إلى العالم.

لا أحد هنا استطاع أن يطبع ألمانيا بطابعه مثل لوثر الذي يقول إن قوانين

العالم سيئة في مصدرها، وإن الطبيعة قد وقعت في أيدي الظلم والشر. وفي عالمنا الأرضي الذي تقام فيه الدولة لا يوجد قانون غير القوة، ولا يمكن والحال كهذه تطبيق الإنجيل كما هو. ويمكن للقديسين أن يعيشوا في ما بينهم في مجتمع روحي مطالبين بالاستقلال الصوفي للروح؛ لكن في هذه الدنيا على الأرض يحكم الأمير الذي أخذ عن الله حق استعمال السيف والتعهد بالمحافظة على حياة الدولة طبقًا لقواعد لا علاقة لها بالأخلاق، ولكن أرادت العناية الإلهية أن تكون كذلك. إذاً سيكون الرجل المسيحي خادمًا للدولة في أمورها الزمنية من دون أن يأمل في تهذيب أخلاق مجتمع خارجي، جوهره وكيانه كله يقومان على الشر. فهذا التصوّر الذي يعتبر تصورًا صوفيًا من الناحية الدينية وكلبيًا من الناحية السياسية، يجعل من الرجل المؤمن فردانية روحية مستقلة، ولكن يحيله على أن يكون في المدينة مجرد إنسان متواضع سلبي.

تعتقد ألمانيا إذًا أن السياسة يجب ألا تسير وفق طريقة تشبع رغبة الواعظ الأخلاقي: فهي لها هدفها الخاص ألا وهو حياة الجماعة. والقوة – في نظرها – لا هي أخلاقية، ولا هي منافية للأخلاق، إنها القوة فحسب. ويبدو للعقل الجرماني أن إقحام الأخلاق في مجال السياسة شيء لا معنى له. وقد لمست من خلال تجاربي في محادثاتي الخاصة أيام فايمر أن الألماني أيًا كان، لا يعتقد أن القوة لن تتوقف عن أن تكون العامل الحاسم في تنظيم الأعمال الإنسانية أبدًا. وهو يتقبل هذا الواقع من دون مناقشة وببساطة. أفليست هذه قاعدة اللعبة؟ وهو يخضع أمام الظواهر الحقيقية للقوة المادية، ما يذكرنا بخضوع الشرقيين؛ وهذا ما يمكن تسميته باللون الخاص بالألماني من الـ Nitchevo (كلمة روسية تعني: لا شيء مهم، امض في سبيلك) التي لا تدوم على كل حال إلا بقدر تغلّب حقيقة القوة المعادية وفرضها نفسها عليه. ومن ذلك، فإن المثالية الإنسانية للحق أو السلام لا تعدو بالنسبة إليه عن أن تكون نفاقًا أو سذاجة.

وجهة النظر هذه هي وجهة نظر ألمانيا ليس في العلاقات الخارجية فحسب، بل وفي السياسة الداخلية أيضًا. وليس هناك أبدًا في ما وراء الراين مفهوم عن الفرد المواطن الذي له «حقوق»، على مثال ما نجده في «تصريحاتنا»

الكلاسيكية، وحاملًا في ذاته جوهر معنى السيادة، اللهم إلا في بعض أقاليم الجنوب الغربي من ألمانيا التي تأثرت بروح الثورة الفرنسية. وإذا كان هناك من ديمقراطية، وهي قوة لا يمكن أبدًا تجاهلها، فإنها لا تعبّر عن نفسها إلا في مجتمع المدينة أو المجتمع التعاوني على طريقة العصور الوسطى، وتكون هذه الديمقراطية حينذاك تصدر عن تلقائية وعن معنى للحرية الجماعية، ربما يكون أكثر تطورًا مما عندنا. أما عن الدولة، فإنها من جوهر آخر. ويكفيها كي تظل دولة أن تعلن عن نفسها وأن تمارس قوتها. وهذا هو أسلوبها الحقيقي في تبرير نفسها، حين تتطابق مع شعب عديم الشكل يقبلها ويرتضيها أكثر مما يخضع لها؛ أو بالأحرى (وهنا الفارق دقيق) يشعر بالامتنان لخضوعه لها؛ لأنه يحترمها ويجلها، في السراء والضراء. وبأسلوب فلسفي هو دومًا في محله حين نتحدث عن وطن كانط، فإن الدولة مفارِقة متعالية، وهذا لا يعني أنها جماعة كما في الديمقراطيات الأنكلوسكسونية، وإنما نظامًا قوي الأسس متميزًا يعمل من طريق خبراء نحترمهم لكفاءتهم، ويكون عملهم خارج اهتمامات الشعب الذي يكون هو نفسه مقتنعًا بكل ما يقومون به.

إذًا فالألماني سواء أكان فردًا معزولًا أم كان مواطنًا، فإنه لا يحيا سوى حياة مختزلة. وقد يختلف الأمر تمامًا إن هو اندمج في مجموعة. فهذه الشخصية القاصرة، تشعر بالحاجة إلى دعامات، فهو بوصفه فردًا عديم الشكل يحتاج إلى إطار يضبط من خلاله تردده وارتباكه، وهو لن يحقق ذاته إلا ضمن مجموعة شراكة. ففي الاجتماع التشاركي يشعر الفرنسي دائمًا أنه يعطي أكثر مما يأخذ، وهو لذلك شريك سيء. أما الألماني فإنه يأخذ، وهو يشعر أنه يأخذ، أكثر مما يعطي للمجموعة. ولهذا فهو يقبل من المجتمع كل شروطه في استعجال ومع الشكر والامتنان. فلا يضايقه الانضباط النظامي الذي لا غنى عنه في عمل جماعي، بل يبدو له على العكس ضرورة واجبة يقبلها حتى مع شيء من الارتياح. وبالاختصار، لا يحس الألماني بالراحة إلا حين يكون ضمن مجموعة من الناس، فتراه هنا يعمل ويمزح ويتحمس. ولا أجد ما يمثل هذه الروح أفضل تمثيل غير مشهد يوم الأحد الألماني، حيث تجد أن لا أحد يبحث عن اللهو الفردي في الصيف (أكان ذلك في ظل حكم النازية أم في

حكومة فايمار)؛ فمنذ الصباح الباكر تجد كل الناس من كل الأعمار، أطفالًا وشيبًا وشبانًا، يسيرون إلى الرحلة كما لو أنهم مقبلون على غزوة من الغزوات، وهم يمشون بخطوات استعراضية وأعلامهم مبسوطة، في حين أنهم منتشرون على هيئة قوافل من الفرسان أو فرق صغرى أو جماعات كبرى، يسيرون مرحًا وطربًا، وأغانيهم وتشكيلاتهم ما هي إلا تأكيد قوة الجمهور، وهم بهذا لا يحتاجون إلا إلى نقطة توجيه كي ينطلقوا. إنه انطباع مقلق وغامض وكأنك أمام حشد عشائري يتحرك. أما في الريف، فهذه الرحلات كانت ولا تزال وكأنها استعراض لقوافل تسير في الحقول حاملة معاولها وفؤوسها على أكتافها كما لو أنها بنادق؛ وقد بدا لي من خلال هذا أنه ليس في ألمانيا رغبة جامحة أكبر من رغبة الاستعراض في جماعات.

وبعد، فإن من واجبنا ألا نقلل من قيمة هذه الموجات البشرية إلى كونها مجرد ألعاب رياضية أو تدريب نظامي للرتباء. وثمة العديد من الفرنسيين ممن اشتركوا في هذه الاستعراضات ضمن الإطار الرومنطيقي للغابات الجرمانية، شعروا أنفسهم بذلك الشعور القوي والذي لا يمكن التعبير عنه، شعور التحرر والحماسة الحلولي. والطبيعة الأولية البدائية، ما زالت تحيط روحيًا وجسمانيًا بهذه الكائنات الأقل تطورًا منا نحن، وهم بهذا المعنى برابرة، كما أنهم يحبون أن يقولوا عن أنفسهم أنهم برابرة!.

طريقة التعبير هذه، غير المناسبة، والناقصة، والمتغيرة دائمًا، وغير الواضحة أبدًا، لا توافق الروح الفرنسية. وعلى الرغم من عنف وصرامة قواعدها، فإن ألمانيا تترك فيك على الإجمال شعورًا بعدم الأمان. أما عندنا، فإن الاضطراب هو في الخارج وهو يكون على شكل هُدُب، زبد سطحي، نتعايش معه بشيء من المداعبة. في ألمانيا الاضطراب أو الفوضى في الداخل، والانتظام والانضباط لا يمكن أن يأتيا إلا من الخارج. لذلك كنا نرى عن حق أن مجاورتنا لهذا الشعب الذي لا يُظهر أبدًا خباياه العميقة، هي مجاورة غير مريحة. ويرى حكماء موثوقون أن الصفة الرئيسة التي تميز الشعب الألماني مما عداه هي هذا التردد الخِلقي الوراثي. وقد كان من رأيهم الذي يشاركهم

فيه المؤرخ الفرنسي بيار فيينو[18] (Pierre Viénot) في كتابه المعنون الترددات الألمانية، أن حرب الثلاثين عامًا، قد تمثل الفترة التاريخية الأكثر تعبيرًا عن حقيقة الشعب الألماني. وكان مثاليو بلادنا، قد خلبت لبهم ألمانيا 1848 التي وجدوها أكثر سحرًا من فرنسا، ولكن أقل عضوية: ألمانيا الفلسفة والموسيقى، ودماثة الخلق والطيبة، إنما أيضًا ألمانيا الضبابية وغير ذات القيمة في مردودية أعمالها. ولكنها كانت تلك ألمانيا ذاتها التي ستتبنى النظام الإمبراطوري، حين قدمت لها بروسيا الأسس والدعامات الإدارية والعسكرية، فانخرطت فيها ألمانيا بكل ما تملك من طاقات الرغبة وعن طواعية واختيار كما تأخذ الماء شكل الوعاء الذي يحتويها. وفي ظل هذا النظام الذي عرفه كثيرون منا أيضًا، كانت ألمانيا أشبه ما تكون بفصل مدرسي يتحكم فيه معلموه، أو كمصنع يرأسه مديروه، أو كثكنة تأتمر بأمر صف ضباطها؛ ومعنى هذا أن الفاعلية كانت كاملة، والطاعة ترافق الأمر المعطى كالفعل المنعكس، وكالآلة التي لا تنفك عن الدوران! وعلى الرغبة نفسها والطواعية ذاتها، أسلمت ألمانيا قيادها إلى هتلر بعد جمهورية فايمار التي لم تكن لتحبها. وهي وجدت في الدولة الشمولية (التوتاليتارية) كل ما كانت في الحقيقة ترغب فيه، وهو أن يكون «طريقة منهجية في خدمة شغف»، أي ذلك المزيج المضطرب من ذروة وجد صوفي ومن تقنية فعالة... بيد أن الكارثة ما تفتأ تظهر، باستمرار ودوريًا عقب انتهاء هذه التجارب، ويكون على ألمانيا أن تكرر الأمر مرة جديدة!

(5)

والروح الألمانية تعبّر عن نفسها في عشرين كلمة تقريبًا، عميقة ومحملة بالمعنى، ولكنها كلمات صعبة الترجمة عمومًا إلى لغتنا: وفهم هذه الكلمات على حقيقتها يعني بالنسبة إلي فهم ألمانيا بحق. وهي كلمات توافق كلها شيئًا

(18) بيار فيينو (1897-1944) (Pierre Viénot) رجل سياسة ومقاوم فرنسي. شارك في الحربين العالميتين الأولى والثانية. انضم للحزب الاشتراكي عام 1937 وأسس مجموعة تعمل داخل الحزب كي تدعو إلى مقاومة ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية. له كتاب بعنوان: هل انتهت ألمانيا؟ *Is Germany finished?* («Incertitudes allemandes»), (London: Faber and Faber, 1931).

يعني الجماعية، إذ إن الروح الجرمانية تنتمي إلى «واقعية» القرون الوسطى أكثر من انتمائها إلى الاسمية (أو الاسمانية: وهي مذهب فلسفي يقول بأن المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجود حقيقي وإنها مجرد أسماء ليس غير).والفرنسي العادي لا يرى بوصفه كائنًا موجودًا سوى الأفراد، أما الجماعة فليست في نظره إلا تصورًا لا حقيقة واقعية له (flatus voci). ولكن الأمر هو على العكس من ذلك في بلاد ما خلف الراين. ومن جهة أخرى، فإنه يوجد معنى مباشر للوجود، وهو الاتحاد شبه المادي مع الأشياء؛ وهذا بالطبع يؤدي إلى الفكرة القائلة بأن الإحساس يغلب على العقل من كل جانب.

وسنحاول هنا أن نستعيد جوهر هذا المعجم من الكلمات:

المصدر العميق للأشياء	Ur, echt, rein
شعور القوة المرتبط بفكرة الشباب والمرح والقسوة	Sturm und Drang, Kraft, Freude
المعنى التصوفي للتطور	Werden, Entwicklung
الفراغ والغموض وحيرة الروح	Shwindel, tief, chaos, problematich
السادية والذائقة الكارثية	Shadenfreude, Götterdämmerung
رقة العواطف	Heim, Heimlich, gemüt, gemütlich
صفات المثابرة والجدية	Tüchtig, fleissig, ernst, gründlich
الموضوعية وفهم معنى الأشياء في ذاتها	Wirtschaft, sachlich, sachlichkeit
روح الأشياء والتشارك الصوفي	Geist, Seele, Stimmung
الضمير الجماعي (وهذه لا تترجمها كلمة شعب)	Gemeinschaft Volk

ويوجد في رأس المال القومي الألماني ثروة لا يستهان بها: التقنية الأكثر فاعلية معطوفة على أقوى حياة عاطفية، وهذا المزيج يترك شعورًا عامًا بالحياة، ولكن بحياة بدائية. ومساهمة هذا الشعب في الحضارة الأوروبية هي باهرة. ولقد جمع كمية كبيرة من المعلومات والملاحظات والتصنيفات، وأنتج موسيقى وشعرًا وفلسفة، وهو كان الرائد الحقيقي للعقلنة الصناعية، ولكنه فعل كل ذلك كمن يجمع، أي على شاكلة من يكتنز المال من دون أن يكون قادرًا على أن يعطي شكلًا ومضمونًا لمخلوقاته هذه. ومن هنا، فإن هذا البربري

على الرغم من فخره ببربريته، هذا الابن البعيد لآسيا، لا يملك سلسلة النسب الكلاسيكية التي تصلنا باليونان، وبالتالي فلا يمكن اعتباره غربيًا مئة في المئة. وهو لم يستطع أن يؤلف بين متناقضاته، كما هو شأن البالغين في حضارتهم، فهذا الألماني العاطفي هو فظ، وقاس، وفاسد حتى، فهو سادي ونيروني، يطرب لنزول المصائب والكوارث، ويبكي على الحريق الذي أشعله بنفسه، ويداعب الطفل الذي قتل أبويه لتوه، وطاعته نفسها تنطبق على عمل الشر بالضمير نفسه الذي يكون له حين تنطبق على عمل الخير. ولكي تضع شيئًا من الترتيب والنظام في هذه الفوضى كان ينبغي امتلاك عقل فولتير. طبعًا كان عندهم غوته الذي أراد وحاول التوفيق بين هذه المتناقضات، ولكن الألمان فضلوا عليه كتّابًا آخرين تنقصهم ملكة القسط والتوازن، إنما يحملون لوثة القومية، أمثال فاغنر (Wagner) ونيتشه (Nietszche) ومن يدري؟ فلعل أمثال هؤلاء هجنوا من دم صقلبي. وأخيرًا، فإن ألمانيا بلد مدمِّر، مدمِّر للثروات ومدمِّر للعرق البشري ومدمِّر للإمبراطوريات.

لقد قمت بهذا التحليل مستندًا في ذلك إلى الماضي، وليس هناك من سبيل غير ذلك. وبعد فها نحن أولاء مرة أخرى في هذا البلد المتغير أمام ولادة جديدة من تحت أكوام الخراب والدمار (نتيجة للحرب العالمية الثانية). وقد سبق لنا أن قلنا إن الألماني لا يندهش إلا قليلًا أمام الكوارث، ولعله لا يتألم من ذلك بقدر ما يمكن أن نظن نحن، وذلك بفضل قدرة استثنائية فريدة على النهوض والانطلاق من الصفر في تجدد يلغي الماضي وكأنه لم يكن شيئًا مذكورًا. «أسيكون يا الله طاولة أم طشت ماء؟» هكذا نسأل أنفسنا دائمًا مرددين ما قالته الحكاية[19]، من دون ادعاء وجود جواب لدينا. وعلى الرغم من أنها تعرضت لكثير من الغزوات المتعاقبة وديست أرضها ذهابًا وجيئة في مختلف العصور، واختلط فيها أغرب خليط من الشعوب والأجناس، وانقسمت ما بين حوض شرقي وحوض غربي، فإن ألمانيا، الغربية في الأقل، تبدو اليوم كاثوليكية أكثر مما مضى، وكانت البروتستانتية اللوثرية (نسبة إلى لوثر)، إلى

(19) هي حكاية من حكايات لافونتين نرى فيها نحاتًا ينحت قطعة من المرمر ويسأل نفسه هذا السؤال.

جانب بروسيا هي التي انهزمت في الحرب... وكانت ألمانيا الشمالية بطبيعة الزهد فيها، وهي البروسية والبروتستانتية في آن، تزهو بجهد النكران هذا في سبيل هدف ما، فهي تعرف كيف تستبدل المدافع بالزبدة وقت الجد. وعلى العكس من ذلك، فإن الكاثوليكية، وهي بالإجمال أقل قومية، تبدو كذلك أقل صرامة، وأقل غضبًا واحتدادًا، وأعظم إنسانية. فألمانيا كانت وستظل تحترم مبدأ الموضوعية أو الـ (Wirtschaft) السالف الذكر، وهذا سيبقى أساسيًا ودائمًا. كما أن صفة الثبات والجدية (gründlich) كانت أولًا طبعًا بروتستانتيًا. ولعل ألمانيا، من تحت الدمار، تفقد شيئًا من تقاليدها في سداد الحكم. والحق أن حيويتها لا تنضب، وهذا الشعب لا يزال هو أكثر شعوب أوروبا سكانًا، في ما عدا روسيا.

أنهي هذه الدراسة الشيقة بنوع من الانطباع القلق... فعبر الراين أي: خارج ألمانيا، لا نرى غير النظام والفاعلية والوصول إلى الهدف... أما في داخل ألمانيا فلا نرى إلا المستنقع والفوضى. ويعتبر الألماني الحقيقة غامضة وأننا نغرق في ليل الظلام حين نسير صوبها. أما بالنسبة إلينا، فإننا نعتقد أن الحقيقة نور على نور. في ألمانيا نشعر بأننا على حافة بحر من المياه السوداء نقول بقلق إنه لا قاع له. وفي ذلك امتياز ألمانيا! ولكن حين نطل على هذه المساحات الواسعة المغلقة يتملكنا الشعور بأننا نطل على هاوية هلاك!

الفصل السادس
الصوفية الروسية

تتسلل نفحات الشرق البعيدة بخفة لتتغلغل حتى ألمانيا، ولكن في روسيا تبقى آسيا حاضرة بقوة، مع أن أوروبا تتقدم، كما يقال، لتصل إلى الأورال.

في روسيا أكثر من أي مكان آخر نجد السيكولوجيا تابعة للجغرافيا. وتمتاز البلاد الروسية بثلاث ميزات: ضخامتها، ورتابة نمطها الواحد، وخلوها من الدفاعات الطبيعية التي تحميها ضد الغزوات، ومع ذلك وفي الآن نفسه: لا نفاذيتها (استحالة النفوذ إليها). والمسافات داخلها كبيرة للغاية: فتبلغ مساحة روسيا الأوروبية خمسة ملايين ونصف المليون من الكيلومترات المربعة؛ كما تبلغ مساحة كل من روسيا الأوروبية والآسيوية معًا اثنين وعشرين مليونًا من الكيلومترات المربعة، وتبلغ المسافة بين ميناء ليباو (Libau) على بحر البلطيق ومدينة فلاديفستوك ثمانية آلاف كيلومتر، وبذلك تعتبر روسيا من أكبر بلاد العالم. ولا يمكن أن تقارن هذه المساحات الشاسعة بمساحة فرنسا مثلًا؛ ذلك أن مساحة فرنسا التي تبلغ 575,000 من الكيلومترات المربعة تقارب 1/ 10 من مساحة روسيا الأوروبية فقط. وتبلغ المسافة بين باريس وفيينا ألف كيلومتر مربع... فما قيمة هذا أمام الأرقام الخيالية للمساحات الشاسعة في روسيا التي تجعلها أقرب إلى القارات الضخمة خارج أوروبا، مما هي إلى كومات التراب عندنا. وكل تقديراتنا العادية تذوب وتتلاشى في هذا الفضاء الواسع المترامي الأطراف. من الناحية الجغرافية نحن خارج أوروبا حقًا. ورتابة نمط تكوين أجزائها تضاعف من صعوبة تقدير مساحتها أيضًا. فأوروبا هي أساسًا

منقسمة إلى أجزاء متنوعة ومبعثرة. أما في روسيا فعلى امتداد آلاف الكيلومترات نجد البلاد رتيبة على نمط واحد. أو كما يقول الشاعر: بعد التلة البيضاء، هناك تلة بيضاء أخرى»، فروسيا أرض لا حدود لها. فراغ من ورائه فراغ وتشابه ممل، من دون انقطاعات، وحيث لا نجد أي علامات مرجعية. باختصار: قارة بأبعاد محيط.

ولا تمنح الطبيعة أي حماية في هذا الفضاء الشاسع العديم الشكل الذي ليس له حدود أو حواجز: بحيث إنه على مدى التاريخ وفي ما قبل التاريخ تعاقبت الغزوات على سكان هذه البلاد، الواحدة تلو الأخرى، كتلاطم أمواج البحر؛ وقد خلفت كل منها رواسب بشرية كما تتخلف رواسب الطمي عن الفيضانات؛ ولهذا كان في روسيا نوع من مخلفات الإثنيات البشرية، رواسب من شعوب تدافعت وتراكمت وتداخلت بعضها في بعض، ما أحدث انطباعًا مسيطرًا عن شدة تعقيد هذا الوضع.

ومع ذلك، فإن وحدة البلاد الروسية ليست موضع جدل أو نقاش: فجغرافيتها ومناخها وبيئتها، تفرض أنماطًا خاصة من طرائق الحياة والشعور والعمل، نجدها مشتركة بين جميع الروس. فنحن أمام مجموعة بشرية مميزة - في الأخص - بجو اجتماعي مشترك. ولا يملك الأجانب إلا أن يشعروا بقوة شخصية هذا الجو: فبعض هؤلاء الأجانب لا يتأثر بذلك، في حين يطيب لبعضهم الآخر، وهم كثيرون، أن يستسلموا لسحره الأكيد. ومجمل القول إنه على الرغم من بعض الاختلافات الجغرافية أو الإثنية، فإن هناك بلدًا روسيًا، وشعبًا روسيًا، ومسلكًا روسيًا، يتضمن طريقة خاصة في الحياة، كما أن له وتيرته ومناخه الخاص، أي ما يمكن أن نسميه: الجو الروسي الخالص.

يتساءل الناس أهي أوروبا أم آسيا؟ إنها على الأغلب شيء وسط بين هاتين بمعنى أنها ليست بالأوروبية الخالصة ولا بالآسيوية الصرفة، ومن هنا نفهم هذه التعبيرات غير الدقيقة على الإطلاق مثل: «أوراسيا» و«القارة السادسة». وشيئًا فشيئًا على كل حال تعوّد علماء الإحصاء أن يفردوا لروسيا صفحة خاصة في سجل العالم، كما لو أنها قارة منفصلة. أين هي الحدود عندئذ؟ أين نترك

الغرب وراءنا كي ندخل في هذا العالم الذي لم يعد أوروبا تمامًا وصار في الوقت نفسه آسيا، من دون أن يكونها بالكامل؟ أرى - في تصوري - أن أضع حدودها عند نهاية أوروبا الوسطى، في مكان ما في السهل الثلجي الكبير الذي يمتد فوق ألمانيا الشرقية وبولندا. ولم يصف أحد هذا الانتقال أفضل من وصف السيد لوك دورتان[1] (Luc Durtain) في هذه الأسطر المعبّرة: «في سماء مدينة لودز (Lodz) التي تبهر الأبصار، تنتصب أمام ناظريك مداخن كثيرة، يتصاعد منها دخان مصانع النسيج الشهيرة. غير أن السكان المتجمعين عند المرافئ هم جديدون تمامًا بالنسبة إليك: رجال ينتعلون أحذية عالية (جزمات)، يهود في أردية كهنوتية قذرة واضعين على رؤوسهم غطاء مسطحًا ذا حافة تشبه الأظافر السوداء، نساء يغطين رؤوسهن وأكتافهن بأغطية مزركشة ذوات ألوان زاهية. وما يجعلك تفقد البوصلة وتشعر بالغربة هنا، أكثر من هذه الأزياء، هو وجوه هؤلاء الناس وطريقة سلوكهم. فأنت تجد في هؤلاء الناس ملامح غريبة يصعب عليك بداية أن تتعرف إليها. يبدو عليهم أنهم ينتمون للمكان فحسب لأنهم هنا؟ وليس هذا مجرد الطاعة الألمانية، بل فيهم شيء من الاستسلام والسلبية: وجوه جامدة لا تنم عن أي تعبير، ونظرات لا مكترثة، فلا ندري أي نوع من التأمل يمارسون على الطريقة الشرقية. انظر بعيدًا إلى الأفق حيث تتراجع أعداد مداخن لودز! انظر جيدًا إلى تلك المداخن العالية، إذ إنك خلال كل طريق مسيرتك عبر بولندا، طوال النهار، وعلى امتداد خمسمئة كيلومتر، وباستثناء ضاحية وارسو (Varsovie) المتواضعة، لن ترى عيناك دزينة من هذه المداخن. انظر جيدًا هذه الطريق التي تنتثر عليها الحصى المسننة والتي تبدو لك جد بدائية: لن تجد واحدة أخرى مثلها على امتداد خمسمئة كيلومتر. لن تجد أمامك سوى مسالك تسير عليها عربات بعجلات كبيرة، تبدو كأنها خرجت من صفحات كتاب قديم عن سيرة الميروفنجيين، تتصارع بشجاعة مع الأوحال لتعبر بعدها المستنقعات. حينذاك وحينذاك فحسب تعرف فجأة لماذا يلبس أهل هذه البلاد الأحذية العالية/ الجزمة... هل لاحظت تلك السيارة

---

(1) لوك دورتان (1881-1959) (Luc Durtain) واسمه الأصلي أندريه روبرت غوستاف نبفو (André Robert Gustave Nepveu) شاعر باريسي وروائي وكاتب مسرحي وباحث.

الشريرة التي كانت أحيانًا تمر أمامك عبر الطريق؟ اليوم سترى عددًا أقل من السيارات ومن المصانع... فما الذي ستصادفه إذًا هنا تحت أصناف وأضراب ذاك المدى السلافي؟ الأرض نفسها أولًا، والتي لم يهزمها شيء، وذات الأبعاد المحيطية. أيها القارئ إن كنت لا تعرف بعد ما هي الصحراء أو ما هو السهل الكبير، فها هنا ستشعر للمرة الأولى بطعم هذا المدى»[2].

تبعث ملاحظات هذا الكاتب العميقة على التفكير والتأمل خصوصًا وأنها تشير إلى أن الأمر يتعلق بحدود، لا بين بلد وآخر، بل بين قارة وأخرى! ولم يغير التصنيع - الذي تقدم بخطوات مذهلة في روسيا السوفياتية - من واقع الأمور عندهم شيئًا، لا بل يبدو أنه في ظل نظام الستار الحديد تقدمت رياح الشرق أكثر باتجاهنا. وقد كتب الماركيز دو كوستين[3] (Marquis de Custine)، وهو من هو في دراسته المعمقة لروسيا القرن التاسع عشر، كتب يقول قبل مئة عام: «يفصل بين فرنسا وروسيا سور هو أشبه بسور الصين العظيم، وعلى الرغم مما قام به إمبراطور روسيا بطرس الأكبر[4] وما أدخله من ادعاءات في أذهان الروس، ما زالت حدود سيبريا تبدأ من الفيستولا» (النهر الرئيس في بولندا). ويمكننا أيضًا أن نقول إنها تبدأ من نهر الأودر، أو نهر الإلب، ولم لا؟ من يدري؟ ما إن نغادر الإمبراطورية الرومانية، أو إمبراطورية شارلمان ألا يتملكنا الشعور بأن أوروبا، أوروبا الحقيقية، انتهت فعلًا هنا؟

يؤثر المناخ تأثيرًا حاسمًا هنا. ونحن نعرف ميزاته. فهو قاريٌّ أساسًا، بمعنى أنه متطرف في حرارة الصيف وفي برد الشتاء. وتأثيرات المحيطات لا

(2) Luc Durtain, *L'Autre Europe: Moscou et sa foi* (Paris: Gallimard, 1928).

(3) الماركيز دو كوستين هو أستولف لويس ليونور (Astolphe Louis Léonor, marquis de Custine) (1790-1856)، كاتب فرنسي اشتهر بمؤلفه روسيا عام 1839 (*La Russie en 1839*) الذي يعتبره بعضهم المماثل الروسي لكتاب توكفيل عن الديمقراطية في أميركا.

(4) بطرس الأول أو بطرس الأكبر (1672-1725) (Piotr Alekseïevitch Romanov) ولد في موسكو ابنًا للقيصر ألكسيس الأول. قيصر الروسيا في 1682 وأول إمبراطور للإمبراطورية الروسية من عام 1721 حتى وفاته في سان بطرسبرغ 1725. قام بإجراء إصلاح عميق لبلاده مع اتخاذه سياسة توسعية حولت روسيا إلى قوة أوروبية.

تصل أبدًا، إلا مخففة عند شواطئ بحر البلطيق. بعد ذلك يزداد التأثير المحيطي كلما ذهبنا من الغرب إلى الشرق وليس من الجنوب إلى الشمال. لكن حيثما تنقّل المرء، فإن برودة الجو القارص تلاحقه معظم أيام السنة، ما بين ثمانية شهور وعشرة شهور من الجليد في الشمال، وكذلك الحال في الشرق والجنوب الشرقي، أما في الجنوب فتتراوح فترة تجمد المياه بين ثلاثة وخمسة شهور. وليس لهذا المناخ مثيل في أي بقعة من بقاع العالم. فهو لا يشبه مناخ أوروبا الغربية التي هي أطلسية، ولا مناخ أوروبا الجنوبية، المتوسطية (ما عدا شبه جزيرة القرم الواقعة على البحر الأسود)؛ بل يتشابه إلى حد كبير مع مناخ آسيا الأرضية (اليابسة غير البحرية)، أي الصين والتيبت والأناضول. فنحن أمام بلد صارم، بلد العنف والآلام، حيث الطبيعة لا تعطي بذاتها صورة عن الرحمة. وينبغي ألا تغيب عن أذهاننا هذه الحقيقة حين نتحدث عن روسيا.

(2)

على قاعدة وجود عرق أصلي، نتج التشكيل الإثني للشعب الروسي بصورة رئيسة من غزوتين متعاقبتين.

تشمل الأعراق الأصلية، في الشمال، سكان الغابة: الفينوا[5] (Finnois): وهم يشتغلون بصيد الحيوانات والأسماك كما ينتمون إلى أعراق المغول في آسيا بوشائج اللهجة واللون والبنية العظمية. ويعيش على حياة الرعي في الجنوب شعوب من الرحل، حيث السهوب (steppes)، وهم ينتمون إلى العرق المغولي أيضًا، كما أنهم ذوو سلوك آسيوي. لكن الإضافة الأساس أصلًا تتكون

---

(5) الفرق بين الفنلندي المسمى *finnois* والفنلندي المسمى *finlandais* يعود إلى تاريخ بلاد فنلندا وثقافاتها. فكلمة فينوا تنطبق على لغة شعب الفينوا وثقافته، وهو الشعب الذي غزا واستوطن رويدًا رويدًا أرض فنلندا خلال مئات السنين. وتتشكل فنلندا من شعوب أخرى إلى جانب الفينوا مثل السآمي (saami) أو اللابون والسويديين الذين استعمروا الجزء الجنوبي الغربي من فنلندا الحالية. وكل واحد من هذه الشعوب كان له طابعه الثقافي والإثني والتاريخي الخاص به، أما مصطلح الفنلندي فيطلق على الواقع السياسي الحديث المولود عام 1917. هناك إذًا فنلنديون يتكلمون الفينوا وفنلنديون يتكلمون السويدية وفنلنديون يتكلمون السآمي.

من الشعوب السلافية، وذلك منذ ما قبل عصر المسيحية. وقد وفد هؤلاء الآريون البيض من إيران على ما نظن، وتوطنوا في السهوب، واشتغلوا بزراعة تلك الأراضي بعد أن استقر بهم المقام هناك. ومن هؤلاء ثلاث مجموعات رئيسة: الروس والبولنديون والليتوانيون. ومع ذلك، فإن المجموعة الأولى تنقسم إلى مجموعات ثلاث صغيرة في ما بينها: الروس الكبار: ويقطنون في وسط البلاد أي في إقليم موسكو. الروس الصغار: ويقيمون في الأراضي السوداء من إقليم أوكرانيا. الروس البيض: ويستقرون في الغرب في محاذاة بولندا. وما زالت كل هذه المجموعات موجودة حتى اليوم. وجميع الغزوات التي تواترت على روسيا بعد ذلك، وخصوصًا بعد ظهور المسيحية، وفدت من آسيا. ولا نعني بذلك الصقالبة (السلاف)، بل قبائل المغول، الوثنيين منهم أولًا ثم المسلمين: وهم «قبائل الهون» الذين كانوا تحت إمرة الملك «أتيلا»، وجنكيز خان في القرن الثالث عشر، ثم في القرن الخامس عشر القبائل الذهبية، وهي التي استقرت في البلاد وأخضعتها. وقد كان عمل القياصرة بعد ذلك هو إيقاف تدفق هذا السيل الجارف من الغزو الذي اكتسح البلاد من الشرق إلى الغرب، فاستردوا روسيا سياسيًا، من المغول أولًا، ثم من بعدهم الصقالبة غير الروس، ثم من آسيا نفسها.

يتضح من هذا أن الصقالبة ومعهم بقية لا يستهان بها من التتار يشكلون نواة هذا الشعب، على أن هذا لا يمنع وجود أعراق عديدة أخرى إلى جانب ذلك: فهناك اليهود من جهة، والبلطيقيون الألمان اللوثريون من جهة ثانية، وهؤلاء زالوا الآن، وكانوا سكان شواطئ بحر البلطيق؛ ثم هناك مجموعات ألمانية كانت لا تزال ظاهرة بالأمس في الجنوب الغربي من روسيا، وثمة أتراك وأعراق مختلفة من القوقاز، وغيرهم أيضًا. وإذا أردنا أن نتعرف إلى نسبة هذه العناصر المختلفة، اتضح لنا أن «العنصر الصقلبي» هو أهم هذه العناصر جميعًا وإلى أكبر حد، ويلي ذلك بصورة ثانوية التتار الذين لا يزال وجودهم عنصرًا ملحوظًا في شرق نهر الفولغا. ثم إنه لا بد أن ندخل في اعتبارنا خضوع شعوب متداخلة متشابكة للجاذبية الروسية، على أنها مع ذلك كانت لتؤثر في السيكولوجية الوطنية. وقد كان من نتيجة ذلك أن أحيطت روسيا بسلسلة من

الأساكل والسلالم (وهي الموانئ/ الحدود) لا تسمح بتحديد واضح لحدود الحضارة الروسية. فلنتذكر أنه وسط هذا السديم هناك شعب روسي خالص، كبير في حد ذاته، وهو آسيوي في أصوله وجغرافيته وجواره، ومع ذلك فهو أيضًا أوروبي إلى حد كبير، بفضل اشتراك طويل مع التاريخ الأوروبي. وقد اقتبس هذا الشعب من بيزنطية، حبه للمناقشات النافلة، ورقته التي تصل أحيانًا إلى درجة المكر، وأيضًا شيئًا لا أعرف كنهه متطورًا جدًا عندهم ولا يشبه روح الشباب ويتناقض في الآن نفسه مع ما في هذا الشعب من بربرية وبدائية. وفي هذا الصدد كتب دو كوستين (de Custine) يقول: «في ظل حكم الأوزبك كان الروس يخضعون للمسلمين، ولكنهم واصلوا مع ذلك، وكعاداتهم القديمة الأولى، الأخذ من الإمبراطورية الإغريقية فنونها وعاداتها وعلومها ودينها وسياستها مع ما تتضمنه من تقاليد في الدهاء والغش، إضافة إلى كراهيتهم للصليبيين اللاتين». وقد استمدت روسيا من أوروبا - بل من أوروبا الشرقية خصوصًا - تقاليدها المسيحية على صورة المذهب الأرثوذكسي والإنجيلي. وفي حين أن الكاثوليكية التي واصلت تراث روما، وهبت الغرب معنى النظام والقانون، نجد أن الإنجيلية الشرقية التي لم تتبلور، والأقرب إلى البساطة البدائية، قد غرست في الروس خصالًا حسنة من الطيبة والرحمة التي لا تتفق دائمًا مع العدالة والاستقامة الأخلاقية، والتي تثير في نفوسنا ذكرى الشخص «الممتلئ بحليب الطيبة» التي تحدث عنها شكسبير[6]، ونحن نجدها في روسيا بشكل أوضح عنه في ألمانيا. وقد أخذت روسيا من أوروبا جميع طرائقها الفنية الحديثة، منذ «بطرس الأكبر» إلى لينين وأخيرًا إلى ستالين، أخذتها واستوعبتها بكل حماسة وبروح أكثر تصوفية منها ميكانيكية. ولكن على الرغم من كل هذه المساهمات الوافدة من شتى الشعوب والغزوات، ومن كل الحضارة العالية التي حملتها معها، فإن البربرية لا تزال باقية على الوجه. وقد كتب دو كوستين يقول: «لقد مضى بالكاد على روسيا أربعمئة عام حتى اليوم (في أواخر القرن التاسع عشر)، منذ تعرضت لغزوات البرابرة، بينما تعرض الغرب لمثل هذه

(6) في مسرحية ماكبث حين تصف الليدي ماكبث زوجها بأنه لا يملك طموحها وقوة إرادتها، لأنه بطبعه طيب القلب، فاستخدمت عبارة «ممتلئ بحليب الطيبة».

الأزمة منذ ألف وأربعمئة عام. إن أي حضارة أقدم منك بألف عام، لا بد أن تحدث تفاوتًا لا حدود له بين أخلاق الشعوب وعاداتها».

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الشعب حريص على شخصيته وعلى وحدته أيضًا، وهي غير قائمة على العرق، لأنه ليس عنصريًا عرقيًا، بيد أنها وحدة قائمة على نوع من المفهوم المشترك للحياة، وعلى بيئة عضوية وأخلاقية مشتركة كذلك. وقد قيل مرارًا إن هناك شيئًا من الصوفية في الفكرة التي خلقها هذا الشعب عن نفسه وعن مصيره. وقد وصف الكاتب الروسي مكسيم غوركي[7] (Maxime Gorki) هذا الشعب، حيث يقول على لسان متشرد: «لن يختفي الشعب الروسي عن وجه البسيطة. هذا مكتوب في التوراة! فهل تعرف هذا الشعب حق المعرفة؟! إنه شعب كثير العدد: فكم من القرى المقامة على الأرض الروسية!؟ وفي كل بقعة من بقاع هذه الأرض تلتقون بهذا الشعب. هذا الشعب العظيم... وتقول لي إنه سيفنى؟ الشعب لا يمكن أن يموت؛ الإنسان نعم يموت، لكن الله في حاجة إلى شعب». وإذا ترجمنا عبارات هذا الكاتب في عبارات جديدة اتضحت لنا كم هي الثقة المتناهية بالذات والتي يستقبل بها الشعب السوفياتي مصيره.

(3)

عندما نتحدث عن سيكولوجية الشعب الروسي يصعب علينا أن نستبين منها ما هي الخصال الدائمة فيه. فنحن نميّز من جهة وجود أساس مبدئي يرجع

---

(7) مكسيم غوركي (Maxime Gorki) (1868-1936) واسمه الأصلي أليكسي مكسيموفيتش بشكوف (Alekseï Maksimovitch Pechkov)، أديب وناشط سياسي ماركسي روسي، مؤسس مدرسة الواقعية الاشتراكية التي تجسد النظرة الماركسية للأدب حيث يرى أن الأدب مبني على النشاط الاقتصادي في نشأته ونموه وتطوره، وأنه يؤثر في المجتمع بقوته الخاصة، لذلك ينبغي توظيفه في خدمة المجتمع. تعني كلمة غوركي باللغة الروسية «المر»، وقد اختارها الكاتب لقبًا مستعارًا له من واقع المرارة التي كان يعاني منها الشعب الروسي تحت الحكم القيصري والتي شاهدها بعينيه خلال المسيرة الطويلة التي قطعها بحثًا عن القوت، وقد انعكس هذا الواقع المرير بشكل واضح على كتاباته وبشكل خاص في رائعته الأم.كان صديقًا للينين الذي التقاه عام 1905. توفي ابنه مكسيم بشكوف عام 1935م، ثم توفي هو في 18 كانون الثاني/يناير 1936م في موسكو، وسط شكوك بأنهما ماتا مسمومين. سميت مدينة نيجني نوفغورود (Nizhny Novgorod) التي ولد فيها باسمه غوركي منذ عام 1932م حتى عام 1990.

إلى أقدم ماضٍ آسيوي ممكن. ومن جهة أخرى، يجب ألا نتجاهل المحاولة القاسية لبطرس الأكبر في أورَبة (جعلها أوروبية) روسيا ولا العمل العميق الذي قامت به الثورة السوفياتية باسم التقنية الغربية. ومن الصعب أن نميز في ظل هذه الظروف، الخصال الروسية حقًا والتي نظن أنها روسية في حين أنها فعليًا تعود إلى المرحلة السوفياتية. كما أنه من الصعب أن نعرف ما إذا كانت بعض الإصلاحات الحديثة التي تعزى إلى ثورة 1917 هي أمور عابرة لن تترك وراءها أثرًا أم أنها مرشحة للبقاء والاستمرار، وليس من شك في أن الثورة البلشفية قد جددت شباب الشعب الروسي، ولكن إلى أي حد؟ الواقع أن هذا الشعب قد دبت فيه روح الشباب من جديد، ولكن علينا أن نذكر إلى جانب ذلك أنه قد جرت «شرقنته» (جعله شرقيًا)، إذ يعود اليوم الأساس الآسيوي القديم، بقوة أكبر بكثير عما كان عليه قبلًا!

لنسائل أنفسنا إذًا ما هو شرقي أو آسيوي لدى الشعب الروسي؟ إن سيكولوجية هذا الشعب تنضح بقوة التأثير والاتصال والقرب من آسيا، ولا تكفي هذه الكلمات للتدليل على تأثر روسيا بآسيا، بل يجب أن نتحدث عن الحضور الآسيوي الملموس فعلًا في كل مكان من هذا البلد. ومع ذلك يجب أن نوضح أن آسيا التي نعنيها ليست هي آسيا المتوسطية والمشرقية الشرق أوسطية، التي نعرفها جيدًا والتي تصل إلى شواطئ الريفييرا عندنا، بل هي بر آسيا نفسها، آسيا المغولية، وهذه مختلفة تمامًا عن الأولى. ويقال - أحيانًا - إن الرجل الروسي هو في الأصل غربي ارتدى زيًا شرقيًا. وقد يكون من الحقيقة أكثر أن نقول: إنه شرقي متأثر بالغرب، وربما إن «غربيته» أفسدت شرقيته. وقد قال بسمارك يوم كان سفيرًا في سان بطرسبرغ وأتيح له أن يعرف هذه البلاد وأن يدرسها جيدًا، قال قولًا مذهلًا في هذا الصدد: «ليس لروسيا أن تتعاطى مع الغرب إذ هي قد تأخذ منه كل الأمراض».

من أكثر الخصال آسيوية التي اقتبسها الروسي هي الصبر والجلد والقدرة على تحمل الألم. فهو اعتاد على احتمال أقسى ضروب العذاب، وهو لا يندهش ولا يحتج بأن الحياة قاسية، وحتى متوحشة غاشمة. وهذا السلوك

الروسي ناتج من تعوده الدهري وترويض نفسه على تلقي المحن التي تنشأ من تقلبات الجو والغزوات ومن تقاليد قسوة التاريخ في هذا الجزء من العالم. وتبدو هذه المحن جميعًا - في نظره - شيئًا طبيعيًا لأنها كانت قدره عبر تاريخه الطويل. ولهذا فهو يتقبلها بواقعية من دون مقاومة، كما يتقبل مظاهر القوة والأوامر المفروضة (diktat) من الدولة. وربما لا يفكر الرجل الروسي في هذا الأمر كثيرًا، بل إنه يخضع له ويحني رأسه كأنه أمام قوى الطبيعة. وهذا هو معنى الكلمة الشهيرة Nitchevo المشتقة من الاسم الموصول Nitchto الذي يعني «لا شيء» (Nihil) (عدم). وهكذا، فإنك لا تني تسمع الروسي يردد Nitchevo Nitchevo... مش مهم... مش مهم... ليس لهذا الأمر أهمية تذكر... وهو في قرارة نفسه يريد أن يقول: إنه على الرغم من كل شيء فسيصمد وسيبقى حيًا. والحال أن تلك هي فلسفة شرقية، فلسفة أناس عركهم الدهر فتعلموا الصبر.

هكذا نفهم سر صمت الحياة السياسية في روسيا، اليوم كما بالأمس: فخارج نطاق تصريحات القادة، لا شيء آخر يحدث. وقد ذكر المؤرخ الفرنسي شارل سينيوبوس في كتابه **تاريخ أوروبا المعاصر** وبالتحديد في الفصل الخاص بروسيا، التفسير الآتي: «قد يكون من الصعب أن نفسح للتاريخ السياسي للإمبراطورية الروسية مجالًا مناسبًا لمكانة روسيا. فالإمبراطورية الروسية بتكوينها الاستبدادي كانت بعيدة كل البعد من الاضطرابات السياسية التي تشكل أسس الحياة السياسية المعاصرة. فهي - على غرار حكومات الملكية المطلقة في القرن الثامن عشر - لا تملك تاريخًا ما غير تاريخ الملوك وحاشيتهم، وهو تاريخ لا نعرفه إلا من طريق روايات معارضين للحكومة منشورة في الخارج بحيث يصعب مراقبتها، وليس من طريق الصحف الرسمية التي تصدرها الدولة، وهذه لا تنقل شيئًا عن واقع الحياة الفعلية هناك. وها نحن نرى لماذا يحتل التاريخ الداخلي لروسيا - في ما عدا محاولات ألكسندر الثاني الإصلاحية - مكانًا أقل في الأهمية من مكانة إجراءات القمع التي اتخذتها الحكومة ضد أعدائها من بولونيين ومنشقين، أو ثوريين». وهذه العبارات التي خطها هذا المؤلف قبل أكثر من ربع قرن والتي تتعلق بنظام قديم مضى عليه قرن من الزمان، يمكن أن تنطبق تمام الانطباق على روسيا اليوم.

هذه الطاقة القوية على الصبر والاحتمال التي يتحلى بها جمهور الشعب الروسي، لا تعني تحديدًا أنه شعب متشائم أو قدري اتكالي. فمن المهم أن نلاحظ عند هذا الشعب التفاؤل والحيوية والثقة بالنفس، كل هذه الصفات هي ما يطبع روسيا السوفياتية بطابع مميز خصوصًا غياب أي شعور من مركبات النقص. وهناك أقلية مؤثرة تقوم بدور خميرة العجين في صفوف الشعب الروسي، ومع ذلك فإن الجمهور الروسي يظهر في المدن الكبرى بمظهر السلبية، مثل الهند إلى حد ما، وأبدًا ليس كمثل الصين: الشرق نعم، ولكن ليس الشرق الأقصى، ليس الغرب أيضًا!.

أدى هذا الخليط من المؤثرات الشرقية والغربية إلى نوع من عدم التوازن الواضح. ويوجد لدى الرجل الروسي دائمًا شيء من عدم المبالاة، كما أنه ينطوي على التهور، وهذا ناتج عن وجود نقص في الجمع بين كفاءات واستعدادات متعارضة. وكل ما ذكرناه آنفًا بصدد ألمانيا هو كذلك في روسيا على نطاق أوسع. فالتوليف لم يحصل هنا، وفي هذا المعنى فإن الرجل الروسي ليس مثلنا على الدرجة نفسها من التمدين والتطور. فنحن نلاحظ أن الفرد الروسي الواحد يجمع بين التواضع والكبرياء، بين المثالية وعدم الحياء، بين الفضيلة والرذيلة، والانتقال من صفة إلى أخرى في الفرد نفسه تحدث بسهولة مع حدوث ارتجاعات فريدة. وإذا أعدنا قراءة الرواية الروسية، خصوصًا تلك التي كتبها دوستويفسكي[8] (Dostoievski) فإننا نجد فيها كلها هذا التناقض العجيب، كما نجد أيضًا هذه الخصال المتطرفة والمتناقضة في الممثل السوفياتي في المؤتمرات الدولية. فهو يجيد الجمع بين الرقة والخشونة وبين الظرف والغلظة وبين المرونة والعنف. ولا نعرف معه على أي إيقاع نرقص فهو تارة دبلوماسي ذو سلوك مهذب وتارة أخرى هو واحد من الميروفنجيين ضل سبيله في القرن العشرين. ويبدو في كل تطوره السيكولوجي أن هذا

---

(8) فيودور ميخايلوفيتش دوستويفسكي (1821-1881) (Fiodor Mikhaïlovitch Dostoïevski). واحد من أكبر الكتاب الروس ومن أفضل الكتاب العالميين، وأعماله كان لها أثر عميق ودائم في أدب القرن العشرين. شخصياته دائمًا في أقصى حالات اليأس وعلى حافة الهاوية، ورواياته تحوي فهمًا عميقًا للنفس البشرية كما تقدم تحليلًا ثاقبًا للحالة السياسية والاجتماعية والروحية لروسيا في ذلك الوقت.

الشعب الروسي لم يمر بفترة انتقال بين ما كان عليه في العصور الوسطى وما هو عليه الآن في عصره الحديث أي: بين عصر البربرية وعصر الألوهية، أو كي نستعير أسلوب باسكال: بين الوحش والملاك. وقد سبق للماركيز دو كوستين أن لاحظ هذه السمة، فكتب يقول: «يقضي المناخ - من الوجهة الطبيعية - كما تقضي الحكومة - من الوجهة الأدبية والمعنوية - على كل ما يمثل الضعف والخور في هذا البلد. إن روسيا بلد العواطف الجامحة أو الطباع الواهنة، وشعبها إما ثائر وإما مستكين. وليس هناك وسط بين الحاكم والعبيد كما أنه ليس هناك وسط بين المجنون والحيوان، إن الوسطية المتزنة ليست معروفة لدى هذا الشعب».

تكونت الشخصية الروسية من هذه العناصر المتفككة المتناقضة التي لا يمكن القول بأنها عناصر تتلاءم مع هذا العصر. ومنذ عهد القياصرة أقيمت في روسيا صناعة ممكننة ترتكز على أجمل الفنون التقنية، بيد أن اليد العاملة التي اختيرت لهذه الصناعة من الريف المجاور، كانت تحمل عقلية القرون الوسطى. واليوم فقد أصبح الشعار الرسمي للدولة هو المادية في أوضح صورها ومع ذلك فقد ألّه الشعب الروسي ستالين، كما ألّه الشعب الروماني الإمبراطور أغسطس. والبلشفية مذهب توسعي وتهدف إلى أن تكون داعية ورائدة عالمية لعقيدة اجتماعية جديدة، ولكن هذه البلشفية تحيط نفسها بسور منيع كسور الصين العظيم غير قابل للاختراق. وقد كنا نعرف بالأمس نبلاء من الروس عرفوا بسعة الرزق بشكل ليس له نظير في العالم؛ لكنهم كانوا ينامون في فراشهم بجزماتهم.

كتب كوستين يقول: «إن هذه الحكومة ذات الروح البيزنطية، ومعها كل روسيا، كانت تعتبر على الدوام أن جميع الممثلين الدبلوماسيين وخاصة الغربيين منهم هم جواسيس تمتلئ صدورهم بسوء النية والغيرة». وفي أيام حكم الإمبراطور نيقولا الثاني (Nicolas II) كما في ظل حكم ستالين كان كل فرد يجتاز الحدود يشعر مباشرة أنه موضع شك وريبة وكأنه بالفعل «جاسوس حاقد حاسد». ولقد حدث لأحد سفرائنا عشية قيام الحرب العالمية الأولى، أن أراد زيارة بعض المصانع الروسية، ولكن حكومة سان بطرسبرغ اعتبرت أن

وراء هذه الرغبة من جانب السفير ما وراءها من سوء النية. وأعتقد أن ممثلينا الدبلوماسيين الحاليين في موسكو لم تعد تراودهم مثل هذه الرغبة بتاتًا الآن بعد هذا الحادث. والواقع أن السوفيات - وهم تلاميذ تقنيون للغرب - لا يثقون في الغرب ويكرهونه كراهية عميقة؛ ولنذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الرجل الروسي، سواء أكان من مؤيدي القيصر أم ثوريًا، اعتبر على الدوام أن أسس الحضارة الغربية هي - من وجهة نظره - غير سليمة خلقيًا، وأنها تترك في نفسه نوعًا من الندم، بل إنه حتى عندما تفد عليه هذه الحضارة الغربية، نجده يرفض مبادئها ويشعر أنه ليس مستقرًا في مكانه وهو بداخلها.

وفكرة «الملكية الخاصة» التي هي إحدى الدعائم الفردية موجودة عند الروسي مثل غيره في أي بلد آخر، بيد أنها لم تكن عنده يومًا ما معتقدًا: وحتى ما قبل قيام الثورة البلشفية، فإنها كانت تترك فيه شعورًا بالريبة منها، وبالندم وتبكيت الضمير وكأنه يعيبه أن يكون مالكًا. والروسي الذي يقتني الأموال ويقوم بالأعمال ويراكم العقارات والثروات، كان معدودًا دائمًا وكأنه غير أمين، ولم يمنعه ذلك من أن يبحث عن الثروة كغيره من بني البشر. وقد عبّر برديائيف[9] (Berdiaev) عن هذه الفكرة في كتابه **العصر الوسيط الجديد** (*Nouveau Moyen Age*)، إذ يقول: «لقد كان الشعب الروسي في جميع الأزمنة، وهذا ما يميّزه، تحركه روح التحرر من كل ارتباط مادي، وهذا غير معروف لدى شعوب الغرب، ولم يحدث أن أحس في يوم ما بأنه مرتبط أو مقيّد إلى الأشياء المادية

---

(9) نيقولاي ألكسندروفيتش برديائيف (1874-1948) (Nikolaï Aleksandrovitch Berdiaev) فيلسوف ديني وسياسي روسي، ولد بمدينة كييف، لعائلة أرستقراطية، ويعتبر أحد أهم رواد الفلسفة الوجودية المسيحية. وقد بدأ تطوره الفكري بأن كان اشتراكيًا، حاول التوفيق بين ماركس وكانط، لكنه ابتداءً من سنة 1901 وتحت تأثير نيتشه خصوصًا، تخلى عن الماركسية، شارك في حركة التجديد الروسي وهي حركة دينية النزعة، ساهمت في حركة إصلاح وتجديد الكنيسة الروسية، انتُخب نائبًا في (مجلس الجمهورية) الذي لم يعش طويلًا. أنشأ الأكاديمية الحرة للثقافة الروحية، وفي عام 1920 صار أستاذًا في جامعة موسكو، حيث ألقى محاضرات نشر بعضها في سنة 1923 في برلين تحت عنوان معنى التاريخ، وبعضها الآخر تحت عنوان روح دوستويفسكي. طرد من روسيا في عام 1922 باعتباره (عدوًا أيديولوجيًا للشيوعية)، فلجأ إلى برلين، حيث عاش فيها في الفترة من 1922 إلى 1924. ثم انتقل إلى باريس في عام 1924 حتى وفاته في 22 آذار/ مارس 1948.

الدنيوية، ولا بالأسرة أو بالدولة، أو بحقوقه أو بالمتاع، أو بطريقة معيشته الخارجية. وإذا كان الشعب الروسي قديمًا مقيّدًا إلى الدنيا الفانية، فإن ذلك كان من خلال الخطيئة... وربما يكون الشعب الروسي شعبًا أقل استقامة وأمانة وأقل سلامةَ مسلكٍ من الشعوب الغربية، ولكن هؤلاء متعلقون - بحكم طبيعتهم نفسها - بالحياة الدنيا وما عليها وما في العالم من خيرات ومنافع. و«الملكية الخاصة» هي بالنسبة إلى أي رجل في أوروبا الغربية شيء مقدس لا يفرط فيها من دون أن يستميت في الدفاع عنها. وهو يعتنق أيديولوجية تسوغ له تعلقه بأشياء هذه الدنيا الفانية. والرجل الروسي - حتى حين تستبد به غرائز الطمع والبخل الجامحة - لا يعتبر الملكية الخاصة شيئًا مقدسًا، وهو لا يملك تبريرًا أيديولوجيًا معينًا لملكيته أشياء دنيوية. وهو يفضل في قرارة نفسه لو أنه يترك كل شيء ويضرب بترحاله على دروب الحج. ولم يكن لدى مالك الأرض الروسي في أي وقت أي اعتقاد مطلق بأن هذه الأرض أرضه بمعنى التملك النهائي. وحتى التاجر الروسي كان يظن أيضًا أن ثروته التي جمعها بطرائق غير واضحة، ليست طاهرة حقًا؛ وأن عليه أن يكفّر عن ذلك آجلًا أو عاجلًا. وخلاصة القول: إن كل روسي كان يعتقد أن النظام البورجوازي هو نوع من المعصية».

هذه الخصال التي يتحلى بها الشعب الروسي لا تنقصها القوة أو العظمة، ولكن علينا أن نعترف أنها تقف في الآن نفسه على النقيض من الطهرانية الأنكلوسكسونية البنّاءة، ومن الإنجاز الذي أقام مجد أوروبا منذ عصر النهضة، لا بل منذ القرون الوسطى. وهذه الخصال نجدها أيضًا وبصورة أكبر في التراث الإنجيلي. وحين أخذ الروسي عن الغرب تقنيته، فإنه لم يستطع أن يمحو من حياته هذه الروح السابقة، وهو يعتقد عن حسن طوية، كما أعتقد، أننا نحن الغربيين أناس مفسدون في الأرض. إنه يراكم في داخل ذاته وبشكل غريب خصالًا تنتمي إلى القرون الوسطى إلى جانب خصال أخرى تنتمي إلى عصر المكننة. ونحن نعرف كم كان الشعور الديني رائعًا عند تولستوي[10] (Tolstoï):

(10) الكونت ليف نيقولايفيتش تولستوي (1828-1910) (Lev Nikolaïevitch Tolstoï) من عمالقة الروائيين الروس ومصلح اجتماعي وداعية سلام ومفكر أخلاقي وعضو مؤثر في أسرة تولستوي، =

إنه يعبّر تمامًا عما عند الشعب الروسي. وهذا الشعور الديني ليس معتقدًا حلوليًا (يؤمن بوحدة الوجود)، نجده هنا على كل حال كما عند الألمان؛ بل هو عبارة عن مثالية تصوفية تنطوي على روح التضحية والإيثار والرسولية الاجتماعية. فالطريقة التي يتحدث بها المناضل عن التراكتور تنتمي إلى التصوف: إذ مهما أجهد نفسه في القول وتكرار التذكير بعدوانية عن أنه مادي، ولا شيء سوى ذلك، فإننا لا نستطيع إلا مقارنة لغته وسلوكه وحماسته، مع الفاعلية البراغماتية والواقعية للأميركي الذي يساوم على سعر التكلفة.

(4)

ها نحن إذًا أمام مواهب رائعة لامعة ونواقص معلومة! هذا الشعب موهوب جدًا، بل هو أكثر موهبة من الشعب الألماني الواعي الإرادوي الانضباطي الذي تحدثنا عن فعاليته في ما سلف. في روسيا نلتقي في كل خطوة نخطوها بالحيوية المتجددة والعفوية وعدم المبالاة، والروح المبدعة على كل حال. والروسي مبتدع خلاق أكان ذلك في مجال الإبداع الفني أم الإبداع الديني، ولكنه من وجهة نظر مقاييسنا الغربية يعتبر كائنًا ذا كفاية متوسطة. وتتضح هذه المسألة حين نرى إلى عدم الانتظام الأساس الذي لا يرتجى إصلاحه في الحياة اليومية في هذا البلد الذي يبدو فيه الزمن وكأنه مترام لا حدود له، مثل السهوب. إن الروسي، هذا البوهيمي، لا يملك معنى للوقت، فهو لا يتناول وجباته الغذائية في مواعيد محددة؛ وعندما نتذكر تقديس عامة الفرنسيين موعد وجبة الغذاء يتضح لنا الفارق الذي يفصل بين باريس وموسكو. كما أن فارق التوقيت في يوم من أيام تلك البلاد، مخيف جدًا في نظر حياتنا البورجوازية المنظمة. إن المناخ المحيط هو سبب ذلك بلا شك، والدليل أننا نعتاد مباشرة وبسرعة، حتى ولو لم يمر على إقامتنا هناك غير بضعة أيام، أن نتأخر في الاستيقاظ، وأن

= يعد من أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر وبعضهم يعده من أعظم الروائيين على الإطلاق. أشهر أعماله روايتي الحرب والسلام وأنا كارنينا وهما يتربعان على قمة الأدب الواقعي، فهما يعطيان صورة واقعية للحياة الروسية في تلك الحقبة الزمنية. بوصفه فيلسوفًا أخلاقيًا اعتنق أفكار المقاومة السلمية النابذة للعنف وتبلور ذلك في كتاب مملكة الرب داخلك.

نتناول فطور الصباح في وقت انحراف الشمس، وأن لا نخلد إلى النوم إلا وقت تبلغ الشمس ميعاد شروقها من جديد.

يبدو أن الحياة المنظمة، الثابة، لم تتأسس قط في هذه البلاد التي لا تعرف ساعة الوقت. ويلاحظ الإنسان هناك ضعف ارتباط الناس بالأرض، كما عندنا، ويلاحظ أيضًا تغلّب الحياة البدوية عليهم والتي يبدو أنهم أخذوها عن أجدادهم منذ قرون. ونشاهد الناس طبيعيًا على كل الطرقات وكأنهم قوافل حج مستمر، ولقد شعر تولستوي بالموت حين كان بعيدًا من منزله في محطة قروية صغيرة. وحتى الأمس كان الفلاح الروسي يحيا حياة القرون الوسطى، مستخدمًا في عمله آلات القرن الثامن عشر، وكان لا يجيد معرفة الحساب ويجهل المقاييس الأرضية. ومثل هذا النقص في الكفاية ليس من قبيل الدونية الموروثة في حضارة ورثوها، وإنما يتأخر الروس بقرن من الزمان عن الحضارة الأوروبية، وهذا يحتاج إلى وقت طويل لتعويضه. ولا يزال لدى الروس بعض عادات هي من عادات الجماعية الآسيوية. بيد أن الظروف التي يعيشها الشعب الروسي، وخصوصًا منذ الثورة، في المدن المزدحمة بالسكان، تخيفنا، مع مراعاة أن هذا الشعب لا يقاسي من اشتراك شخصين في غرفة واحدة كما نفعل نحن الفرنسيين. وقد تعوّد أن يعيش الواحد فوق الآخر، وأن ينام في أي مكان، يستوي لديه سقف محطة السكة الحديد وحجرة الانتظار وحجرة الاستقبال. وأتذكر هنا عائلة روسية كانت تقيم في مقصورة نوم مجاورة لغرفتي: كان السماور (غلاية روسية للشاي) يصفر دائمًا، وقد نصبوا أرجوحة نوم لطفلهم، ونشروا عدة تخييم كاملة في الغرفة، فكنت تشعر نفسك وكأنك في خيمة. هذه هي الصفات المميزة التي تصفع وجوهنا كلما تقدمنا من غربنا المنظم صوب الشرق، فنعرف حينها أننا اقتربنا من آسيا.

لدى الروس ذائقة ومعنى للعلاقات الإنسانية. ونحن نعرف شغفهم بالثرثرات المطوّلة التي تستمر إلى ما لا نهاية من دون أن تنتهي بالضرورة إلى نتائج. ولهذا وصفهم بعضهم أحيانًا بأنهم قوم ثرثارون، ولم يكن ذلك دائمًا مجرد افتراء عليهم. وأمام سيل الثرثرة في الكلام اضطرت الحكومة إلى

التدخل عبر فرض أوامر مشددة ووضع نظام قاس. وهذا من ألزم الواجبات لشعب يطيب له دائمًا أن يعرض المشكلات في المطلق، مصحوبة بفيض وافر من البراهين التقنية، وإن كان ذلك يحلق فوق الغيوم غالبًا، ومن دون أن يكون للوقت أي معنى أو دور هنا. وقد تفسر هذه الطريقة إلى حد كبير روح النظام الحاضر وأساليبه. ونحن نجد في إنجازاته بذلًا هائلًا تجاه قضيته وعاطفة تصوفية نوعًا ما، وفي الوقت نفسه جمع مبالغ به لتأشيرات وتدوينات فنية، ولأعداد وأرقام، مع مرونة دبلوماسية مدهشة، وصبر هو حقًا شرقي... وأخيرًا إذا أردنا أن نقارن نتائج هذا المجهود مع الجهد المبذول، لوجدنا أن المنتوج ضعيف جدًا.

وربما يرجع التناقض الذي ما نفتأ نراه يتكرر في شتى طباع هذا الشعب إلى تطورهم المتأخر نحو الحضارة. ولنتخيل أن روسيا هي تمثال بدأ ينفصل لتوه عن قطعة ضخمة من الصخر الخام مشوهة التركيب والتشذيب ومتوحشة. إن الروسي إنسان شديد الإنسانية، أكثر من الألماني، وهو يمكنه أن يحظى بمشاعر التسامح والخير والتقوى. ويبدو في حياته اليومية بسيطًا، مشرق الوجه، مع كثير من الخصال التي تشبه خصالنا. وليس جمهور الناس في مجموعه فجًا أو عدائيًا؛ بل إنه يوحي بالشعور بالرقة تجاه الأجنبي. وعلى الرغم من ذلك فإننا مضطرون إلى أن نقرر صراحة أنه شعب يتسم بالقسوة والوحشية والسكر، وقليل الاهتمام بالحياة الإنسانية، ولعل جنودنا وأسرانا في روسيا يعرفون ذلك أكثر من أي كان؛ وهو بذلك يترك عندنا انطباعًا رهيبًا بأنه جمع من التتار تدفق على أوروبا. فدخول القوات السوفياتية فيينا أو برلين، يذكّرنا بالغزوات البربرية التي قام بها أتيلا (Attila) أو جنكيز خان.

ولنقارن بين الروسي والألماني: يوجد عند الاثنين نوع من التردد وعدم القرار. الرجل الألماني مستكين منضبط نظاميًا وينخرط في مجتمع قوي البنيان والدعائم، يحتاج إليه كما يحتاج إلى مشد للظهر. أما الروسي فهو أيضًا مستكين، ولكنه أكثر عفوية، وهو يعيش أيضًا في ظل مجتمع قوي البنيان والدعائم وسلطوي، إلا أنه لا يندهش من هذا الوضع؛ لأنه يعتقد أن الأمور

سارت دائمًا على مثل هذا النهج. وعند الروسي التقنية شبه عقيدة عليه الإيمان بها، أما الألماني فإنه يعتبرها طبيعة من طبائع الإنسان.

وقد خدع الغرب تمامًا بروسيا، وخدعت فرنسا بروسيا القيصرية خصوصًا. انخدعنا نحن الفرنسيين أيام التحالف الروسي - الفرنسي بالمظهر الخادع لواجهة قوية تفرض نفسها. وأنا أذكر أننا كنا نعجب بقوة بأي سلطة لا تخشى من إثبات وجودها، ونعجب بالأزياء الرسمية الفاخرة على الطريقة الألمانية والتي يرتديها عظماء مهيبون. وكنا نعتقد أننا نجد في هؤلاء نسخة عن البروسيين الأقوياء الشديدي الفاعلية الذين هزمونا عام 1870. ولكننا والحق يقال لم نلمس فيهم لا العمل نفسه ولا الجدية نفسها التي كانت للألمان، بل هي كانت استبدادًا شرقيًا آفلًا وفاسدًا، فوضويًا، على الرغم من جمال مظهره. لم يخطئ بسمارك في ذلك وهو الذي كشف، قبل فترة طويلة من تبوئه منصب المستشار، الضعف الأولي الكامن في صلب النظام الإمبراطوري الروسي. ولم يكن ينبغي لنا أن نتعجب من انهيار هذا النظام الإمبراطوري عام 1917. واليوم تطالعنا روسيا جديدة تخرج من تحت أنقاض روسيا القديمة، ويبدو أنها تختلف عن روسيا القديمة في مظاهر عديدة. ونحن نخطئ إذا اعتقدنا أن هذا التغيير كان جذريًا؛ لأن الخصال المميزة للشعب الروسي - التي تحدثنا عنها بالتفصيل آنفًا - لم تتغير. وعلى الرغم من أن شباب النظام الروسي الحديث ينطوي على بعض الأخطاء، فإنه يتحلى ببعض الصفات. فهل هذه الصفات لم يكن لها وجود سابقًا، وهل النواقص والأخطاء قد جرى فعلًا تصحيحها؟

لا أريد في بحثي هذا إبداء آراء تخالف الواقع الملموس، على أنني إضافة إلى الكتب التي استقينا منها آراءنا حول روسيا، وبالأخص كتب أناتول لوروا بوليو[11] (Anatole Leroy-Beaulieu) أو الماركيز كوستين، على سبيل المثال، قد

---

(11) أناتول لوروا بوليو (1842-1912) (Anatole Leroy-Beaulieu) مؤرخ وكاتب مقالة فرنسي وهو صاحب رواية فرقة من الممثلين (*Une troupe de comédiens*) وهي رواية تاريخية عن مرحلة النهضة الإيطالية أو الإحياء (Risorgimento) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتي أدت إلى توحيد إيطاليا. زار روسيا لتجميع وثائق حول التنظيم السياسي والاقتصادي للشعوب السلافية وأصدر بعد عودته سلسلة مقالات في مجلة العالمين (1882-1889) (*Revue des Deux Mondes*) أعيد نشرها في كتاب بعنوان =

يكون من المعيب أن نهمل بعض المؤلفات الأخرى، لا لأنها مؤلفات مجهولة، بل لأنها مؤلفات لم تُحمل على محمل من الجدية، وأنا لا أتحدث هنا عن رواية ميشال ستروغوف (رواية مغامرات تاريخية نشرها جول فرن عام 1876)، وهي بالمناسبة سيئة للغاية بوصفها دليلًا للمعرفة، وإنما أتحدث عن الكونتيسة دو سيغور[12] (comtesse de Segur)، المولودة روستوبشين بالمناسبة. فكم من الخصال الآسيوية الحقة في قصص الأطفال تلك والتي كان يلذ لهم قراءتها، كما أنها كانت تحمل عظات الأهل الأخلاقية على خلفية من براءة بدائية، واقعية، لا بل وربما كلبية. وكانت بعض العقوبات التي وقعت على صوفيا وحشية مثل سادية التتار، ومع الجنرال دوراكين (إحدى روايات الكونتسية دو

= مملكة القياصرة والروس (l'Empire des Tsars et les Russes) (4e éd., révisée en 3 t., 1897-1898). كما أصدر كتبًا أخرى عديدة عن روسيا وعن اليهود والأرمن والبابوية ومعاداة السامية... إلخ. انتخب أستاذًا للتاريخ المعاصر وشؤون الشرق في معهد العلوم السياسية بباريس (1910-1880) الذي صار مديره من 1906 إلى 1912. كان بعد 1901 آخر رئيس للرابطة العالمية لمكافحة الإلحاد.

(12) صوفيا روستوبشين الملقبة بالكونتيسة دو سيغور (سان بطرسبرغ 1799 - باريس 1874) (Sophie Rostopchine, comtesse de Ségur) سيدة أدب فرنسية من أصل روسي لأسرة من النبلاء تعود إلى خانات المغول من عائلة جنكيز خان. عاشت طفولتها في أراضي والدها قرب موسكو، حيث كان يعمل أكثر من 4000 قن وفلاح، وتلقت التعليم التقليدي لأبناء الأرستقراطية الروسية التي كانت تفضل اللغة الفرنسية وآدابها، وفي شبابها كانت تجيد 5 لغات. تحولت والدتها من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية بتأثير اليسوعيين وجوزيف دو مايستر (Joseph de Maistre) الوزير المفوض مطلق الصلاحيات لملك سردينيا عند القيصر، فنشأت كاثوليكية مثل أمها. وعند غزو نابليون لروسيا 1812 كان والدها حاكم موسكو وهو الذي أشعل موسكو بحرائق أدت لانسحاب نابليون وهزيمته، ولكن هذه الخطة تسببت بنقمة التجار والنبلاء الذين فقدوا بيوتهم وأملاكهم بفعل الحريق. وغضب عليه القيصر أيضًا فاضطر فيودور روستوبشين إلى المنفى الاختياري إلى بولندا 1814 لا يرافقه سوى خادمه، ثم إلى ألمانيا فإيطاليا وأخيرًا استقر في فرنسا 1817. وفي كل البلدان التي ارتحل إليها استقبل استقبال الأبطال منقذًا للملكية الأوروبية. في باريس تعرفت صوفيا إلى أوجين (1798-1869) ابن المارشال دو سوغير الذي كان سفيرًا لفرنسا في روسيا وهو ابن شقيق الجنرال فيليب دو سوغير مساعد نابليون الذي كاد يموت في حريق موسكو. بعد الزواج 1819 عادت أسرة صوفيا إلى روسيا. ولكن زواجها الذي بدأ سعيدًا غرق لاحقًا في الخلافات بسبب سلوك زوجها الذي تركها وحيدة في القصر مع أطفالها ثم أحفادها فكان ذلك بداية مسيرتها في كتابة القصص الصغيرة للأطفال مما كانت ترويه لهم في قصرها. انضمت عام 1866 إلى رهبنة الفرنسيسكان باسم الأخت ماري فرنسواز، ولكنها واصلت الكتابة من منزلها في باريس، حيث توفيت عام 1873 وكتب على لوحة قبرها: «الله وأطفالي». نالت رواياتها وقصصها شهرة عالمية لم تنقطع.

سيغور تروي قصة الصغيرة صوفيا التي صارت الكونتيسة لاحقًا) كنا ننغمس في وسط روسيا وعمقها. والعرس الذي تصفه رواية نزل الملاك الحامي ألم يكن يوحي لنا بتلك الولائم الفخمة الباذخة التي كان المضيف السوفياتي يدهش بها زواره الغربيين، أكثر من مجرد كونها وليمة نورماندية؟ ولا ننسى هنا أن الدعاية للنظام الستاليني تشعرك بأن هذا النظام لا ينتمي أبدًا إلى روسيا البورجوازية والمنحطة لعهد نيقولا الثاني، وإنما إلى روسيا العظيمة لزمن بطرس الأكبر.

الفصل السابع
الدينامية الأميركية

بعد أن صار الفرع الأكثر أهمية في العالم الأنكلوسكسوني غدا الشعب الأميركي أحد العناصر السائدة للعرق الأبيض. ومن جهة أخرى، فقد صار يعتبر أكثر فأكثر أنه أحد قادة هذا العالم، وخصوصًا الضامن والحامي لحضارتنا الغربية المهددة. وليس هذا مبعث دهشة لنا، لأن مساهمة هذا الشعب في تقدم الإنسانية منذ ثلاثة قرون، هي مساهمة بارزة معروفة: وإذا كانت الولايات المتحدة هي التعبير الأكثر أصالة عن العصر الميكانيكي، فإن الديمقراطية الحديثة لا تفهم ولا تحس لولا الشكل الذي اتخذته في الولايات المتحدة، في حين أن مقومات الحياة المادية ومستلزماتها في العالم يعاد صياغتها على مستوى أميركا.

كان نشوء هذه الحضارة الجديدة حقًا نتيجة عوامل عدة متداخلة متشابكة أولها العامل الجغرافي في قارة متميزة تختلف الطبيعة فيها كثيرًا عن أوروبا. ويلي ذلك العامل الإثني، فثمة الآن وحدة إنسانية جديدة تمخضت عن انصهار جميع الأعراق الأوروبية في المصهر الأميركي. وهناك أخيرًا حقيقة حديثة للغاية وهي أن الولايات المتحدة قد أضحت فجأة، ومن دون المرور بمرحلة انتقالية، قوة عالمية كبيرة. وهذا التفتح السريع لم يكتمل، بحيث إننا نشعر وكأننا نعيش مرحلة مخاض وتخلق لكائن جديد، هو في سيرورة تغيّر كل عشر سنوات أمام ناظري المراقب الحصيف، فأميركا ليست بلد ما هو نهائي، ويجب على الدوام إعادة فحص وصفنا لها.

(1)

بوصفي تلميذًا نجيبًا للسيد دو لا باليس[1] (M. de la Palisse) فإنني أبدأ بالتذكير بأن الولايات المتحدة تقع في العالم الجديد، وأن العالم الجديد هو جديد. فلو أننا لا نرى الأمور من خلال هذا الطابع الأوروبي القاري الذي يشدد على أن أميركا ليست أوروبا، فإننا سنقع في سوء فهم مستمر.

إن أول ما يبهر أبصارنا ويهز مشاعرنا في هذه البلاد، هو عظمة الطبيعة التي يبدو أنها خُلقت على غير منوال طبيعتنا. فشلالات نياغارا ونهر الميسيسيبي والسهول الشاسعة في الغرب وسلاسل الجبال الصخرية الممتدة في الغرب من ألاسكا شمالًا حتى المكسيك جنوبًا، كلها مظاهر جغرافية لا يمكن أن نقارنها ببنيتنا الأوروبية المعروفة، بل هي تذكّرنا أكثر بتلك القارات الكثيفة الأشجار والمرتفعات التي هي أفريقيا وآسيا، لا بل وحتى تلك البلاد الروسية التي أجاد لوك دورتان وصفها في ما سبق. ويجب علينا أن نضع دائمًا في الحسبان التناقض بين أميركا تلك القارة الضخمة ككتلة البناء الصلب، وأوروبا المتمفصلة المترابطة: فمن جهة قارة ليس فيها رؤوس أو خلجان، لا يدخلها البحر، فكأنها تشبه على الخارطة قطعة من الأثاث مربعة الشكل صلبة النوع (صوان أو خزانة الثياب المسماة بالعامية كومودينة)؛ ومن الجهة الأخرى تمفصل مترابط متلاحق بدقة وخفة، بحيث يتسلل المناخ البحري إلى قلب القارة ويقذف بها في الوقت نفسه إلى عمق المحيط بواسطة رؤوسها وخلجانها الجريئة. وهنا لا نعود أمام قطعة أثاث جامدة (خزانة مربعة) بل أمام يد دقيقة ضامرة مشيقة.

---

(1) جاك الثاني دو شابان (Jacques II de Chabannes) الملقب بجاك دو لا باليس (Jacques de La Palice) (1470–1525) نبيل وعسكري فرنسي سيد قصور عديدة في فرنسا منها قصر لا باليس. خدم ماريشالًا تحت حكم 3 ملوك فرنسيين وشارك في كل حروب إيطاليا الفرنسية.

أعطى اسمه لعبارة صارت شائعة Lapalissade وهي تعني تفسير الماء بالماء، أو تحصيل الحاصل، أو تأكيد المؤكد، وسببها أنه عند شاهد قبره كتب: للأسف لو أنه لم يمت لكان الآن موضع حسد Hélas (s'il n'était pas mort/Il ferait encore envie)... وأدى خطأ في الكتابة إلى جعلها تُقرأ «للأسف لو أنه لم يمت لكان الآن حيًا» (Hélas s'il n'était pas mort/Il serait encore en vie).

من هنا ينشأ في أميركا نوع من العلاقات الخاصة بين الإنسان والطبيعة. والواقع أن الإنسان في أميركا قد أخضع الطبيعة في انتصار عظيم ساحق. ولكننا لا نستطيع أن نقول إنه قد تكيف معها. وبحسب الإنسان الأميركي، فإن قوانين الزمن والصيرورة والنضوج لم تُجعل أصلًا له، وبالتالي فهي لا تعني شيئًا. وتفاخر الولايات المتحدة علنًا بأنه ليس لديها فلاحون، والحق أنه ليس عندها لا فلاحين ولا حكمة الفلاحين: وهي لا تعرف، بل لا تريد أن تعمل حسابًا للحدود والعوائق التي يفرضها المناخ، وسوء استخدام الأراضي، وهي مقتنعة بأنه يمكن تعنيف الطبيعة والتغلب عليها وأن نجعلها تعطي بالقوة ما لم يكن من الممكن أن تعطيه. والحال أن هذه الطبيعة استجابت حتى الآن لهذه الادعاءات ومنحت بسخاء بدأ اليوم ينقص. وعلى الرغم من بعض الهرم المبكر، إلا أن ما يصدمنا كثيرًا هو ذلك الشباب في موارد تلك القارة التي كانت بالأمس فحسب بكرًا لم تستغل، ما يجعلنا نستعيد كلمة لا بروبير (La Bruyère): «إن شباب الأمير منبع للثروات العظيمة». وإلى جانب ذلك يدهشنا كم هناك من الأراضي في متناول يد الإنسان. ويترتب على ذلك أن مفهومهم بالنسبة إلى الأرض والسيادة عليها يختلف عن مفهومنا، وهذا يؤدي إلى سياسات مختلفة إلى الأراضي بين الأميركيين والأوروبيين، بحيث إن سوء الفهم بينهما يبقى ثابتًا. وهذه الأراضي لا أحد يتقاتل عليها أو حولها، ولا يدور في خلد أحد أن يفعل ذلك، طالما أن هناك كثير منها على قدر ما نريد: خذ كندا أو خذ المكسيك أو خذ أي مستعمرة أخرى، وكلها تصورات واضحة في ذهننا ولكنها لا تعني شيئًا للأميركيين، إذ هم لا يملكون معنى السيطرة على الأراضي وضمها. وإذا «أخذوا» منها، وهم يفعلون ذلك مثل غيرهم، فإن ذلك لا يكون على أساس ضم مساحات من الأرض وتوسيع الحدود، بل من خلال السيطرة والهيمنة الاقتصادية والصناعية والتجارية، فالضم الكامل لا يهمهم البتة.

وتعطينا ظروف الإنتاج في أميركا التعارض نفسه مع البلاد الأوروبية. ففي أميركا - وهي البلد الذي لا يزال شابًا من الناحية الاقتصادية - والذي ما انفكت الطبيعة فيه طيعة على سهولتها في خدمة الإنسان هناك، من المفارقة

أنك تستطيع هنا أن تبتكر ثروات جديدة من أن تقتسم فيها ثروات موجودة، وهذا على عكس ما يجري عندنا، في أوروبا المتعبة، حيث تقل فيها الثروات الطبيعية كثيرًا عن مثيلاتها في أميركا، وبالتالي حيث أضحت فيها المشاركة في الثروات أسهل من إنتاجها. غير أن نتيجة هذا أنه من حيث أصبح الأوروبي ثوريًا يطالب بالمشاركة في الإنتاج، فإن الأميركي يبقى محافظًا سياسيًا، ويضع الإنتاج أولًا. فالمقارنة هنا هي بين قارتين، وقد يكون من الأفضل أن نقول: إنها بين جيلين: جيل الشباب من جهة، وجيل النضج والتكامل - ولا نقول الشيخوخة، من جهة ثانية.

تثيرنا تلك الخصال التي يدين بها الأميركي لعالمه الجديد الذي يعيش فيه، وأكثر ما يثير فيها تفاؤله الخِلقي الوراثي والذي لم تتزعزع أركانه كثيرًا باشتراك الولايات المتحدة مؤخرًا في مشاكل العالم القديم. ولكل أميركي ثقة فطرية في المستقبل عمومًا، وفي مستقبله خصوصًا، وفي مستقبل بلاده طبعًا. أما في أوروبا فقد كان لدينا الثقة التامة نفسها في حظنا في الحياة منذ مئة عام تقريبًا، أي في أواسط ذلك القرن التاسع عشر الدينامي، لكنا فقدنا هذا الإيمان، وقد فقدناه بثمن بخس. وعندما كنا نذهب إلى الولايات المتحدة - في الأقل في سنوات الازدهار الكبير، إن لم يكن في أوقات الأزمات، 1925، 1945 (نعم 1945 على الرغم من الحرب، وربما بسببها)، كنا نجد فيها ذلك الجو المليء بالنشاط المتدفق: ما كان يعني إيمان الإنسان بأنه يستطيع كل شيء، ولا شيء مستحيل على نشاطه وإرادته. ذاك هو كبرياء الرائد الذي صنع لبلاده مكانة كبرى، وتلك هي أيضًا حرية الفكر لدى رجل يثق بأن المستقبل ملكه، ولا يشعر بأنه سجين الماضي.

وقد تكون أميركا هي بذاتها دائرة دوارة. والحال أن الجهل ببعض القوانين الطبيعية - مثل ما يختص منها بتأكل الأراضي - يُجبر الأميركي على تصحيح بعض طرائقه. وقد يكون بالإمكان بلا شك، إجبار الطبيعة على أن تغير في وقت من الأوقات، حتى من نمطها ووتيرتها. فهل نستطيع أن نفعل ذلك في كل الأوقات؟ إن النتيجة النهائية لهذا العمل لا تزال مجهولة إلى الآن: وكي نستعير

عبارة من عبارات بول فاليري[2] (Paul Valéry)، فإن في الأمر «مغامرة كبرى». والمشكلة التي تثيرها هذه المغامرة هي معرفة إذا ما كان في مقدور الإنسان الانفكاك عن الطبيعة.

يبدو أن الشروط الضرورية كي نفهم هذا البلد فهمًا جيدًا، بوصفنا أوروبيين، دقيقة للغاية. فعلينا أولًا أن نعترف لأنفسنا بأن الأميركي لا يقف تطوره عند حد، وهو تطوّر مستمر بوتيرة سريعة. والأميركي لم يحدد نفسه، لا من الناحية العضوية، لأن العرق أو العنصر ما زال في أميركا يتطور ويتحول، بانصهار عناصر عدة فيه، ولا من الناحية الجغرافية، إذ يبدو أنه لا يزال يحتفظ بميل نحو حياة البدو الرحل، وذلك من أثر الهجرة؛ ولا من الناحية الاجتماعية فهو متحول غير مستقر في أعماله واهتماماته. ويجب أن نتعرف أيضًا بصدق في حقيقة القارة الأميركية، ماديًا، كي نكتشف أن مقاييسها لا تتشابه مع مقاييسنا، وأن مناخها غريب (exotique) بالنسبة إلينا، وأن ألوانها وعطورها وخطوطها تختلف تمام الاختلاف عن مثيلاتها عندنا. كما يجب أن نلاحظ أن وتيرة الحياة سريعة جدًا عند شعب ذي مزاج بطيء، وهذا ما ينفرد به الأميركي عن الشعوب الأخرى، كما أن طبعه وحرارته الأخلاقية لا تساوي ما هو عندنا في أوروبا، بل هي ليست أصلًا موجودة.

---

(2) بول فاليري (1871-1945) (Ambroise Paul Toussaint Jules Valéry) كاتب وشاعر وفيلسوف فرنسي. بدأ شعره ضمن التيار الرموزي (mouvance symboliste) ثم تعرف إلى أندريه جيد (André Gide) ودخل معه في حلقة ستيفان مالارميه (Stéphane Mallarmé) الذي ظل فاليري وفيًا له حتى وفاته. تعرض في مدينة جنوى لما وصفه أزمة وجودية خطيرة وقرر ترك الأصنام في الأدب والحب... إلخ. كي يكرس جل حياته لما سماه «حياة الروح». انتقل عام 1894 للإقامة في باريس، حيث بدأ يعمل محررًا في وزارة الحربية حيث ارتبط مع بول ليوتو (Paul Léautaud). وظل بعيدًا من الكتابة الشعرية ليتفرغ لمعرفة ذاته والعالم. لكنه عاد عام 1917 إلى الشعر بتأثير من أندريه جيد وأصدر دواوين شعر عدة حتى تحول بعد الحرب إلى ما يشبه «الشاعر الرسمي» وتتالت عليه التقديرات ومدائح التبجيل. دخل الأكاديمية الفرنسية وصار رئيسًا لنادي القلم الفرنسي وعضوًا في مجلس المتاحف الوطنية ومديرًا للمركز الجامعي المتوسطي في نيس وفي غيرها من المناصب والمراكز... كما أنه نال العديد من أوسمة الاستحقاق والشرف. رفض التعاون مع الاحتلال الألماني وكلفه ذلك فقدان مناصبه، ولكنه شارك في تأسيس جبهة المقاومة الوطنية وتوفي في تموز/ يوليو 1945 قبل أسابيع على انتهاء الحرب. أصر الجنرال ديغول على إقامة مراسم تشييع وطنية له.

لأن تعبر المحيط الأطلسي يعني أن تتغرب، لا عن الوطن فحسب، بل عن القارة كلها. وحين نتحدث عن هذا العالم الجديد يجب أن نترك تعبيراتنا الخاصة جانبًا؛ لأن كلماتنا تلبس معنى آخر في هذه البلاد، يتسبب عنه سوء فهم دائم في حال أردنا استخدام هذه الكلمات. في روسيا تشعر بأنك لم تعد في الغرب ولكنك في الأقل ما زلت في أوروبا. أما هنا في أميركا، فنحن ما زلنا في الغرب طبعًا، ولكننا لم نعد في أوروبا، وهذا ما يجب ألا يغيب أبدًا عن تفكيرنا.

(2)

من الحوادث المهمة في تاريخ الولايات المتحدة، استيطان أعداد كبرى من المهاجرين القادمين من أوروبا في هذه البلاد. هذه الحركة البشرية الكثيفة كانت أكثر أهمية عدديًا بما لا يقاس، من غزوات البرابرة في القرن الخامس الميلادي. فهلا ندرك أن أربعين مليونًا من الأوروبيين تركوا العالم القديم إلى الولايات المتحدة في ما بين عامي 1815 و1914، من بينهم ما يزيد على الثلاثين مليونًا قصدوا أميركا الشمالية مباشرة؟ والنتيجة الأهم لهذا الانتقال الإثني الضخم، ليس أقل من ولادة فرع جديد للعرق الأبيض في قارة أخرى. صحيح أن العناصر كانت موجودة وقديمة إلا أن الازدراع أنبت شعبًا جديدًا، تكاد عملية الاندماج تجعل من الصعب التعرف إلى ملامحه. وعلينا أن نضيف هنا أن هذه الهجرات حملت مع العرق الأبيض أعراقًا شتى من السود والصفر، مع استمرار وجود شعب هندي قبل هؤلاء وأولئك. ومن هنا فقد كثرت في أميركا المشكلات الدخيلة المتعلقة بتكيّف هذه العناصر الأجنبية وتواصلها مع بعضها بعضًا، ومثل هذه المشكلات لا نظير لها في أوروبا وإن كان لها نظير ربما في مستعمراتها.

ويمكننا أن نتبين في هذا الشعب المتولد كله من الازدراع، ثلاث موجات رئيسة من الهجرة. فالموجة الأولى التي حصلت في القرنين السابع عشر والثامن عشر تطابقت مع استعمار، إنكليزي وبروتستانتي، ومنها انبثقت

طائفة البيوريتانيين[3] (الطهرانيين) في إنكلترا الجديدة (نيو إنغلاند) وطائفة الكوايكرز[4] الموجودة في فيلادلفيا، وعلى مستوى مختلف تمامًا المزارعون في الجنوب، وهم طبقة أرستقراطية وأنغليكانية (الكنيسة الإنكليزية الرسمية) كانت من ملاكي العبيد. وبذلك كان قوام المجتمع الأميركي يتشكل من هذه العناصر الأولية، إضافة إلى بعض العناصر الهولندية والألمانية التي لا تغيّر كثيرًا في هذا التركيب. هذا التشكيل الأول للمجتمع ظل هو الحاسم، ومن دون أن ننسى أن هؤلاء الأجداد لم يكونوا رجال صناعة، ولكنهم جلبوا معهم جميع الصفات الفردية من نشاط وزهد كان تميّز بها الرواد الأوائل.

تبتدأ المرحلة الثانية في القرن التاسع عشر من بداية عام 1815، ولكن خصوصًا في الفترة ما بين عامي 1840 و1880، وقد جلبت إلى الولايات المتحدة عشرة ملايين من المهاجرين تقريبًا. وقد هاجر هذا العدد الضخم من أوروبا هربًا من المجاعات والثورات والاضطهادات التي حلت بالبلاد في تلك الفترة. وقد رحل هؤلاء عن بلادهم وهم مقتنعون اقتناعًا تامًا بأنهم سيجدون في هذا العالم الجديد حياة جديدة تحقق لهم الحرية: حرية السلوك

---

(3) البيوريتانيون أو الطهرانيون (Puritans) هم جماعة من البروتستانت الإنكليز في القرنين السابع عشر والثامن عشر تنتمي إلى عقيدة كالفن، ولكن تضم أتباعًا من عقائد أخرى، تشكلوا بعد وصول الملكة إليزابيث الأولى إلى العرش البريطاني عام 1558 حركة نشطة من داخل الكنيسة تدعو إلى الإصلاح الديني والأخلاقي والاجتماعي معتبرين أن كنيسة إنكلترا صارت خاضعة لحكم البشر وأهوائهم وصراعاتهم... وهم واحدة من الجماعات التي قررت أن الكنيسة لم تعد قابلة للإصلاح فانشقوا وتعرضوا لاضطهادات كبيرة من الملك والكنيسة ما اضطرهم إلى الهرب إلى أميركا، حيث أسسوا مجتمعات عدة أولها وأشهرها في نيو إنغلاند.

(4) الكوايكرز (Quakers) هم أعضاء جمعية الأصدقاء الدينية (Religious Society of Friends) التي نشأت في إنكلترا منتصف القرن السابع عشر (بعد الحرب الأهلية (1642-1651)) من انشقاق جماعات وأفراد عدة من البروتستانت الإنكليز عن كنيسة إنكلترا الرسمية وأبرزهم وقائدهم الأول هو جورج فوكس (George Fox) وتميزوا بالتبشير بالإنجيل (وبين المبشرين نساء شهيرات) وبرفض الخدمة في الجيش وبلباسهم التقليدي القديم وبتشديدهم على الترجمة الشخصية مع المسيح وعلى أن كل المؤمنين والمؤمنات يمكنهم أن يكونوا رجال دين (قساوسة) واضطروا أيضًا إلى الهجرة إلى أميركا (منذ عام 1662) بعد موجة اضطهاد لهم وتعذيب رهيب تعرضت له نساء مبشرات منهم، وتركزوا خصوصًا في الشمال الشرقي للولايات المتحدة، منذ عام 1680، خصوصًا في رود آيلاند، كما أسسوا ولاية بنسلفانيا على اسم أحد روادهم وليام بن (William Penn) الذي كان أول من وقّع معاهدة صلح وتعايش مع الهنود الحمر في المنطقة.

وحرية العمل وحرية المعتقدات السياسية. وقد كان أغلب المهاجرين في هذه الفترة من الإنكليز والاسكتلنديين، ثم تبعهم بعد ذلك سيل كبير من الألمان والأيرلنديين والاسكندنافيين واليهود. وبذلك اتجهت الولايات المتحدة إلى التخلص من طابعها الإنكليزي الأصلي، مع بقائها ذات لون أنكلوسكسوني بشكل رئيس. وهي بدأت تتخذ لنفسها طابعًا من الجدية الألمانية يحمل الذوق الجرماني للنظام والإدارة والتنظيم. وقد ظهر من هذه العناصر المهاجرة جميعها عنصران بدآ العمل بمجرد أن وطأت أقدامهما أرض البلاد: الأيرلنديون وقد استولوا على إدارة البلديات في المدن الكبرى، وهم كاثوليك، وقد طبعوا أهالي المدن التي استقروا فيها بطابع غريب ساحر هو من روح الكلتيين مع ما فيه من ذوق ظريف وحب للفانتازيا والمرح والفوضى، والتي من دونها تصير حياة البيوريتانيين مملة لا تطاق. أما العنصر الثاني وهو اليهود، فقد جلبوا معهم القلق والتطفل وبحثهم المضطرب عن المال وعن الأفكار، والتغير الترحالي في نمط حياتهم والمولّد للبلبلة وتعكير صفو الحياة. وقد خلق تأثير هذين العنصرين من الولايات المتحدة، بلدًا أقل حصرية بروتستانتية، كما خلق تأثير العنصر الألماني فيها بلدًا أقل حصرية إنكليزية. إنها إذًا أميركا جديدة ترتسم أمامنا مختلفة إلى حد كبير من الأولى، وشديدة الاختلاف عن التي ستليها كما سنرى لاحقًا. والحال أن عبارة بول بورجيه[5] (Paul Bourget) «ما وراء البحار» (l'Outre-Mer)، وكذلك عبارة أبل هرمان (Abel Hermant) «عابرات المحيط الأطلسي» (les Transatlantiques) ترتبطان تمامًا بهذه المرحلة من تاريخ الولايات المتحدة.

وتبدأ المرحلة الثالثة من عام 1882 وتستمر حتى عام 1914، وهي مرحلة أهم بكثير من المرحلة الثانية، حملت معها هجرة «22» مليونًا من الأنفس يمثلون

---

(5) بول بورجيه (1852-1935) (Paul Bourget) كاتب كاثوليكي فرنسي أطلق ردة الفعل ضد تيار الطبيعية في الأدب (وهو التيار الذي عمل على إدخال مناهج وطرائق العلوم الاجتماعية والإنسانية إلى الأدب وقد كان رائده إميل زولا). تميز بدقة دراساته للأخلاق والطباع والأمزجة ما لاقى استحسانًا في الأوساط العالمة الباريسية أيام الجمهورية الثالثة، خصوصًا رواياته التي داعبت خيال الشبيبة الباحثة عن حلم الحداثة. ثم انتقل إلى الرواية التي تدور حول فكرة أو قضية ليفسر ويشرح أسباب القيم والأخلاق فكتب روايات ذات طابع سيكولوجي، وذلك بتأثير من تحوله الديني نحو ممارسة الكاثوليكية وحاول إقامة توليف بين العلم والإيمان. واتخذ مواقف سياسية مع الملكية وضد درايفوس.

عنصرًا آخر غير العنصر الأنكلوسكسوني ألا وهو العنصر الصقلبي (السلافي) - اللاتيني. وبذلك فقد صارت عناصر البحر المتوسط وأوروبا الشرقية تمثل 77 في المئة من مجموع سكان الولايات المتحدة. وهؤلاء يختلفون عمن سبقهم من المهاجرين في أهداف هجرتهم، إذ هي الأجور المرتفعة والرغبة في التخلص من مستوى حياة متدن في مناطق من العالم القديم أقل تطورًا. ويجب أن نضيف إلى ذلك أن الأمر بات نوعًا من هجرة منظمة إلى أميركا من طريق شركات الملاحة أو جمعيات للهجرة، ومن هنا ما لحظناه من طابع مطاوع لدى هؤلاء المهاجرين الجدد. فهم قوم فقراء يدين معظمهم بالكاثوليكية، وقد تكدسوا في الأحياء الفقيرة من المدن الكبرى، وكانوا بطيئين في اندماجهم بمحيطهم. وبذلك فقد تزود السكان الأميركيون القديمون بعناصر مختلفة في العرق والطباع من دون أن يعني ذلك تخليهم عن طابعهم الخاص.

من هنا طُرحت مشكلة على جانب عظيم من الأهمية كانت أميركا عرفتها سابقًا، إلا أنها باتت أكثر حدة، وهي تتعلق بكيفية استيعاب ودمج كل هؤلاء المهاجرين الذين دخلوا بجرعات كبيرة في الجسم الأميركي. سيستلزم الأمر مرور 3 أجيال كي تتم هذه العملية. فالمهاجر الأول يظل طوال حياته ينتمي إلى بلده الأصلي: وهو يمكنه بالطبع أن يتعلم اللغة الإنكليزية، على الرغم من أن هذا لا ينطبق على الجميع على كل حال، إلا أنه سيظل ينطقها بلهجة خاصة به. وهو يمكنه بالطبع أن يلبس على الطريقة الأميركية وأن يحاول العيش على الطريقة الأميركية، إلا أننا سرعان ما سنلحظ أنه ليس أميركيًا منهم. أما أبناؤه فهم يختلفون عنه: فقد درسوا في المدرسة الرسمية ولم يعرفوا غير الإنكليزية كلغة، وصاروا مستوعبين بهذا الوسط الأميركي إلى ما يزيد عن النصف، ولا يأتي في بالهم إلا نادرًا أن يفاخروا بأصلهم القديم، إن كانوا يعرفونه. لا بل إننا نرى منهم من صاروا يحتقرون أهلهم ويجددون تجاههم نكران القديس بطرس[6]. أما الجيل الثالث فهو جيل مندمج تمامًا، فلم يعد هناك أي ذكرى لأصولهم الأوروبية، وأسماؤهم صارت إنكليزية، وكثيرون منهم تحولوا من الكاثوليكية واليهودية فصاروا ميثوديين أو أنغليكان. وإذا كان هذا النمط

(6) المقصود نكرانه للسيد المسيح ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك، بحسب ما جاء في إنجيل لوقا: «في هذه الليلة، قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات» (لوقا 11/ 28).

الثالث لم يستطع أن يكون أنكلوسكسونيًا من الناحية الجسمانية الخالصة، فإن هيئته وشخصيته قد صارت أميركية قلبًا وقالبًا. وإن كان بقي في العمق بعض المخلفات التي لم ينجح الصهر في إنهائها، فإن الأمر لا يعدو كونه مجرد ظلال من الفروق لا تلحظها إلا العين الفاحصة المدققة.

هل نستطيع ضمن هذه الظروف أن نقول إنه تيسر لأميركا أن تستوعب الهجرات في بوتقتها وقالبها؟ وإلى أي حد استطاعت أن تجعل من المهاجرين الإيطاليين والروس والبلقانيين والألمان أميركيين فعلًا؟ وإذا كنا في هذا المقام نقصد السلوك في حد ذاته - فقد نجحت أميركا حتمًا في ذلك: فهناك طريقة أميركية خاصة في الكلام والإحساس والفعل والمناقشة والموقف، وكل هذه الصفات نجدها عند الجيل الثالث، كما نراها تمامًا عند من ينحدر مئة في المئة من موجات مؤسسي البلاد. وعلى الرغم من هذا، فإن وزن العناصر الغريبة كبير خصوصًا في المدن الكبرى التي تقع على المحيط الأطلسي، وهذه المدن هي رصيف الرسو للجسم الكبير من الهجرات. في نيويورك مثلًا لا نشعر بأننا أمام شعب متجانس منصهر: ففي «برودواي» في الجادة الخامسة، نشاهد خليطًا من الناس منهم الأبيض والأسود والأصفر وبعض الأجانب الذين لا نستطيع أن نميّزهم من مجرد لونهم. وإذا أدخلنا في اعتبارنا كذلك «لافتات» المحلات التجارية، فإن اللافتات ذات الأصول الإيطالية والنمساوية والبلقانية والروسية لا تعد ولا تحصى، وبالمقارنة فإن الأسماء الألمانية التي نجدها في كل مكان تكاد تكون شبة وطنية. وتعطينا مدن بوسطن وفيلادلفيا وبلتيمور وشيكاغو وسان فرنسيسكو الصورة نفسها التي يرسمها لنا الشارع النيويوركي. ولكن هذه الكوزموبوليتية التي تعتبر محطة ومرحلة لكل وافد، لا تمثل بأي حال من الأحوال أميركا جميعها، ولا حتى محورها الإثني. فهذا المحور يبقى أنكلوسكسونيًا، ولكن إذا كانت هناك أغلبية من الأنكلوسكسونيين، فإنها قد أصبحت هزيلة. وحين نتأمل جمهورًا أو جمعًا من الأميركيين فإننا لا بد وأن نلاحظ أنهم متغايرين متنافرين من الناحية الفيزيقية الجسمانية إلى حد غريب، فثمة فيهم الشقر والسمر والكستنائيو اللون، وثمة فيهم العيون الزرق والعيون السود، وثمة فيهم أصحاب البشرة البيضاء والبشرة السوداء، وثمة فيهم قوم

مستطيلو الوجه وقوم صغار الرأس، وثمة فيهم قوم فارعو القامة وقوم قصار القامة. وملخص القول إننا لا نستطيع أن نقول بوجود عرق أميركي، فهل يوجد في الأقل شعب أميركي؟!

(3)

لنطرح المسألة على هذا الشكل: هل نستطيع أن نقول إنه يوجد شعب أميركي كما يوجد شعب فرنسي وإنكليزي وألماني؟ وبعبارة أخرى هل يمكن تعريف سيكولوجية أميركية؟

لقد استعرضنا حتى الآن عناصر مختلفة ومتغايرة بشكل فريد. والسؤال هو: هل تستطيع هذه العناصر الممتزجة داخل بوتقة الصهر (melting pot)، أن تخلق شخصية أميركية خالصة؟ كان الدمج والاستيعاب بالنسبة إلى المهاجر الأول يتمثل في تحويله من بيوريتاني إلى أنكلوسكسوني. ولقد صوّر الكاتب الإنكليزي الروائي إسرائيل زانغويل[7] (Israel Zangwill) هذه العملية بعقل أكثر انفتاحًا ومحملًا بشحنة صوفية: «إن أميركا بوتقة الأعراق وهي البوتقة الكبيرة لجميع أعراق أوروبا. وفي هذه البوتقة تنصهر الأعراق وتتبلور. أما الأميركي الخالص؛ فلم يخلق إلى الآن». فهل خلق حقًا؟ وإذا كان كذلك فهل خلق بحسب المفهوم الضيق لقومية بروتستانتية أم بحسب المفهوم الأوسع للمثالي

(7) إسرائيل زانغويل (1864-1926) (Israel Zangwill) من أسرة يهودية روسية مهاجرة، كاتب بريطاني وروائي ومسرحي وصحافي وأحد منظّري الصهيونية وعضو في المنظمة الصهيونية العالمية التي تركها عام 1905 ليؤسس «المنظمة اليهودية الإقليمية» التي عملت على إقامة دولة لليهود خارج فلسطين. أسس صحيفة ساخرة *Ariel* ونشر روايات عدة تعد من أوائل الروايات البوليسية، وكذلك عددًا من الروايات اليهودية الساخرة، خصوصًا كتابه **أطفال الغيتو** الذي منحه شهرة عالمية وأطلق عليه لأول مرة عنوانه الأكثر مبيعًا (best-seller). سمي زانغويل «تشارلز ديكنز اليهودي». كان من أوائل المناضلين من أجل «وطن قومي يهودي»، وقصده هرتزل في لندن للتشاور طالبًا منه المساعدة «على تأسيس دولة يهودية». ولكن الخلافات بين التيارين تفاقمت ما بين المؤتمر الصهيوني الأول في بال 1897 والمؤتمر السابع 1905، حيث تعارضت الفكرة الصهيونية مع فكرة الإقليمية، حيث إن زانغويل رفض موقف اختيار فلسطين لتكون هي الوطن القومي. ومع انتصار صهيونية هرتزل (وعد بلفور 1917) انسحب زانغويل من السياسة وتفرّغ لقضية «تحرير المرأة».

اليهودي؟ وطرح هذا السؤال يتم فعليًا على قاعدة مختلفة عن نهاية القرن التاسع عشر، لأنه منذ نهاية ذلك القرن، حدث تحول تام في المجتمع الأميركي لا ينطوي على تشكيل هذا الشعب وطبيعته فحسب، بل على الظروف الاقتصادية والتقنية التي يعيش فيها كذلك. إن الثورة الصناعية الميكانيكية التي ولدت من الآلة البخارية لم تطور كل آثارها ونتائجها إلا منذ حوالى الخمسين عامًا، ولم تظهر هذه النتائج بشكلها الأكثر عمقًا والأكثر ثورية إلا في الولايات المتحدة، وقد كانت محطة التحول هي الحرب العالمية الأولى.

من الغريب أن الشعب الأميركي كان أكثر تقدمًا في تكوّنه في أواخر القرن الماضي مما هو عليه اليوم. وقد أتيح لي إجراء المقارنة وتكوّن لدي انطباع حاسم بعد 1918 بأنه حصل تكرار أو استعادة لشيء ما، فلم يكن الأمر مجرد تطور، وإنما ولادة لحضارة جديدة، لم تخرج من الحضارة القديمة بل من مكان آخر. ولذلك، فإنه ينبغي أن ننظر إلى الولايات المتحدة الحالية من هذه الزاوية، إذا كنا نهتم بأن نفهمها.

حين تدفقت الموجة الثالثة من المهاجرين، موجة الصقالبة اللاتينيين، على شمال أميركا، تطورت فيها حضارة مبتكرة ذات محتد، وفق المبادئ الحضارية للقرنين السابع عشر والثامن عشر، وفي ظل شروط وأهداف حضارة القرن التاسع عشر. وإذا كان الأساس الأصلي لحضارة هذه البلاد إنكليزيًا، فإن الإضافات الألمانية والأيرلندية واليهودية، قد وضعت عليه طابعها الخاص. وفوق العمق البروتستانتي أضيف عنصر الكاثوليكية. ونحن نتذكر إلى اليوم (ولكنها مجرد ذكرى فحسب) بعض من الأنماط التي صارت اليوم خرافية، والتي تمثل تلك المرحلة خير تمثيل. فمن شخصية «العم سام» ذاته، وقد جعلها الكاريكاتور شعبية، بلحيته الصغيرة البيضاء، وسرواله المقلّم بخطوط عامودية، وسترته الزرقاء المزركشة بالنجوم... إلى شخصية «عم من أميركا» الذي رحل عن بلاده وفي جيبه أربعون فلسًا تاركًا وراءه ثروة لا تقدر لوارثيه... إلى شخصية رجل الأعمال الكبير، ذاك القرصان نوعًا ما والذي كان يرمي سكك الحديد والمناجم، وهو المضارب عديم الذمة، المتنقل ما بين خيارات

مجروحة وإفلاسات خطيرة ونجاحات عظيمة. ولا ننسى أولئك الأيرلنديين «الطيبين» والذين لا يزال هناك منهم بضع نماذج، كما لا ننسى «العائلات الأربعمئة» في الجادة الخامسة ونيوبورت، وأمامها ليست عائلاتنا «المئتين» سوى نسخة متواضعة منها. أما أرستقراطي نيو إنغلند (إنكلترا الجديدة)، من نوع هنري آدامز[8]، فهو عينة من الإنكليزي الأميركي المتعلم، والثري وراثة عن عائلته، والذي يعيش حياة هانئة، هي مترفة بالنسبة إلينا، لرجل لم يضطر يومًا إلى القلق حيال تحصيل المال. وهناك «الأميركية الجميلة» لسنوات الـ 1900، والمختلفة جدًا عن أميركيات اليوم الجميلات دومًا، وهي كانت أكبر بكثير منهن، وأكثر أهمية، وأكثر إرباكًا وإزعاجًا مع قبعاتها الضخمة طراز ذلك العصر، وكانت ما فتئت تذكّرنا بالممثلات ذوات الشخصية المبدعة لتلك الأيام. والأنماط البشرية الإنكليزية والأيرلندية والهولندية كانت أكثر عادية وتكرارًا. وباستثناء الجنوب، فإن الزنوج كانوا أقل ظهورًا كما كان هناك عدد أقل من المتوسطيين والبلقانيين والخلاسيين على اختلاف أصنافهم. وكان يبدو كأن تلك كانت عنصرًا آخر من الناحية الجسمانية عما هي عليه اليوم. وبالفعل فهي كانت عنصرًا آخر من الناحية الجسمانية.

وهي كانت أيضًا مفهومًا آخر للحياة قائمًا على المبادأة الفردية من دون تدخل الدولة إلا في حالة وقوع جريمة أو سرقة خيول. وكان ينتج عن ذلك اضطراب خاص يرتبط بعمليات مضاربة تجارية ليس لها من حدود، كما يتعلق بسيادة روح المغامرات، متضمنة حدودًا كانت مفتوحة من غير قيد أو شرط نحو الغرب، تاركة كل هذه الخيارات والإمكانات لمن يريد أن يقيم حياته هنا.

---

(8) هنري آدامز (1838-1918) (Henry Brooks Adams) مؤرخ أميركي ومن عائلة آدامز السياسية التي منها رئيسان. بعد تخرجه من جامعة هارفرد عمل سكرتيرًا لوالده تشارلز فرنسيس آدامز سفير الرئيس لينكولن في لندن، الأمر الذي ترك فيه تأثيرًا لجهة تجربته في دبلوماسية الحرب وتشربه بالثقافة الإنكليزية. بعد الحرب الأهلية الأميركية صار صحافيًا وسياسيًا مرموقًا يجتمع نخبة المثقفين في منزله في واشنطن أو بوسطن. اشتهر في حياته بكتابه عن تاريخ الولايات المتحدة خلال إدارة الرئيس توماس جفرسون (9 مجلدات). ولكن شهرته الأكبر جاءت بعد وفاته بفضل كتابه تربية هنري آدامز (*The Education of Henry Adams*) الذي حاز جائزة بوليتزر بعد وفاته. الكتاب يسجل صراع ابن بوسطن (هنري نفسه) في أواخر أيامه مع فجر ذلك القرن الجديد (القرن العشرين)، وفيه نقد حاد للأساليب التربوية والتعليمية للقرن التاسع عشر.

وكان يقال للشاب الذي نفذ صبره من القيود الاجتماعية: «اذهب إلى الغرب أيها الرجل الشاب» (Go West Young man). فالرجل الأميركي في ذلك العصر كان عنده تذوق لكل شيء فيه جِدة وغرابة، أما اليوم فقد صار ذلك مكروهًا. والإنكليزي الذي يصفه جول فيرن هو دائمًا رجل ذو شخصية حيوية وصلبة بامتياز، أما الأميركي عنده فهو غرائبي، مغامر مقامر، مبدع، مجنون نوعًا ما!

هذه الحضارة كانت تعبّر عن نفسها، قبل أن تغطيها مخرطة التنميط، في سلسلة من الثقافات المحلية الخاصة، محددة جغرافيًا، أتيح لي شخصيًا التعرف إليها: بوسطن وإنكلترا الجديدة تقوم حضارتها على عوامل فكرية وبيوريتانية دينية، كما ترتكز حضارة بلتيمور ونيو أورليانز على الصفاء الذهني الحساس على الرغم مما علق به من بعض الشوائب بسبب تأثير النزعة الجنوبية لما قبل حرب الانفصال[9]. أما فيلادلفيا فتقوم حضارتها على الكوايكرز وتراث آباء الدستور. وسان فرنسيسكو البلدة اللاتينية، متأثرة كثيرًا بفرنسا والبحر الأبيض المتوسط.

كل واحدة من هذه الثقافات يتناسب معها مطبخ خاص: مطبخ بلتيمور يعج بحساء الضفادع، والجانبون امتياز مطبخ فرجينيا الأكثر أصالة والأكثر قومية خالصة، أما مطبخ لويزيانا فهو مزيج مولّد، ومطبخ سان فرنسيسكو إيطالي فرنسي يستمر عند مطعم جول (Jules) ومطعم (Poodle dog). وكذلك الأدب فقد كان أكثر قومية، فكتّاب مثل مارك توين[10] (Mark Twain) ووالتر ويتمان[11]

(9) الحرب التي بدأت في عام 1860 وانتهت في 1864 نتيجة إلغاء تجارة الرق وحاول فيها الجنوبيون الانفصال عن الشمال.

(10) مارك توين (1835-1910) (Mark Twain) واسمه الحقيقي «صمويل لانغهورن كليمنس» (Samuel Langhorne Clemens) هو كاتب أميركي ساخر عرف برواياته مغامرات هكلبيري فين (1884) التي وصفت بأنها «الرواية الأميركية العظيمة»، ومغامرات توم سوير (1876). وقد نقل عنه كثير من الأقوال المأثورة والساخرة، وكان صديقًا للعديد من الرؤساء والفنانين ورجال الصناعة وأفراد الأسر المالكة الأوروبية، ووصف بعد وفاته بأنه «أعظم الساخرين الأميركيين في عصره»، كما لقبه وليام فوكنر بأبي الأدب الأميركي.

(11) والتر ويتمان (1819-1892) (Walter «Walt» Whitman) شاعر أميركي وصحافي وكاتب مقالة اشتغل أيضًا مدرسًا وحاجبًا في المحكمة، وتطوع للتمريض خلال الحرب الأهلية الأميركية. وهو من أكثر الشعراء الأميركيين تأثيرًا وغالبًا ما يسمى بأبي الشعر الحر.

(Whitman) وإدغار آلان بو[12] (Edgar Poe) هم أميركيون أقحاح. وكذلك أدب إميرسون[13] (Emerson) ووليام جيمس[14] (William James) وثورو[15] (Thoreau) والسيدة ألكوت[16] (Mrs Alcott)... ولكن «أميركيون من أميركا» لم تعد موجودة اليوم. وأنا أعتقد أن هؤلاء جميعًا ينتمون إلى أصل بريطاني. ولم ينقطع الرباط مع النبع الأوروبي: نحن نجده في إنسانية شخص مثل أبراهام لنكولن الشديدة التجذر في بلده وقارته إلا أنها قريبة منا، وهي لا تتطلب منا مجهودًا يبذل لفهمها.

---

(12) إدغار آلان بو (Edgar Allan Poe) (1809-1849) ناقد أدبي أميركي مؤلف، وشاعر، ومحرر، ويعتبر جزءًا من الحركة الرومنطيقية الأميركية. اشتهرت حكاياته بـ الأسرار وأنها مروعة، كان بو واحدًا من أقدم الممارسين الأميركيين في القصة القصيرة، ويعتبر عمومًا مخترع نوع من خيال التحري. وله مزيد من الفضل في المساهمة في هذا النوع من الخيال العلمي الناشئ. كان أول كاتب أميركي معروف يسعى في محاولة لكسب لقمة العيش من خلال الكتابة وحدها، مما أدى إلى حياة صعبة ماليًا ومهنيًا.

(13) رالف والدو إميرسون (1803-1882) (Ralph Waldo Emerson) كاتب ومحرر ومحاضر وشاعر أميركي قاد في منتصف القرن التاسع عشر حركة دينية فلسفية دعاها بالترانسندنتالية (مذهب التعالي) (Transcendentalist) وهي حركة قامت ضد ثقافوية جامعة هارفرد وقالت بأن الفرد طيب بطبعه، ولكن المجتمع ومؤسساته خصوصًا الكنيسة والأحزاب تفسد نقاوة وطهارة الفرد. وكان بطل الدفاع عن الفردانية وناقدًا ثاقبًا لضغوطات المجتمع على الفرد. نشر أفكاره عبر الكتابة والخطابة والمحاضرات العامة في أنحاء أميركا.

(14) وليام جيمس (1842-1910) (William James) فيلسوف وعالم نفساني أميركي كان أصلًا طبيبًا ممارسًا للمهنة، وهو أول من قام بتدريس علم النفس في أميركا ولعله أكثر الفلاسفة تأثيرًا في أميركا حتى سموه «أبو علم النفس الأميركي». وهو إلى جانب جون ديوي أبرز فلاسفة البراغماتية الأميركية ومن أوائل مؤسسي علم النفس الوظيفي، كما أنه طوّر في منهج المقاربة الإمبيريقية الراديكالية. وقد أثر في أعمال عدد من الكبار منهم إميل دوركهايم وإدموند هوسرل وبرتراند راسل ولودفيغ فتغنشتاين وريتشارد رورتي... إلخ.

(15) هنري ثورو (1817-1862) (Henry David Thoreau) كاتب وشاعر ومؤرخ وفيلسوف من دعاة إلغاء العبودية ومقاومة الضرائب والعودة إلى الطبيعة، وكان من كبار المنضمين إلى حركة الترنسندنتالية. وأشهر كتبه فالدن (*Walden*) الذي يحكي عن الحياة البسيطة في بيئة طبيعية. وله كتاب شهير حول المقاومة المدنية أو العصيان المدني (*Resistance to Civil Government* (also known as *Civil Disobedience*)) ويدعو فيه إلى مقاومة أي حكومة غير عادلة.

(16) هي لويزا ماي ألكوت (1832-1888) (Louisa May Alcott) روائية أميركية نشأت وترعرعت في عائلة تنتمي لتيار الترنسندنتالية فعرفت كبارهم أمثال ثورو وإميرسون. تعرضت عائلتها لأزمة مالية فاضطرت إلى العمل باكرًا، وفي الوقت نفسه تكتب القصص الصغيرة والروايات للشبان المراهقين. كانت من دعاة إلغاء العبودية والمطالبين بتحرير المرأة. أشهر ما كتبت نساء صغيرات (*Little Women*).

على أن ما يجعل أميركا الأمس لا تجد نفسها في أميركا التي جاءت بعدها هو أن الأخيرة وبفضل الموجة الثالثة من المهاجرين، تخلصت من طبيعتها الأنكلوسكسونية. وبذلك صار بإمكاننا أن نتصور وجود أميركا بقيت أميركية حقة، وفي الوقت نفسه لم تعد بشكل حصري ولا حتى بشكل رئيس، أنكلوسكسونية بروتستانتية صرفة. فتغيّر مركز الجاذبية الجغرافية للأنكلوسكسون أمر لا يمكن أن يمر مرور الكرام للعين المدققة: في الماضي كان اسمها إنكلترا الجديدة وكانت بوسطن حاضنة لتراث ظل إنكليزيًا. أما اليوم وبسبب هجرات كثيفة، فإن هذا البلد الذي كان يعد أشبه ما يكون بجنيف أخرى في العالم الجديد، قد أصبح مدينة كاثوليكية وأيرلندية. صحيح أن العائلات البروتستانتية الكبيرة هي التي لا تزال تسيطر في الحياة الاجتماعية وفي شؤون المال، إلا أنه وفي مدينة بوسطن نفسها فإن الشخصيتين الأكثر أهمية هما المطران الكاثوليكي، والعمدة الأيرلندي، فهل يصح لنا القول بأن الروح الأنكلوسكسونية التي كانت تعبّر عن نفسها في مجتمع بوسطن قد انتهى وجودها؟ كلا بالتأكيد! إذ إنها هاجرت نوعًا ما إلى ولايات وسط البلاد وغربها، إلى كل تلك المدن الجديدة التي ولدت هناك منذ قرن من الزمن. وإذا عبرنا ما وراء جبال الأليغاني (Allegheny Mountain)، وحتى إلى ما وراء شيكاغو، فإننا نلاحظ من دون جهد، في هذه الأماكن الجديدة، أن النخبة الموجهة فيها، إما رجال من المهاجرين الجدد، وإما ممن كان آباؤهم قد أتوا من الشرق، أكان ذلك من «ماساشوستس» أم من «فرجينيا»: وهؤلاء جلبوا معهم كل الصفات التي خلقت عظمة الولايات المتحدة منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وبفضل هؤلاء ومن خلالهم تستمر التقاليد العريقة تحت سماوات جديدة.

إذًا، هناك خيط موجِّه يسمح لنا باكتشاف تيار الإلهام نفسه، من البداية إلى يومنا هذا. ولكن ينبغي أن نلاحظ أن العاملين عليه قد تغيروا، ومن هنا نرى نمطَ موجه قائد رجل الغرب الأوسط، وهو نمط مطبوع على الثقة الكبيرة بالنفس والتغطرس والكبرياء إلى حد ما، وهو يتشابه مع الألمان في الجدية ومواهبه التنظيمية، وحبه للنظام. وقد ظلت نسبة البريطانيين والبيوريتانيين الأقحاح (مئة في المئة) جد مرتفعة بين الرجال المعدودين من الشخصيات المهمة ذات

الوزن، كما يظهر في تحليل الشخصيات التي أحصاها مجلد من هو (*Who is who*)، ولكن إلى جانب هؤلاء يظهر أيضًا، وهذا أمر جديد تمامًا، بضع أفراد من أصل يهودي أو لاتيني أو صقلبي. وليس أمر الغرائبية مقتصرًا على شوارع نيويورك فحسب، فالأسماء التي تنتهي بـ ski, vitch, ini, وsco... إلخ، وقد كانت قديمًا شبه غائبة في المراكز المهمة صارت اليوم موجودة غالبًا في هذه المراكز خصوصًا، حيث يكون للسياسة دخل في التعيينات. على أن الأدب يعكس لنا صورة واضحة عن هذا التطفل والتعدي لبشرية جديدة بالكامل موهوبة كثيرًا بلا شك، ولكنها لم تعد لتنحصر في التيار الواسع نوعًا ما للتراث الأدبي البريطاني والبروتستانتي: فأميركا تعيش اليوم مرحلة أدبية رفيعة المستوى، ولكننا لا نستطيع أن نقول إن أسلوبها ونبرتها قد ظلت أنكلوسكسونية حصرًا.

على الرغم من أهمية التحوّل الناتج عن تغيير في الأشخاص، إلا أن ما يبدو لي أنه الأكثر أهمية بما لا يقاس هو التحوّل أو بالأحرى الثورة المترتبة على الظروف الجديدة في الإنتاج وبالأخص على التقنية. فمنذ الحرب العالمية الأولى ظهرت حياة مادية جديدة كانت الولايات المتحدة رائدتها ومبدأها من غير منازع. فالتجهيز الميكانيكي الجماعي للإنتاج القائم على العمل بالآلة، والإنتاج على نمط واحد (إنتاج السلسلة) وبكميات كبيرة، تسلل إلى كل شيء واقتحم كل شيء وغيّر كل شيء. وقد كان لهذا تأثير جارف لا يقاوم، ليس على الآلات الصناعية فحسب، بل وعلى تجهيزات الحياة اليومية، وعلى المنزل والأسرة فضلًا عن مجمل تلك الحياة العلائقية التي تشمل الصحف والمجلات والكتب والتعليم والدين والفراغ والدعاية وحتى السياسة نفسها! وقد مست يد التغير كل شيء ولم تدع شاردة ولا واردة إلا وتناولتها ونفذت إليها كما تتسرب المياه خلسة في جدار غير محكم السد. وفي ضوء هذه الحقيقة، نقول إن الحضارة الأميركية لم تغيّر في مصادر الإلهام والإرشاد وفي السجايا والخُلُق فحسب، بل غيّرت كذلك في العمر، فقد حل عصر الآلة محل عصر الرواد.

لقد كان عصر الرواد يستوحي خصوصًا المبادئ الفردانية وهي: المبادأة ومسؤولية الضمير الشخصي، وتحمّل حياة قاسية في الغالب، وإنكار للذات إلى حد الزهد والتقشف، وكلها مقولات بيوريتانية. أما وقد اكتمل استعمار

القارة بأجمعها، فلم يعد هناك «حدود»، أي لم يعد هناك أراض حرة مفتوحة للاستعمار والاستغلال: فالموضوعة القديمة التي اسمها الغرب، وهي كانت موضوعة تحمل وجدًا صوفيًا، لا تزال تستخدم اليوم ولكن لم يعد لها المعنى نفسه طالما أن الأميركي قد وصل إلى حدود المحيط الهادئ. والعصر الجديد هو عصر الآلة القائم على التنظيم الجماعي. والانطباع العام الذي تتركه في مثل هذه الظروف الحياة الأميركية في القرن العشرين هو وجود هيكل كبير ضخم، أكثر فأكثر خفاء، وحيث نرى أن الشخصية العامة (الأكثر عمومية) في هذه البلاد هي شخصية الموظف. والمصطلح الذي يتكرر عند المحادثة هو مصطلح Job أي الوظيفة أو الشغل: فكل إنسان عنده وظيفة وشغل، أو يبحث عن وظيفة وشغل، وأكثر ما يخشاه، وهذه الخشية صارت منذ أزمة عام 1929 سرسابًا حقيقيًا، هو أن يفقد وظيفته التي يشغلها. وليس هناك أدنى شك أن ثمة تقدمًا محسوسًا رائعًا في مستوى الحياة قد حصل، ولكن هذا المستوى القياسي استدعى لوحة من العمل الجماعي والنظام والتنظيم البيروقراطي الهائل تصبح فيه المبادأة والخيال المبدع التي كانت موجودة في الزمن القديم، أمورًا صعبة التحقق إن لم نقل مستحيلة. ولن يتمكن توماس جيفرسون (Thomas Jefferson) (الرئيس الثالث للولايات المتحدة) من التعرف إلى الوسط المشبع تمامًا بالليبرالية، والذي صاغ فيه أيديولوجيته... ناهيك بأن أبراهام لنكولن لن يتعرف أيضًا إلى هذا الوسط وهو الذي ولدت نزعته الإنسانية في البيئة الصحية للغرب. وكل ذلك بسبب ظهور الآلة وما أحدثته من انقلاب وثورة في هذا البلد أكثر من أي مكان آخر بما فيه روسيا حتى.

إن أميركا تجتاز إذًا ما يوازي أزمة نمو، حيث تستمر سمات وخصال شبابها الأولية بالبقاء، ولكنها تحل محلها شيئًا فشيئًا وبهدوء سمات وخصال جديدة لا تنتمي إلى مرحلة الشباب. وبما أن التحولات التقنية تجري بسرعة أكبر من سرعة تكيف التراث التقليدي مع هذه الظروف الجديدة، فإن هناك فارقًا بين أيديولوجية آباء الدستور وسلسلة التجميع[17] في مصنع فورد.

(17) المقصود سلسلة تجميع قطع السيارات في كل واحد متكامل ومنها مصطلح العمل بالسلسلة.

(4)

لا بد أن نعي أنه من الصعب الحديث عن السيكولوجية الأميركية بالمفرد وذلك منذ اللحظة التي فقدت فيها الولايات المتحدة شخصيتها الأولى وبدأت تحاول بناء شخصية جديدة لها. وفي خضم هذه الأزمة بين روح الأمس وطريقة اليوم، يصبح الموضوع معرفة أين يحدد المرء مركز الجاذبية الأخلاقية والأدبية لهذا الشعب. فما هو النموذج المثالي الذي نعتبره اليوم ممثلًا للسيكولوجية الأميركية بين الأميركيين خير تمثيل؟ فهل علينا أن نتخذ مثالًا البيوريتاني أم رجل الأعمال أم رجل السياسة أم حتى رجل العسكر، وهو الجديد الصاعد؟ وما هي المدينة التي نتخذها مقياسًا عامًا ممثل لهذه السيكولوجية؟ هل هي نيويورك أم بوسطن أم شيكاغو؟ هل تكون هيوستون أو لوس أنجلس، ذلك النجم الجديد الذي تعرفت إليه حديثًا بسكانها البالغين تسعين ألف نسمة؟ هل نأخذ معيارًا للأميركي العادي ذلك البروتستانتي الملتزم بالتقاليد، أم البابيت[18] (Babbitt) من الغرب الأوسط، أم ذلك الدخيل الأجنبي المقيم على الساحل الأطلسي، أم ربما أيضًا أي زنجي متطور من هارلم؟ لقد شاهدت في نيويورك مسرحية مؤلفها يهودي ومخرجها أرمني، والذي يقوم بالدور الأول فيها أسود، وواضع موسيقاها ألماني... ومع ذلك فقد كانت مسرحية أميركية خالصة تحدث عنها النقاد باعتبارها نجاحًا قوميًا.

إن سيكولوجية شعب كهذا، تتطلب أن ننظر إليها وندرسها بطريقة خاصة. وقد أوضحنا كيف أن وحدة التجهيز والتهيؤ للعمل أكسبت هؤلاء البشر، المتعددي والمختلفي الأصول، وحدة في المسلك والمظهر. وعلى الرغم من الفارق البيّن في الأعراق بين الأميركيين، فإننا نجد أنهم يميلون أينما كانوا إلى النظر إلى الأمور بالطريقة عينها، أكان ذلك في بوسطن أو نيو أورليانز، أم في

---

(18) البابيت (*Babbitt*) رواية صدرت عام 1922 كتبها سنكلار لويس (Sinclair Lewis) تسخر من الثقافة الأميركية وسلوكيات الأميركيين وتنتقد فراغ الطبقة الوسطى ونمط الحياة الأميركي الذي يضغط باتجاه الامتثالية. نال صاحبها جائزة نوبل للآداب عام 1930 وصارت كلمة بابيت تعني الشخص (خصوصًا رجل الأعمال أو المهن الحرة) الذي يمتثل من دون تفكير للمعايير السائدة للطبقة الوسطى.

ريتشموند أو سان فرنسيسكو: ففي كل مكان من أنحاء أميركا نجد القطارات نفسها والفنادق نفسها والمطاعم نفسها ومحطات الوقود نفسها والصحف نفسها والمجلات نفسها والشعارات نفسها والأفكار نفسها. وهذا التناسق والتشابه وتلك الرتابة قد أصبحت حتى إحدى دعائم الوحدة الوطنية، والشيء المميز أيضًا أنها لم تعد تبدو كأنها مفروضة، بل صارت مقبولة لا بل مرحب بها طوعًا، تمامًا كما أن أي تقدم هو مرحب به.

وهذا التنميط يصدم الزائر كما لو أنه قد أصبح العلامة الفارقة والطابع الأكثر تمييزًا للمجتمع الأميركي. ومع ذلك فيجب ألا نتجاهل أن الروح التي تنعش هذا الشعب لا تزال تتغذى من النبع القديم. ولذلك نرى أنفسنا مدفوعين في مثل هذه الظروف إلى أن نميّز بين نخبة قائدة وريثة التراث والتقاليد الأخلاقية من جهة، وجمهور أكثر سلبية، تحصّل على الخيرات المادية للحياة الأميركية، أكثر من امتلاكه لروحها. وقد يجدر بنا أن نتحدث هنا عن الطوائف[19] في أميركا، لا عن الطبقات، لأنه ليس فيها طبقات. فالمساواة الاجتماعية في المجتمع الأميركي كاملة، أما من الناحية العرقية الإثنية، فإن هناك حاجزًا دقيقًا بين الأنكلوسكسوني ذي الأصل القديم، والصقلبي اللاتيني الواصل إلى أميركا منذ أقل من أربعين سنة، أو حتى الأيرلندي الكاثوليكي. وقد سقط حاكم ولاية نيويورك آل سميث (Al Smith) حين رشح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة في عام 1928، لمجرد أنه أيرلندي فحسب، وأيرلندي كاثوليكي خصوصًا، ولم يكن من أسباب سقوطه كونه من وسط متواضع، بل انتمائه إلى طائفة الأيرلنديين، أي إلى حد ما نوع الدم الذي يسيل في عروقه. وهذا أمر يميز أميركا، مهما كانت حقيقة ديمقراطيتها، عن ديمقراطياتنا الأوروبية؛ ونحن نستطيع - في ضوء وجهة النظر هذه - أن نتبين في الولايات المتحدة وجود سيكولوجيتين توافقان وجود طابقين.

الخصال التي تميز الدولة الموجِّهة هي أساسًا خصال نشطة، تبدو وكأنها

---

(19) نستخدم طائفة وطوائف هنا ترجمةً لـ caste بمعنى الفئة والفئات (أو الصنف والأصناف بحسب التعبير الشائع في التراث الإسلامي).

ترجع بشكل رئيس إلى الأصل الأنكلوسكسوني وإلى التكوين البروتستانتي. وتنسب هذه الخصال إلى البيوريتاني الأميركي وإلى الرائد الأميركي أيضًا. ومن بين هذه الخصال نلاحظ بشكل أساس المبادأة ومعها الفاعلية وهما خصلتان تنشآن من الضمير وتقدير الجهد وغياب الروتين. ثم لنلاحظ الثقة في الإنسان عمومًا وبالرجل الأميركي خصوصًا، وبالقارة الأميركية عامة، وبالولايات المتحدة الأميركية، وبالدستور الموروث عن أجدادهم كأنه وديعة مقدسة. وكان البيوريتاني في القرن السابع عشر يؤمن بالخطيئة الأصلية، ولكنه من هذه العقيدة المتشائمة كان يستمد أدوات للطاقة والحيوية. أما وقد أصبح تلميذ جان جاك روسو، وإلى درجة نعتقدها سيئة، فإنه صار يفكر بأن الإنسان خيّر بطبعه وأنه يجب أن نمنحه الثقة. فحسن النية (good will) هو إذًا من خصائص الرجل الأميركي، وهي بمنزلة دعامة من دعامات مواطنيته (إخلاصه وغيرته لوطنه) التي هي قبل كل شيء شعور بروتستانتي تمامًا بـ «الخدمة الاجتماعية». فبحسب تقاليد نوع من أنواع البروتستانتية، إن هكذا «خدمة» تتضمن حس الواجب، والتبشير بالإنجيل، والحاجة إلى تقويم الأمور والحكم عليها، والتمييز بين الأخيار والأشرار، وإعطاء الدروس للناس ووعظهم. ففي أميركا ما أسهل أن تصبح الفصاحة موعظة: لقد كان ويلسون يلقي من المواعظ أكثر من إلقائه الخطب السياسية. وأميركا تنظر من علياء استقامتها الأخلاقية وهي ممتلئة بالنصائح الطيبة. والتواضع كما نعرف هو فضيلة كاثوليكية.

ويصعب علينا - إلى حد ما - تحديد كيفية تسلسل هرمية القيَم هنا، ذلك أنه إذا كانت القيم مادية إلا أنهم ينظمونها ويصنفونها وفق إلهام مثالي. والأميركي رسول، بيد أنه رسول يتحدث عن أمور الروح بالدولار. وهو مؤمن، ولكنه مؤمن يعتقد بأن كل شيء ينظم نفسه بنفسه بما في ذلك الروح، كما يؤمن كذلك بأن كرامته لا تنفصل عن مستوى حياته. فنحن إذًا بعيدون من باسكال الذي كان يقول بأن كرامة الإنسان تكمن في عقله وفكره! فإنجيل أميركا هو إذًا إنجيل اجتماعي، ولا يمكن فهمه من دون بذل جهد للارتقاء بحالة الإنسان الاجتماعية. والرجل الأميركي يعتقد أن رسالته في الحياة هي أن يقوم بتعميم هذا الإنجيل في العالم كله: توراة وبراد وديمقراطية على النمط الغربي! ذلك أن

إرادته مخلصة واثقة ونيته الحسنة مطلقة. ومن الخطأ أن نقول عنه إنه مثالي أو مادي، فهو في الواقع هذا وذاك في آن، في ظروف وشروط تبدو لنا متناقضة، أما من وجهة نظره فهي ليست كذلك. وقد جاء في خلاصة تقرير نشره «مجلس نيويورك الاقتصادي المدمج» (New York economic council incorporated) في الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر عام 1935، ما يلي: «في الميدان الروحي نحن مبدعون ممتازون؛ ففي الإحصاء الذي أجري في عام 1933 وهو عام أزمة اقتصادية عنيفة أنفقنا ثلاثة مليارات من الدولارات في التعليم، وهذا يفوق ما أنفق في كل بلدان العالم مجتمعة. ونحن نمتلك أكثر من إحدى عشر مليار مستثمرة في مؤسسات التربية والتعليم الخاصة والعامة. وقد جاوزت استثماراتنا في الكنائس أربعة مليارات من الدولارات». إن الإخلاص (أو التفاني) الاجتماعي وهو يعبّر عن نفسه في مجال الإنجازات المادية هو مثل عن خصوصية البروتستانتية الأميركية، فأعمال هذا التفاني رائعة، ولكن ليس هناك في المجتمع مكان لرجل يعيش في الخيال. وكرسي الأستاذ في الجامعة يتضاءل أمام كرسي «الرئيس» الذي يجمع الأموال لتدعيم الجامعة.

لا شك في أن أميركا قد صُنعت على يد قادة تنطبق سيكولوجيتهم على كل ما ذكرناه آنفًا. أما سيكولوجية الشعب في مجموعه، فقد صارت تختلف تمام الاختلاف عن سيكولوجية القادة. والسبب الأهم في ذلك يعود إلى ظروف تشكيل هذا البلد. فالقادمون الجدد من المهاجرين قد انخرطوا في نسيج بنيان اجتماعي لم يصنعوه هم، ولم يُصنع هو لهم. وقد كان لزامًا عليهم أن ينخرطوا في هذا المجتمع لأنه لم يكن أمامهم خيار آخر؛ وقد قبلوا هذا الوضع عن طيب خاطر، بقدر ما أن هذا يعد برهانًا على تكيفهم مع الوضع الجديد. ولكن الأخلاق والصفات التي نتطلبها الآن لم تعد تلك التي تحلى بها الرواد الأوائل: فعوض المبادأة صرنا نتطلب الدأب والصبر وقوة الاحتمال والانضباط النظامي. وفي وسط لم يعد ريفيًا وإنما مدينيًا يصبح من الصعوبة بمكان الاختراق، خصوصًا وأن العمل بطل على العموم أن يكون فرديًا وصار يتخذ طابع العمل الجماعي: فنحن هنا أمام مجتمع جماهيري لا مثيل له في أي مكان آخر؛ وهذه الجماهير الشعبية نفسها هي التي صارت قوة المجتمع

اقتصاديًا. وفي مثل هكذا ظروف وشروط، وفيما يناقض ما ذكرناه قبل قليل، يترك الشعب العادي لديك انطباعًا عن سلبية ما في التفكير، بعيدة من المواطنة النشطة. فما يهمه هو أن يكون له مكان أينما كان. وقد كان الأيرلنديون في مجالس البلديات التي سيطروا عليها هم الرواد بحق في هذا المجال، أما اليوم فإن هذا المفهوم يميل إلى التوسع والامتداد وذلك مع سياسة النيو ديل (New Deal) (التسوية الجديدة)[20]، وسياسة الفير ديل[21] (Fair Deal) (التسوية العادلة)، ودولة الرفاه [22] (Welfare State) ولم يعد مهمًا أن تتصرف كجنتلمان واضعًا نفسك في خدمة المجموع، وإنما صار المهم أن يكون لك سهم من إعانات الجماعة المالية. ولنلاحظ أيضًا أن الجمهور الشعبي الأميركي، وحتى الغوغاء منهم، يبقون منضبطين بالنظام أساسًا، فهم قوم يميلون إلى البحث عن مواقع،

(20) سلسلة من البرامج المحلية التي جرى تفعيلها في أميركا بين 1933 و1938 وبعضها القليل في ما بعد وهي تتضمن القوانين التي أقرها الكونغرس، وكذلك قرارات الرئيس فرنكلين روزفلت خلال الفترة الأولى من حكمه (1933-1937). وقد جاءت هذه البرامج للرد على نتائج الأزمة الاقتصادية الكبرى وتركزت على 3 عمليات سميت بالـ «Rs 3»: وهي مساعدة الفقراء والعاطلين عن العمل (Relief)، واستعادة عافية الاقتصاد لمستوياته الطبيعية (Recovery)، وإصلاح النظام المالي لمنع تكرار الأزمة (Reform). وقد أدى تطبيق هذه السياسة إلى نيل الحزب الديمقراطي الأغلبية وسيطرته على منصب الرئاسة 7 مرات من أصل تسع بين أعوام 1933 و1969، مستندًا إلى قاعدة بين ذوي الأفكار الليبرالية، والجنوب الأبيض، والديمقراطيين التقليديين، والمدن الصناعية الكبرى، والاتحادات العمالية الناشطة حديثًا، والأقليات الإثنية. وقد انقسم الجمهوريون بين محافظين عارضوا كل السياسة الجديدة كونها عدوة التجارة والأعمال، وليبراليين وافقوا عليها. وأدى هذا الاستقطاب إلى نشوء تحالفات جديدة بين «تحالف التسوية الجديدة» الذي سيطر على الرئاسة حتى الستينيات من القرن العشرين، وتحالف المحافظين الذي سيطر على الكونغرس بين 1937 و1963.

(21) هي سلسلة من المقترحات وضعها الرئيس هاري ترومان للكونغرس في خطابه حول حال الأمة في كانون الثاني/ يناير 1949 وصار لاحقًا يلخص كل برنامج عمل إدارة ترومان المحلي من 1945 إلى 1953. وهو عبارة عن مقترحات جديدة لمواصلة طريق ليبرالية التسوية الجديدة. ولكن مع سيطرة المحافظين على الكونغرس لم تمر سوى بضع من مبادراته لتتحول إلى قوانين... وأهم المبادرات التي نوقشت في الكونغرس وفشلت في الحصول على الأصوات: قوانين حول المساعدات للتعليم والضمان الصحي، ولجنة الإشراف على عدالة ممارسات التشغيل...

(22) هو مفهوم عن الحكم تؤدي فيه الدولة دورًا محوريًا في حماية الاقتصاد وتطويره وفي تأمين رفاهية المواطنين. وهو يقوم على مبدأ المساواة في فرص العمل، والتوزيع العادل للثروات، والمسؤولية العمومية عن أولئك الذين لا يقدرون على تأمين الحد الأدنى من متطلبات العيش الكريم. وقد وصف عالم الاجتماع مارشال (T.H. Marshall) دولة الرفاه الحديثة بأنها مزيج من الديمقراطية والرفاهية والرأسمالية.

ولكنهم ليسوا بثوريين. كما أنهم يحترمون ويحبون النظام الأميركي فضلًا عن أنهم وعلى الرغم من المظاهر السطحية التي تنم عن اللامبالاة والفوضى إلا أنهم من الجماهير الأكثر وداعة وطاعة على الإطلاق.

ثم إنهم لا يطبقون هذا الانضباط النظامي في العمل فحسب، بل في سلوك حياتهم الخاصة ناهيك بكيفية تبنيهم الأفكار أيضًا. والأميركي يجل كل ما يمكن أخذه بالتعليم، وهو يؤمن بالتربية والتعليم، ولكنه يريدها أن تكون عملانية. وهو لا يعتبرها اكتسابًا لثقافة بقدر ما أنها مجموعة وصفات: فهو يفضل التربية والتعليم الجاهزين غب الطلب، أو العلم يأتيك في علبة، أو حتى إن أمكن في قرص علومي مضغوط. وهو يريد مقولات وموضوعات يمكن فهمها بسهولة، وما نتناوله مثل حبوب الدواء، أي ما يمكن استعماله بسرعة ومباشرة ولا يتطلب بذل أي جهد. وباسم الكفاءة نجد أن الأميركي مستعد لأن يقبل أي شيء إن جاءه ممن يسمونه «الخبير الاختصاصي»، وهؤلاء تزخر بهم أميركا.

ومن هنا تلك الامتثالية (conformisme) الغريبة وغير المتوقعة التي نجدها عند أفراد هذا الشعب الذي كان قديمًا شعبًا صاحب نزوات وهوى، لا بل شعبًا شاردًا هائمًا. أما بخصوص المهاجر، فإن هذه الامتثالية تصبح علامة على مدى اندماجه، أي على مدى تبنيه الكامل داخل العائلة الأميركية. وقد صار الناس معادين لكل من يتميّز من الآخرين: فبدل المعاناة لكونهم صاروا يشبهون بعضهم بعضًا في كل شيء، نجد الأميركيين يفرحون ويغترون لأنهم يلبسون القبعة نفسها أو الزي نفسه أو يحملون الأفكار نفسها. وقد ظلت بقايا هذا الموقف في موضة التغني بالفردانية التي (الموضة) إن اتخذت شكل الطرافة والابتكار، والاحتجاج ضد الشعارات المقبولة من الجميع، فإنها ستجعل حياتك صعبة والنجاح أقل احتمالًا. ويوجد هنا على كل حال درس خطير في السلبية وقد لا أكون مجافيًا للصواب، إذا رأيت في هذا الاتجاه نحو الامتثالية أحد الأخطار المستقبلية التي تهدد هذه الحضارة. والأميركي يستجيب ببراعة للدعاية، في الأقل بحسب من يقومون بها. وتؤثر الدعاية فيه بشكل فريد في فعاليته، ولهذا الأمر نتائج سياسية مهمة، إذ إن الحكومة تستطيع بفضل استخدام إجراءات معروفة ومجرَّبة جر الجمهور العام خلفها حين تريد. ومن

الناحية الاقتصادية، فإن هذا الانضباط النظامي الجماعي يخدم عملية توحيد نمط ومعايير الإنتاج بسماحه تأطير المنتوجات ضمن سلاسل ضخمة: والزبون الذي يحترم نفسه، وهو واع على كل حال، لا يحتج على الأمر، إذ إنه يجد في هذا الوضع مصلحة له. وسياسيًا يضع الراديو في أيدي الخطباء إمكان الوصول مباشرة إلى ملايين الناخبين: والقضية ليست قضية مال فحسب، ونحن نعرف أن وال ستريت لم تستطع أن تهزم ترومان، إنما هي قضية تنظيم، وتقنية زاحفة وقوية في نشر وتعميم الحجج التي تقنع الجماهير.

لعل ما قد يتأثر سلبًا في هذا النظام هو الروح النقدية، وذلك من لحظة انحنائها باحترام أمام كفاءة وخبرة الاختصاصي. وتتغلب التقنية - هذه الشابة والإلهة الجديدة - على الثقافة، وهي إلهة آفلة. على أن المهاجرين الذين جاءوا من أوروبا وصلوا إلى أميركا وهم شيوخ هرمين يحملون ثقل القرون، وقد عملت أميركا على تجديد حيويتهم وشبابهم ونقلتهم إلى الشباب، لا بل ونقلتهم بفضل السرعة المكتسبة إلى الطفولة. ويخالجنا من ذلك شعور بنوع من الصبيانية تجاه هؤلاء الأميركيين الجدد الذين يفخرون بآلات الفكر التي امتلكوها إلى حد نسيان الفكر في حد ذاته. ونحن نفهم على كل حال معنى اعترافهم بالجميل نحو بلد أعطاهم كرامة العمل وحرية سياسية، وأنا مستعد للاكتفاء بهما وأنا مغمض العينين. والأميركيون يظلون متفائلين ويعتقدون أنه في هذا النظام تتهيأ الفرصة لكل فرد كي يصل إلى ما يحب، فقد يصبح الأميركي مليارديرًا أو رئيسًا للجمهورية. وحتى إن كان هذا الأمر لم يعد ممكنًا أو حقيقيًا، إلا أنه من المفيد أن نقرر هنا أن غالبية الأميركيين ما زالوا يعتقدون به.

(5)

لا يسعني وأنا أختم هذا البحث إلا أن أقول إن الولايات المتحدة تستغل في وقتنا الحاضر إلى أقصى حد ممكن كل إمكاناتها، وهي لا تزال تملك كل حيوية القرن التاسع عشر، وفي الوقت نفسه كل فاعلية القرن العشرين. وقد كشفت لنا الحرب العالمية الثانية من دون منازع عن أن هذه الدولة لا تزال قادرة على الإبداع الخلاق والتنظيم في الوقت نفسه؛ وقد تكيف الشعب الأميركي

بسرعة مع ظروف جديدة عليه تمامًا، فسمح له ذلك بتصور الحرب وخوضها متخلصًا من كل روتين أو تصلب: فقد أنشأ جيوشًا تتوافق مع الظروف الجديدة، ولم يكن لديه فيها أي سابقة تاريخية، سواء أكانت جيوشًا في وسائل النقل أم في الإدارة أم في كيفية الحفاظ على روح الشعب المعنوية، وكان ذلك يتطلب صفات شبه متعارضة، تلتقي فيها المرونة والحزم: وهذه لحظة لعلها فريدة في التاريخ من حيث إن اندفاع عصر الفردانية لا يزال يحيي ويحرك الأساسات المتبلورة للعصر الميكانيكي.

ولعل الخطر المقبل هو أن يتقدم التنظيم على الفرد. ونستطيع منذ الآن أن نتبيّن وجود طلاق بين أيديولوجية القرن الثامن عشر التي لا تزال قوية إلى الآن، والبنيان الجماعي للمكننة الآلية[23] (machinisme) التي شرع القرن العشرون بفرضها بشكل متصاعد يوميًا على المجتمع الأميركي. «إن الإنسان يعتقد أنه يسوس نفسه حين يكون في الحقيقة مسوسًا، وفي الوقت الذي يتجه فيه إلى بلوغ هدف ما من طريق تفكيره، نرى قلبه يجرفه نحو هدف آخر من دون أن يشعر». هذه الحكمة التي ذكرها لا روشفوكو[24] (La Rochefoucauld)، ما إن نغيّر موضعها فحسب، حتى نراها تنطبق تمام الإنطباق على سيكولوجية الشعب الأميركي، إذ هي سيكولوجية على مفترق طرق. في مقال مهم نشرته مجلة **الشؤون الخارجية** (*Foreign Affairs*) في عدد شهر تموز/ يوليو 1949، حلل السيد جيرولد تانكواري روبنسون (Gerold Tanquary Robinson) المعركة الأيديولوجية القائمة في الولايات المتحدة حول هذا الموضوع فكتب يقول إن البلاد تواجه أزمة 1949 بأسلحة وعتاد وذخيرة عام 1950 ولكن بتجهيز أيديولوجي يعود إلى عام 1775! ثمة نزاع بين وصية آباء الدستور وطرائق العمل التي تتجذر رويدًا رويدًا في الممارسة

---

(23) تحويل الصناعات اليدوية إلى آلية، تعميم استعمال الآلات بدلًا من اليد العاملة.

(24) هو فرنسوا السادس، دوق دو لا روشفوكو، وأمير مارسياك (1613-1680) (François VI, duc de La Rochefoucauld, prince de Marcillac) كاتب وواعظ أخلاقي اشتهر خصوصًا بكتابه **الحِكَم** (*Maximes*) ومع أنه لم ينشر غيره إلى جانب مذكراته (*Mémoires*)، فإن نتاجه الأدبي كان غزيرًا. وهو كان يرى السياسة باعتبارها لعبة شطرنج. يدين كتابه **الحِكَم** بشدة وإصرار كل المظاهر الخادعة عن الأخلاق والقيم. كرس جان دو لافونتين له حكايته الرقم 11: الرجل وصورته (*L'Homme et son image*).

العملية الأميركية. فالأيديولوجية الليبرالية والفردانية للتراث الدستوري لا تتلاءم مع متطلبات مجتمع يكاد يصير شبه صناعي بالكامل.

وفي القرن التاسع عشر، كانت هناك نسبة كبرى من الأميركيين تستطيع أن تقوم بمراقبة فعالة على نشاطاتها اليومية: فالرواد والمزارعون والمنتجون الذين لم تستوعبهم الاحتكارات، كانوا يهتمون في الحد من تدخل الدولة في حياتهم الخاصة، أكثر من اهتمامهم بمطالبة الدولة بتحمل بعض المسؤوليات والواجبات الجديدة. كانت الديمقراطية تعني أول ما تعني الفردانية واللامركزية. أما في القرن العشرين، فإن الصناعة الممكننة تتطلب العمل جمهورًا متحدًا في ظل نظام ضبط جماعي، من أجل تنفيذ مشروعات ضخمة. وبناءً على ذلك، كان الأمر يتطلب وجوب تنظيم وتيرة عمل العامل على وتيرة اشتغال الآلة. وعندما لم يعد الفرد قادرًا على مواجهة أعبائه الجديدة، أحس أنه مضطر إلى اللجوء إلى الدولة وقبول نظام ضبطها الاجتماعي الذي نظمته ثلاث مبادرات هي التسوية الجديدة والتسوية العادلة ودولة الرفاه. وقد ذكر مستر روبنسون (Robinson) بعبارة ذكية أن التكنولوجيا هي أم المشاريع الضخمة، وجدة تدخل الدولة. وقد أجرى روبنسون مقارنة مقلقة حين قال إن التفتيش عن الفاعلية يؤدي إلى الهاوية الجمعوية ذاتها، في بيتسبرغ (Pittsburgh) (مدينة في أميركا) وفي مانيتوغورسك (Magnitogorsk) (مدينة في روسيا).

وقد طابت أميركا نفسًا لهذا النظام الذي يحقق لها مستوى من الحياة أعلى وساعات عمل أقل، ولكن ثمن هذه الامتيازات باهظ، حيث أدى إلى اختفاء ملايين المزارعين أو الحرفيين وقد كانوا بالأمس مستقلين فصاروا اليوم خدامًا منضبطين لنظام الآلة. هذا وقد ظلت الأيديولوجية القومية، كما كانت منذ مئة وخمسين عامًا: فردانية ومبادأة وحرية وتنافس. كما أن الرجل الأميركي المخلص يبقى أمينًا لهذه الأيديولوجية متعلقًا بها، بيد أنه في الوقت الذي «يتجه فيه إلى بلوغ هدف معين من طريق تفكيره»، كما قال الحكيم الفرنسي لا روشفوكو، نرى أن تيار العصر كله «يسوقه دونما شعور منه صوب هدف آخر». والواقع أن هذه المشكلة هي المشكلة الأميركية الحقة، بل هي مشكلة الغرب كله.

الخاتمة

الحضارة الغربية

«تعريفها... ومستقبلها»

مما قدمنا من اللوحات الست في الفصول السابقة، نستطيع أن نستخلص بعض الصفات المشتركة، والتي تميّز الحضارة الغربية: على أن هذه اللوحات تفسّر لنا مدى ما بلغته من نجاح باهر، كما أنها تهيئ لنا أيضًا أن نتخيّل احتمال أفولها، وفي الأقل احتمالات تغيّرها المقبل.

لقد أمكن طويلًا التفكير بأوروبا والعرق الأبيض (في الأقل القسم الأكبر منه) والحضارة الغربية على أنها معان لحقيقة واحدة: واستمر هذا الأمر حتى مرحلة الاكتشافات الكبرى، وكان لفظ «الغرب» يقتصر على القارة القديمة وحدها. وعندما انتشر البيض في العالم لاكتشافه والسيطرة عليه واستغلاله، فإن القارة القديمة مع بقائها مسكنهم (ومقرهم) الرئيس إلا أنها لم تعد مجالهم (وميدانهم) الوحيد، في الوقت الذي كانت تتطور فيه حضارة غربية تفيض جغرافيًا عن حدود موطنها الأصلي. حتى أن أميركا الشمالية انتهت حالها إلى أن تصير جزءًا أساسيًا من هذا النظام إلى حد أننا نتساءل اليوم إن لم تكن مدعوة لأن تكون هي مركزه ومحوره. في حين أنه في الوقت نفسه نجد كتلة أورو آسيوية كاملة لم تتأثر بهذا الغرب الحضاري. وبوجود مركز محوري يميل إلى الأفول، وقيادته خارج الزمن، فإننا في شك من مقدرة الغرب على الاحتفاظ لفترة طويلة بميزاته التقليدية التي صنعت شخصيته.

(1)

إن مصادر الحضارة الغربية جد قديمة ومتنوعة في آن، وهي ترتكز برأيي على أقنوم من ثلاثة مفاهيم: المعرفة، والإنسان، والتقنية في شكلها الحديث للثورة الصناعية.

من ناحية المعرفة، نحن مدينون للإغريق في طرائق التفكير والحكم على الأمور: فقد أخذنا عن الإغريق روح النقد كما اقتبسنا ملاحظة الظواهر ومناقشة المشكلات بحرية تامة. هذا هو التراث الأساس الذي نقله إلينا الإغريق الذين تصوروا منذ العصور القديمة استقلال العقل الإنساني المتحرر من السحر والنبوات وكل ما هو لاعقلاني، وحتى من الدين نفسه. فقد سبق لهم أن «علمنوا»، نوعًا ما، مجال المعرفة. وقد أخذنا عنهم كذلك ممارسة طريقة التفكير المنهجي في الحكم على الأمور، وفن توضيح الفكرة من طريق أدلة وحجج لا يستطيع الفهم والإدراك إلا الانحناء أمامها، بل إن الآلهة عندهم كانوا ملزمين بالخضوع للمنطق! هاكم هو الحد الأول الذي ارتسم بين الشرق والغرب، وهو كما ترون حد عقلي. ففي الآداب أو العلوم، الآشورية أو المصرية، وهي كانت متطورة، نرى أن الرجل الشرقي يأمر ويؤنب ويرجو ويتنبأ بالمستقبل، وأنه عندما يلاحظ، يحكي ملاحظاته، يعددها، يجمعها واحدة واحدة، وأخيرًا يكوّن منها مجموعة، ويتبع الرجل الإغريقي الطريقة نفسها، ولكنه يبحث على أن يستخلص من ملاحظاته قوانين عامة؛ بالكشف عن المنطق العقلاني للأشياء.

وقد كان المصريون علماء رائعون في قياس الأرض ومساحتها، في حين أن إقليدس[1] (Euclide) كان من أساتذة هندسة الرياضيات. وبين الطريقتين فرق كبير؛ فالطريقة الثانية قد أحرزت في مجال التطور الإنساني تقدمًا ملحوظًا حتى أن أعرق الحضارات الآسيوية كالحضارة الصينية مثلًا، لم تلحق بها في هذا

---

(1) إقليدس (Eukleidês) عالم رياضيات إغريقي عاش في حدود عام 300 قبل الميلاد، يعتبر في الغرب مؤسس دراسة الرياضيات.

المضمار. اليوم، فإنك حيثما كنت تلاحظ وتفكر وتحلل مثل الإغريق، فإنك حتمًا ستكون في الغرب. إنه مناخ فكري ثقافي يمكن التعرف إليه مباشرة.

تنطوي هذه الممارسة في التفكير والتحليل على مفهوم عن الفرد باعتباره قادرًا على مراقبة نفسه ومحاسبتها ومراجعتها، فمثل هذا الإنسان يكون حرًا ولا يخضع إلا للقوانين التي وضعها هو لنفسه أو رضي هو بها، ومن هنا مصدر اهتمامه بالشؤون العامة، كونها شؤونه هو. وبما أن حقوقه تتمثل في احترام كرامته الإنسانية وحريته الناقدة، فإنه يتلقى من القوانين بالمقابل ضمانات تفي بهذا الغرض. حين كان الإغريق يصارعون ضد الفرس فإنما كانوا يفعلون ذلك بصفتهم رجالًا أحرارًا واعين كونهم ذلك، يقاتلون ضد رعايا تابعين لسيد، كتلة من البشر عديمة الشكل ولا تماسك روحي بينها. من هنا ولد مفهومنا عن الفرد من وجهة النظر السياسية: وديمقراطيتنا الغربية هي ابنة «المدينة» التي لا تنفصل عن الليبرالية، وبالتالي فهي ترتكز على تصور لقاعدة مقبولة طوعًا وليست مفروضة وتتعارض مع هوى الحاكم المستبد. وساحة معارك سباقات الماراثون هي من أبرز الأماكن الرمزية التي لا يملك أي غربي يزورها سوى أن يقف مدهوشًا مذهولًا.

ويتضمن مفهوم «الكلمة» (Logos) الهيليني معنى فطريًا بالعلاقات وتناسبها في ما بينها. وقد كان الشرق على نقيض ذلك يعرف ما هو ضخم، وما هو جبار، وينتشي بذلك. كما كان الإغريق يفضلون التناسب الناجم عن الوسطية والاعتدال، فالذي يعرف علاقة الأشياء بعضها ببعض يصبح قادرًا على تقدير تناسب أهدافه مع الوسائل التي يملكها كي يقوى على بلوغها، وبذلك يكسب لنفسه قاعدة للسلوك خاصة به، وهي ليست بالضرورة «الأخلاق»، وإنما هي أخلاق في ما يخصه هو بالضبط. إن الغرب بقبوله التام بهذه الطريقة في النظر أو العمل بالأحرى، اكتسب الوسيلة الفريدة من نوعها لتحقيق قوته: أي الفاعلية، وهذا ما يميز العرق الأبيض من باقي الأعراق. وما إن يتعلق الأمر بأمور جدية، أو يختار أن يعتبرها جدية، فإن الغرب يتبع «الطريقة العقلانية الإغريقية»، ومن دون أدنى تحفظ أو حذر، حيال الدين، حتى وهو ينحني احترامًا له. وعلى الرغم

مما عرف عن الإغريق من أنهم يعرفون كيف يضعون اللاعقلاني في موضعه، فإنهم قد حددوا قطاعًا كاملًا من قطاعات الحياة، حيث يتطور العقل والتفكير باستقلال عن أي شيء آخر، وبغض النظر عما لم يكن منه أو فيه: فالتحرر لم يكن كاملًا في الميدان الاجتماعي، وإنما كان كاملًا حين يتعلق الأمر بالدراسة والعلم والتفكير والمنطق. لقد تبنينا هذا التمييز الأساس والذي لا وجود له لا في آسيا ولا في الإسلام، بحيث استمرت الحدود القديمة بين اليونان أم الغرب والشرق، والشيء المثير أنها بقيت في الموقع نفسه تقريبًا. والحدود الفاصلة لم تكن بين الله وقيصر فحسب، بل بين الله ومينرفا آلهة العقل والفكر، ولعله من الأصح أن نقول: بين الله ومنافسه الأكثر خطورة اليوم، إلهة الفاعلية.

نضب معين الحضارة الإغريقية على طول الزمن: فالقسطنطينية التي واصلت حضارة الإغريق وعملت على انتشارها في بلاد الغرب، قد فقدت اليوم الإلهام الروحي الأولي لهذه الحضارة، ولولا اقتصر التأثير على تراث الفكر الهيليني لما كان الغرب ما هو عليه اليوم. فلا بد أنه كان هناك تأثير وتطعيم آخر مختلف؟ وهنا بالذات يظهر مساهمة العالم اليهودي، ثم مساهمة الإنجيل. لقد نحت اليهود فكرة الإله الشخصي وتصور علاقات الإنسان بهذا الإله. فالتوحيد اليهودي هو توحيدٌ شغفٌ عاطفيٌ يتناقض مع التعددية الشكوكية للهيلينية. والحال أن الآلهة اليونانيين الذين تغلغلت النواقص البشرية في ألوهيتهم، والذين كانوا يخضعون بجلال وأبهة لقوانين الزمان والمنطق، والذين كانوا أقل ألوهية بالإجمال، لم يعودوا بنظرنا غير لعبة خيال ساحرة ومبتكرة. أما إلهنا نحن، خصوصًا في البروتستانتية، فقد ظل هو نفسه إله إبراهيم. ونحن أخذنا تصوّرنا عن الإله الكلي القوة والمجد والجلال والعظمة، الخالق كل شيء، والقادر على كل شيء حتى على تجاوز الحدود الأخلاقية: فهو الغيور المتسلط، وما على المؤمن إلا أن يعقد معه عقدًا (أو عهدًا كما في اليهودية والمسيحية) هو ميثاق الإيمان، هذا التصوّر أخذناه عن بطريرك أور (المقصود النبي إبراهيم). في هذا التصوّر للإله لا مكان للذكاء والعقل والتفكير المنطقي وإنما للروحانية الغيبية، إذ ما الذي يمكنه أن يشرح بالمنطق العقلي معنى تضحية إبراهيم بابنه إسحق؟ إن ذلك البدوي العتيق من أور هو في أصل طريقة

في التفكير والشعور تتأبد اليوم حتى لدى ملايين الغربيين. وأن يكون اليهود والمحمديين (التسمية الغربية للمسلمين) يعترفون معًا بإبراهيم بوصفه نبيًا لا يقلل بأي حال من المكانة الهائلة التي يحتلها في تكويننا الديني. خلال زياراتي للقدس كانت أولى أفكاري تذهب باتجاه الجلجلة، إلا أنه ظهر لي لاحقًا أن الحجر العجائبي الشهير في مسجد عمر لا يقل أهمية عن الجلجلة بوصفه شاهدًا على أصولنا الروحية. هذا المنبع آسيوي، ولكن لنوضح أننا نقصد غرب آسيا، إذ إن آسيا الوسطى قد كان لديها تصوّر خاص من الأديان الوثنية، حيث يصير الرجل (البشر) نفسه هو الله. ومع إبراهيم تبدأ في الغرب (Ouest) منطقة توحيدية يرتبط بها غربنا (Occident) نحن: فهو يتميز من جهة الشرق عن الهند والصين، ويفصل بينه وبين الديانات الأرواحية والوثنية الشركية الأفريقية حدود أخرى؛ وهذه المنطقة التوحيدية تشمل أساسًا اليهود والمحمديين والمسيحيين، إذ يجب علينا للحق أن نصنف أنفسنا في تيار دين إبراهيم وإسحق ويعقوب.

ومن التراث اليهودي يأتينا أيضًا، عبر المسيحية، تصوّرنا الغربي للفرد، الذي نعتبره وحدة أدبية معنوية اعتبارية. إن القانون الأخلاقي الاعتباري، وهو إلزام تقريري، لا ينبع من العقل والفكر، بل من قوة سلطانية عليا، مختلفة بجوهرها. وعملية النقل أو التحويل التي قام بها المسيح، نازعًا بذلك عن هذا القانون طابعه اليهودي، لن تغيّر في الأساس من طبيعته وسمته: إن الدور الضخم للمسيحية في تكوين الغرب، ولعلها (المسيحية) تشكل هي وحدته (الغرب) الرئيسة، يدل على أصالة هذا التصوّر للكائن البشري باعتباره ليس فكرًا وعقلًا وإنما وحدة روحية. لقد اخترع اليونان النظام والمنطق في حين أن اليهودي ومن بعده المسيحي يهتمان بالعدالة. غير أن النظام هو قاعدة في حين أن العدالة هي شغف وعاطفة: إذ يختلف في الحالتين كل من الضغط والحرارة والتوتر. إن المعنى العاطفي الشغوف والغيور لما هو عادل، والذي هو في الآن نفسه مُهمل ومنفي ومُداس، ربما، من طرف السلطة الاجتماعية، هذا المعنى يرجع إلى روح الاحتجاج، أي الروح الثورية حقًا. وبهذا، فقد هبت ريح صوفية غيبية حاملة عواصف، نبعت من بلاد اليهودية القديمة، اخترقت الأجيال والقرون وما زالت تهز الأرض تحت أقدامنا.

وبقدر ما أن هكذا خميرة تفعل فعلها فينا، بقدر ما أننا أقل أورفية[2] أو أبولينارية[3] مما نحن عبرانية. وأنا أميل إلى الاعتقاد أن هذا التأثير هو أكثر قوة عند البروتستانت مما هو عند الكاثوليك، وعند البروتستانت الأنكلوسكسون أكثر من غيرهم. فالكتاب المقدس هو بحق وتقليديًا الكتاب الأساس للكنائس المصلحة، وفي الكتاب المقدس لا يركّز هؤلاء على العهد الجديد فحسب، وإنما على العهد القديم أيضًا. ذلك أن تأويل آية من هنا، أو كلمة من هناك، مأخوذتين من سفر التكوين، أو من المزامير، أو من كتاب الأنبياء، هذا التأويل هو في أساس شيع بروتستانتية عدة في أميركا، يتسلل من خلالها نوع من الحضور الشرقي إلى قلب الغرب الأقصى. وهكذا، فإنه من التجربة اليومية في قراءة الكتب المقدسة، يولد في البلاد الناطقة باللغة الإنكليزية نوع من الثقافة الكتابية (البيبلية، متعلقة بالكتاب المقدس) أكثر شعبية مما هي أرستقراطية، محمّلة بالأشعار والألوان وبالنغمات الغنائية البليغة وبالآمال الإنسانية. والشيء الفريد هنا أن الدينامية اليهودية وقد انتقلت/ تحولت إلى بروتستانتية اجتماعية، نجدها حتى في التقنية الأكثر تجهمًا وتنفيرًا، بحيث يبدو أحيانًا (كما في حالة كارل ماركس) أن هذه الدينامية تلهب التقنية بشغفها العاطفي.

إن الغرب بأخذه هذه المقولات الشرقية القديمة لحسابه، قد حوّلها إلى حد أنها صارت تناقض معناها الأول. فالمفهوم الإنجيلي للكرامة الكامنة في أدنى

(2) نسبة إلى أورفيه. والأورفية تيار ديني في اليونان القديمة معروف بمجموعة من الأناشيد والتراتيل إضافة إلى بعض الكشوفات الأركيولوجية التي أظهرت صورًا وأوصافًا منقوشة أو منحوتة على ألواح وصخور وجدت في القبور القديمة. أما أسطورة أورفيه فغامضة وغير معروف أصلها وتاريخها وأشهر فصولها نزول البطل إلى قاع الجحيم بحثًا عن زوجته أوريديس (Eurydice). وهذه الأسطورة في أساس كثير من ممارسات التنسيب أو التعدية الغنوصية (initiation): النفس البشرية محكومة بالمرور بدورات بعث عدة لا ينقذها منها سوى طقوس التنسيب والتعدية التي تنقل النفس إلى حياة دائمة سعيدة حيث يلتقي الإنسان بالإله. ونحن نجد هذه الدعوة الخلاصية في صورة أدب شعري هيليني وبعضه نيوأفلاطوني محفوظ باسم أورفيه يعود إلى حوالى عام 560 ق.م وبعضه استمر حتى القرن الخامس ميلادي.

(3) نسبة إلى أبولينار (Apollinaire de Laodicée) (315-390م) ويسمى أيضًا أبولينار الشاب، كونه ابن أبولينار القديم (Apollinaris)، أسقف لاوذيقيا السورية (اللاذقية) انتخب عام 361، وكان زعيم هرطقة مسيحية سميت الأبولينارية.

البشر اتضاعًا تصبح في القرن الثامن عشر تأكيدًا للمساواة السياسية. وصرخة الأنبياء الداعين إلى العدالة هي في أساس الروحانيات الصوفية الاجتماعية الحديثة. وللمفارقة هنا، فإن ما كان نزاهة زهدية إنجيلية يصير منبع الفاعلية: لقد كان هدف الدين خلاص الروح (في الآخرة)، ولكن ممارسة عادة مقاومة كل الإغراءات، والزهد في رقابة صارمة على الذات، يتحولان إلى أداة للنجاح الدنيوي. يوجد هنا التباس غامض ومقلق من حيث إن الإلهام الغيبي يقود هنا إلى الإنجاز المادي. ويمكننا والحال هذه أن نتساءل هنا إن كانت غيبية إبراهيم الصوفية هي المنبع البعيد لإمبرياليتنا، إذ إن الله يكافئ إيمان إبراهيم بوعد بأن يكون له القوة/ السلطة الدنيوية. وإذا استمرينا في النظر إلى المسألة على هذا المنوال فسنصل إلى حد القول بأن الغرب قد مارس نقلًا/ تحويلًا لربما كان من وجهة النظر الروحانية الدينية خيانة.

لا الإغريق ولا اليهود عرفوا كيف يستخرجون القاعدة، أكان من المبدأ، أو من العاطفة. ونحن ندين لروما بفكرتنا عن النظام والانتظام وبعدتنا القانونية: لا بل إنه لا يوجد غرب حقيقي أصيل في القارة القديمة ما سوى داخل الحدود القديمة للإمبراطورية (limes)[4]. لقد كان بإمكان آسيا القديمة أن تقيم دولة، ولكن على شكل استبدادي؛ وكانت المدن الإغريقية قد أسست ديمقراطية، ولكن من دون أن تجد ميزان الوسط المعتدل بين الفوضى والطغيان. ولطالما حافظت أوروبا على حنينها للسلم الروماني، أي لانتظام كوني مؤسَس على إدارة كبيرة ويُخضع كل الحضارة للقوانين ذاتها. وفي هكذا نظام، فإن القانون يحمي الملكية من خلال قوننتها وشرعنتها، ومن هنا ذلك الاستقلال المدني للفرد. وبالتالي، فإن التصور المفهومي لما هو الإنسان، وهو تصوّر ولد في شرقي المتوسط، سيكون له تعبيره التشريعي القانوني الذي يضمن له وجوده. وبهذا المعنى أيضًا كانت روما، في مرحلتها الكاثوليكية، تؤدب وتهذب وتؤطر التيار الأساس في الإنجيل، عبر تحريره من منبعه اليهودي.

---

(4) (limes) اسم مفرد، هو حدود دفاعية وفي الوقت نفسه نظام ترسيم حدودي في روما القديمة. وهو رسم حدود الإمبراطورية الرومانية.

هكذا، فإن تراثًا مثلثًا سيخترق العصر الوسيط كي يصل إلى العصور الحديثة؛ وهذه الثلاثية تتمثل بـ: تراث الإغريق المرادف للحرية الفكرية؛ تراث الإنجيل (مع انعكاساته اليهودية) رمز المثالية البشرية؛ تراث روما المعلّمة في مجال الانتظام والضبط والربط. ومن واحدة أو أخرى من هذه المصادر الثلاثة تغذت الواحدة تلو الإخرى كل مراحل القرن الثالث عشر، والنهضة، وعصر الأنوار. ومنذ ذلك الوقت كان الغرب يستطيع أن يظهر مكتملًا ناجزًا، وبمعنى ما: الأفضل ربما، وهو كان كذلك في الحقيقة. وكان ينقص فحسب كي يكون الغرب على ما نراه عليه اليوم، أي لإنجاز كماله أو لإخراجه عن محوره وإضلاله، مرحلة أخيرة هي مرحلة التصنيع.

إن الأخذ بتقنية جديدة، أي تقنية الصناعة الآلية، هو الذي جعل من الغرب ما هو عليه اليوم، وذلك بتزويده بالسلاح الأهم والحاسم لقوته وسلطانه. وقد بدأت الثورة الصناعية في أوروبا الغربية في القرن الثامن عشر، بعد أن مهد لها منهجية أبدعها علماء القرن السابع عشر وفلاسفته شقت للإنسانية طرائق جديدة حقًا. وبهذه المناسبة يجب أن نميز ما بين العلم والتقنية. وقد سبق لهؤلاء الإغريق أن تصوروا قواعد الملاحظة العلمية، وإلى حد ما التجربة التطبيقية. وقد كانوا يمتلكون فكرة القانون الطبيعي لدرجة أن العلماء المحدثين لم يأتوا بجديد في هذا الشأن، لكن العلماء الأقدمين، كانوا في ما عدا بعض منهم، مهتمين بالعلم النظري، لشغفهم بالتأمل البحت (وهو بنظرهم أكثر نبالة)، أكثر من البحث عن التقدم المادي. وقد كانوا يعيشون تحت سماء مناخ البحر المتوسط المريح والذي لا يجعل من مشاغل الحياة العملية أمرًا حتميًا بالنسبة إليهم: وكان أرخميدس يعتذر عن اختراعات الإبداعية! أما في حضارة مركزها انتقل إلى شمال غربي أوروبا، فكان يجب أن نشن حربًا ضد البرودة والرطوبة وتقلبات الجو المفاجئة، وأن نقلق بالضرورة حيال كيفية ترتيب راحة أكبر في الحياة اليومية. وفي ظل هذه الظروف كان من الطبيعي أن يتجه العلم اتجاهًا بعيدًا من المشاهدة والتأمل؛ وأن تبدأ التقنية بتحضير نفسها كي تتغلب على العلم. وقد ظل حب المعرفة عند المفكرين والعلماء القوة الدافقة المسيطرة بلا شك، ولكن لم يعد بمقدور العلم إهمال التطبيق. والحال أن الفكر هو

الذي كان يقدم للعلم طرائق الاهتمام بالتقنية: فالطريقة التجريبية للفيلسوف الإنكليزي بيكون (Bacon) هي مصدر الفاعلية الحديثة، وطريقة الفيلسوف الفرنسي ديكارت تتضمن فعليًا بذور العقلانية الأميركية. وهؤلاء المفكرون أو الفلاسفة الذين نعتبرهم امتدادًا لمفكري الإغريق هم الذين هيأوا لظهور الازدهار الصناعي الرائع في القرنين التاسع عشر والعشرين، وذلك بفضل الطرائق والمنهجيات التي طوروها.

على أن «الآلية» كما يمارسها الغرب، لم تكن ممكنة بغير العلم والمنطق على الطريقة الإغريقية، وهذا ما لا يمتلكه الشرق، لا بالأمس ولا اليوم. وهذه «الآلية» هي أولًا «تقنية فنية»[5] (technique)، تقنية امتلاك القوى الطبيعية التي تخضع لاستغلال الإنسان والتي تتضاعف قواها بهذا إلى غير حد. ولم تكن الأدوات المستخدمة في العصر الحجري لتتحرك إلا بواسطة الطاقة العضلية للإنسان وهي محدودة للغاية؛ على أن الآلة في العصر الحديث - على الرغم من أنها ليس لها علاقة البتة بعضلات الإنسان - لا تعرف لها حدودًا في الإنتاجية، بحيث إنه يصبح من خلالها كل شيء ممكنًا من بعد. وقد ترتب على هذا التطور شكل جديد تمامًا من الحياة الاجتماعية للإنسان، لأن العلم الذي أضحى في خدمة الصناعة، كما غدا شيئًا مختلفًا تمامًا عن مجرد الفضول الخالص في المعرفة، تحول إلى علم منتظم مرتبط بالوقائع كي يطوّعها في خدمة حاجيات الإنسان. وما يسيطر اليوم على الإنسان هو الرغبة في الاقتدار والقوة، والتعجل في استغلال الأرض التي يعيش عليها. والإنسان هو سيد طرائقه وتدابيره، ولكنه لم يعد سيد نفسه: فهناك نوع من الرومنطيقية المنفلتة من عقالها تستولي عليه، وهي التي عبر عنها الكاتب الفرنسي باريّس (Barrès) بقوله: «إنها طريقة منهجية في خدمة شغف عاطفي».

وليس عصر الآلة مرحلة تاريخية محددة، ولكنه عصر جديد للبشرية: فبعد العصر الحجري الذي يمر أمامنا، يظهر عصر الآلة: وهذا العصر يوافق سياسة الإسراف المبتذلة للثروات الطبيعية في العالم والتي لا يهمها الاهتمام والتفكير

(5) مجموعة المناهج والطرائق في الفن كما في الصناعة.

في آثار هذا الإسراف على مستقبل العالم، ولعل هذا ما يفسر جزئيًا ذلك الانطباع المتكون عندنا عن وجود إثراء مفاجئ وغير متناسب وهو انطباع توحي به تلك الحضارة التي تصرف رأسمالها. وقد احتكر الغرب لمدة قرن ونصف القرن العلم والصناعة الميكانيكية، وبذلك استمد منها قوة لا يوجد شيء يستطيع مقاومتها. فالتوازن الذي كان في القرن السابع عشر بين أوروبا وآسيا لم يعد له وجود. وحين اكتشفت آسيا متأخرة أن التقنية الفنية الغربية ترادف السيطرة والتسلط، حاولت جهد طاقتها أن تقلدها ولم يكن ذلك بسبب إعجابها بها، بل من أجل الدفاع عن نفسها. واليوم تطالب جميع القارات والبلاد والأعراق بتعميم الآلة. ولكن استعمال الآلة شيء سهل، أما اختراعها وتجديدها فهو شيء آخر؛ وهنا يتبدى الأساس الصلب، على الرغم من كل شيء، الذي يقوم عليه التفوق الغربي. والظاهر من هذا التفوق هو التقدم التقني، غير أن النجاح الذي أحرزه الغرب يعتمد على عوامل متشعبة للغاية بقدر تشعب المصادر القديمة التي نشأ منها وتنوّعها. ونحن نرى هنا تباشير أزمة محتملة لحضارتنا تلوح في الأفق: ذلك أن تقنيتها تتغذى أساسًا من ثقافتها؛ وهي بإنكارها ثقافتها، أو بميلها وانحرافها المبالغ به صوب التقنية، فإنها تضرب في الصميم مصادر حيويتها نفسها.

(2)

لقد تكونت الحضارة الغربية في وسط جغرافي خاص، حيث نشأت في الأصل في حوض البحر المتوسط عمومًا وفي شرقه خصوصًا. وبتعارض مع الكتلة القارية الآسيوية كانت الحياة الإغريقية بَحرية متمفصلة ومتنوعة. كما أن روما على الرغم من أن بنيتها كانت أكثر صلابة، فإنها ظلت متوسطية أيضًا. ثم إن النظام الصناعي الذي هو الطابع المميز للغرب اليوم، تبلور في وسط أوروبا وشمالها الغربي. حتى ولو أن حاضنة التقدم التقني تميل إلى التمركز في العالم الجديد، فإنه ينبغي دائمًا الاعتراف بأن النبض الأول لهذا التقدم كان في العالم القديم. هناك إذًا ظروف وشروط جغرافية يمكن التعرف إليها بسهولة هي التي كانت في أساس حضارتنا.

وإني لأرى أولًا، وفي حوض البحر المتوسط خصوصًا، بيئة جغرافية مناسبة لحياة البشر باعتدال، حيث لا تقسو الطبيعة أو تشتد تجاه الإنسان. وقد كان السفسطائي الإغريقي بروتاغوراس[6] (Protagoras) يقول في هذا المقام قولًا مميّزًا: «إن الإنسان هو المعيار الوسط للأشياء». ويصف بول فاليري (Paul Valéry) قول هذا الفيلسوف بأنه متوسطي أساسًا، ويمكن القول بأنه أوروبي أيضًا. والواقع أن الإنسان في القارة القديمة قد كيّف نفسه مع الطبيعة. والشيء نفسه ينطبق على المناخ بوجه عام فهو مناخ معتدل هادئ بحري (ريحه جنوبية شرقية)، وليس مناخًا قاريًا عدوانيًا (المعروف بشدة حرارته وبرودته)، أي إنه - على حد تعبيرهم - بين بين؛ على أنه لا يثير في الإنسان البلادة أو الحماسة في العمل الذي يفيض عن الحاجة، بل إنه على العكس يثير في المرء حالة وسط من الجهد الموزون والنتائج التي يمكن احتسابها مسبقًا، ففي مثل هذه البيئة توجد علاقة بين الإنسان والطبيعة التي يعيش فيها. وهذا الأمر يقتصر على أوروبا فحسب من بين القارات كلها. ونتائج تأثير مثل هذا المناخ على الإنسان واضحة. فإمكان قياس المجهود للوصول إلى الهدف المقصود، هي مولِّدة لأخلاقيات، وفي الأقل ما يتعلق منها بشعور معقول حيال السلوك والتصرف، يتضمن تصورًا دقيقًا للزمان والمكان. أما إذا كانت البيئة الجغرافية شاسعة المساحة غير معتدلة المناخ، كما هو الحال في أفريقيا وآسيا وأميركا مثلًا، فإن هذا النوع من الأخلاقيات المتوازنة في السلوك، لا تكمل صورته في مثل هذه القارات. وعلى ذلك يكون العمل فيها إما مفرطًا في السهولة وإما مفرطًا في الصعوبة، كما لا تنشأ علاقة ثابتة بين المجهود المبذول ونتائجه المرتقبة: ومن هنا روح التأمل التي تعطيك ادعاء الحصاد من دون انتظار، أو لاوعي المزارع الذي يؤمن بأنه يستطيع أن يطلب كل شيء من الأرض من دون أن يستنزفها. في حين يؤمن الفلاح الأوروبي إيمانًا راسخًا بطاقة الإنسان

---

(6) بروتاغوراس (Protagoras) فيلسوف إغريقي ما قبل سقراطي، عاش بين عامي 490 ق.م و420 ق.م على وجه التقريب. عده أفلاطون واحدًا من السفسطائيين، وذلك في حواره المعنون باسمه (بروتاغوراس)، حيث يصفه بأنه أول من اخترع وظيفة السفسطة. اشتهر بعباراته التي أثارت ولا تزال تثير الجدل: «الإنسان هو معيار كل شيء»، والتي فسرها أفلاطون على أنها تعني أنه لا يوجد حقيقة مطلقة.

المحدودة، وضرورة مسايرة إنتاجه لطاقته. وقد تكون الحرب هي التي جلبت معها هذا السلوك الاقتصادي. بيد أنه عندما نقارن تصرفاتنا في العمل والإنتاج بمثيلاتها في الأعراق الأخرى، بل مع إخواننا من العرق الأبيض في ما وراء أوروبا، نجد أن أوروبا قد أرست مبادئ وخُلُقيات خاصة بالعمل كانت أحد عوامل نجاحها.

وعلى الرغم من أنه ليس كل البيض مرتبطين في ما بينهم بهذه الفكرة، إذ إن بيض آسيا ظلوا يقاومونها، فإن الحضارة الغربية فضلًا عن أنها ثمرة من ثمرات بيئة معيّنة، فهي كذلك عمل من أعمال عرق بعينه. فالبيض وحدهم، من دون غيرهم، هم الذين صنعوا حضارة الغرب. والمسافة التي تفصل البيض عن السود والحمر مسافة كبيرة جدًا. وإذا كان أبناء العرق الأصفر يمتلكون فاعلية تضاهي فاعلية البيض، فإنهم يقاسون من تأخر تقني يقدر بثلاثة قرون. وفي هذه الظروف، فإن حضارتنا تشمل منطقة جغرافية نشعر في ما بيننا وبين أنفسنا أنه من الصعب تعيين حدود لها. والحال أنه في العصور القديمة كان الشرق قبلًا يتميز من ذلك الشيء الذي لم يكن قد سمي الغرب، أي من ذلك العالم الهيليني الذي كان عليه أن يخلق طريقة جديدة في التفكير. فبحر «إيجه» بمدنه الإغريقية الواقعة على الشاطئ الآسيوي كان يمثل حضارة غير حضارة الفرس الشرقية الخالصة. وحين امتدت الهيلينية في عهد الإسكندر الأكبر حتى وصلت إلى الهند، بدا وكأن حدود حضارتنا قد تراجعت حوالى 2000 كلم صوب الشرق، إلا أن ذلك كان مجرد مد مؤقت، إذ ما إن حل القرن الثاني بعد الميلاد حتى استرد الشرق حقوقه حين جعل من الفتح الهيليني نفسه «شرقيًا»: فمع الحدود (limes) التي توقفت في سوريا على بوابة الصحراء، بدا وكأن هناك نوعًا من الحدود الجغرافية القديمة ترتسم من جديد. أما مع العرب، فإن الشرق هو الذي فاض على الغرب، في المتوسط، وحتى المحيط. وكان العرب يومها أكثر ثقافة وتهذيبًا من الغربيين. وكانوا هم الرواد الأول قبل الغرب في المبادأة (d'initiative) والحرية الفكرية التي اقتبسها الغرب منهم وبفضلها أكّد عظمته في ما بعد. وأخيرًا، ومع انحطاط الإمبراطورية العثمانية ونهايتها عدنا مجددًا إلى حدود الماضي.

ترى ما هي هذه الحدود؟ يبدو أن حوض البحر المتوسط، ومهما كان حجم التأثيرات الشرقية المتغلغلة فيه، وفي تباين مع القرى الخلفية الغارقة في عمق القارة، لا يزال يُحسب على الغرب. على الساحل، نرى أن الموانئ المسماة بالأسكلة[7] تنتمي إليه (أي المتوسط)، وتقف في مقابل تلك المخازن/ المستودعات الداخلية، وهي موانئ فعلية للصحراء، والتي غالبًا ما سميت بالبازار. وفي حين أن الإسكندرية وبيروت وطرابلس هي متوسطية، فإن القاهرة والقدس ودمشق وحلب تستظل بمناخ يختلف عن مناخ تلك الموانئ وتنتمي إلى عالم غير عالمها. إذًا هناك اختلاف بين منطقتين جغرافيتين وبين حضارتين، وليس من الخطل أنه جرى الكلام على المتوسط على أنه مضاد الصحراء. وإضافة إلى ذلك، فإن الشرق يبدأ مع الإسلام الذي استرد كل ما قامت به أثينا وروما من غزوات وفتوحات في آسيا. وباختصار، فإنه لم يكن ممكنًا لحياة الصحراء والمساحات البرية الشاسعة أن تتغرب: إنها تنتمي للشرق، ولهذا رجعت إليه.

على أن العبور بين أوروبا القارة وآسيا هو أقل وضوحًا، فالغرب الخالص يمثل أوروبا الغربية ووسط أوروبا، أما بعد ذلك وبالاتجاه نحو الشرق نجد تدرجًا في المنبسطات: فمناطق الوقت تقسم القارة بدقة إلى كتل حضارية. وحين نبلغ الساعة الروسية، فلعلنا لا نكون ربما بلغنا آسيا، ولكننا لسنا أيضًا في أوروبا تمامًا، إنما نحن بالتأكيد تركنا الغرب وراء ظهرنا.

وأخيرًا، فهناك في الغرب الأقصى ذلك الجزء من حضارتنا الذي لم يعد أوروبيًا: الولايات المتحدة، الممتلكات البريطانية، بلدان أميركا الجنوبية، في الأقل بقدر ما أن العرق الأبيض هو المسيطر فيها. وعلينا أن نضيف مستعمرات الاستغلال التي يديرها البيض والتي تشكّل ما يشبه الأسكلات نوعًا ما. ولكن

---

(7) أساكل، جمع أسكلة، هي مرافئ ومدن الشرق في الإمبراطورية العثمانية، على امتداد الشرق الأوسط وأفريقيا الشمالية. والتسمية تأتي من الكلمة التركية iskele التي تعني المرفأ أو مربط السفن، وهي اللسان البري الممتد في البحر والذي منه ينطلق البحارة والبضائع. وفي السجلات الشرعية العثمانية تعني كلمة الأسكلة ميناء طرابلس تحديدًا.

يجب أن نترك خارج هذا العالم تلك البلدان التي مع استخدامها تقنياتنا واتباعها مظاهر حضارتنا المادية، لا تزال تنتمي روحيًا إلى حضارة أخرى. ومن هذا المنظار لا مصر ولا باكستان ولا هندوستان هي من عائلتنا، ولعل هذا الأمر يوضح وحدة الأساس المسيحي للعالم الغربي التي هي ربما الوحدة الأكثر واقعية، وتلك النزعة الإنسانية، وحس الشفقة والرحمة، والإحسان، والتي تغطي، بحسب عبارة القديس بولس، «حشد من الآثام والخطايا».

وفي ضوء هذه المميزات، وحين نكنس كل الادعاءات والمظاهر والنفاق، فإن الروح الحقيقية للحضارة الغربية ستبرز بالإجمال واضحة نقية. وفي عمقه الأساس يعتقد الغرب ويؤمن بأن المرء يمكنه ويجب عليه أن يصنع مصيره بنفسه، فهو لن ينتظر إذًا أن تزف إليه السماء أسباب السعادة، بل سيتدخل بنفسه بعد أن يحدد هدفه الذي يسعى إليه والوسائل اللازمة للوصول إلى هذا الهدف. وهذا نفي للقدرية وللسلبية، لأن التركيز هنا هو على المظهرين المادي والاجتماعي للأمور؛ والموضوع هو دائمًا التقدم البشري أكثر من كونه الروحانية. وهؤلاء الذين يعرفون قارة آسيا حق المعرفة، لا يغيب عن بالهم مدى اختلاف المناخ العام هنا وهناك، وكيف أن آسيا تستسلم، حتى اليوم، للفقر والجوع والمرض وحتى للضعف الجسماني العام. ويبدو أن الآسيويين يضعون المصدر الحقيقي للسعادة في مكان آخر غير التقدم المادي.

والغرب يتحدث كثيرًا عن الله، لا بل يسهب كثيرًا في حديثه، بيد أنه في الأغلب يتصرف كما لو أنه لا مبرر كي يتكل عليه. ويحمل المثل القائل: «عاون نفسك، فإن الله سيعاونك»[8]، دلالة كبيرة في هذا الصدد. وقد كتب لا فونتين (La Fontaine) في هذا المعنى يقول[9]: «هرقل يريدنا أن نحرك أنفسنا قليلاً ثم يأتي هو للمساعدة» (بمعنى أنه على المرء أن يساعد نفسه أولًا، ثم تأتي بعد ذلك مساعدة الله له). لذا، فعلى المرء أن يعمل ويجد في أموره بنفسه كما لو أنه لن يجد أي معونة من السماء. وهذا يعتبر «علمنة» لمسألة «العمل» تقود

---

(8) المثل الشعبي: اسع يا عبدي كي أسعى معك.

(9) في إحدى قصائده المسماة: «Le Chartier Embourbé»

في النهاية إلى إيجاد وتحديد حقل/ ميدان، مدني إن شئتم القول، حيث يسود حصرًا حكم العقل وطرائقه. فنحن هنا نطبق إذًا حرفيًا قسمة العالم ما بين الله وقيصر، وهذا الأخير عنده مملكة كاملة له أكبر بكثير مما قد نظن. وقد علق المؤرخ الفرنسي إرنست رينان (Ernest Renan) على القول الشائع عن المسيح: «اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله» بأنه «أساس الحضارة الغربية. وهي عبارة عميقة قررت مستقبل المسيحية في العالم. وهي أيضًا عبارة ذات روحانية كاملة ومعنى دقيق وعميق، أسست الفصل ما بين السلطتين: «الروحية والزمنية»، ووضعت دعامة الليبرالية الحقة والحضارة الحقيقية»[10].

هذا التمايز بين حياة مدنية وحياة دينية هو في الحقيقة شيء لا يعرفه الشرق: فلا يوجد أي حجاب حاجز بين هذين الحقلين. وفي الإسلام يبدو وكأنه لا يمكن تصوّر وجود قانون مدني. فثمة سلسلة طويلة من الأفعال، وبعضها من أهم ما تقوم به الحياة اليومية، تبقى محددة بالحجج النابعة من الإيمان الديني أو من النبوة أو السحر، وليس من العقل والتجربة. وهذا على عكس ما يقوم به الغرب من مباشرة الأمور العملية من دون ندم وبواسطة اعتبارات وإجراءات عملية: وكل الادعاءات المناقضة تتلاشى هنا.

وأظنني مجبر هنا على الذهاب أبعد من ذلك: إذ إننا نعمل من دون الآلهة، كما يقال، وإن دعت الضرورة فبالضد منهم أيضًا. ولقد كان بروميثيوس[11] (Prométhée) يمثل شخصية الثائر الذي يستنهض مقاومة البشر ضد الخضوع والطاعة التي تنادي بها الآلهة. ومن طريق هذه الثورة أخذت ظروف البشر في التحسن. على أن أوروبا اليوم، وهي تواصل يوميًا تراث أنصاف الآلهة، تعبّر في

(10) Ernest Renan, *Vie de Jésus* (Paris: Calmann-Lévy, 1863).

(11) في الميثولوجيا الغربية بروميثيوس (*Promêtheús*) هو من العمالقة أو الآلهة الأوائل البدئيين الذين خلقوا الإنسان من بقايا طين تحول إلى صخور، وهو من سرق النار المقدسة التي كانت مشتعلة على الدوام في الأوليمبوس وخبأها ثم أعطاها للبشر بعد أن كان الإله زوس (Zeus) قد أخذها من البشر أول مرة. وقد غضب زوس (إله الآلهة) عليه لفعلته هذه وحكم عليه بأن يبقى مربوطًا إلى صخرة على قمة جبل القوقاز، يأكل صقر القوقاز كبده كل يوم ويعود هو إلى الحياة في الليل. وقد جاء هرقل لاحقًا وقتل الصقر وخلص بروميثيوس من عذابه.

الحقيقة عن هذا اللاخضوع واللاامتثالية، الأمر الذي يحفظ لها حيويتها، كما أن الحركة تجعل المياه حية. ويحق لنا أن نتساءل إن كان الأخذ بموقف امتثالي، على شكل دولة توتاليتارية على سبيل المثال، قاضيًا على المستقبل الحقيقي للقارة. ذلك أن أسلوب النقد والكفاح أمر متأصل في القارة الأوروبية: كفاح من أجل الدفاع عن الحدود أو عن وحدات سياسية ترفض الاندماج مع بعضها بعضًا، كفاح من أجل تحديد من يملك الهيمنة ويقرر كيفية قيادة العالم. فتاريخ أوروبا كله ليس إلا سلسلة من الحروب الداخلية بين دول متنافسة لا تملك واحدة منها القوة اللازمة للسيطرة على الآخرين. ومع ذلك، فإن وحدة الحضارة الأوروبية لم تكن قط موضع تشكيك أو تساؤل، وهذا يعتبر خاصية من خصائصها المميزة وهي أن هذا الشقاق السياسي كان متطابقًا مع ثقافة مشتركة. فهناك تعايش بين روح إبداعية وتنظيم وضعي وعقل نقدي سرعان ما يتحول إلى روح ثورية، تزن الأمور وتقيسها وتناقشها، وإن لزم الأمر تنفيها. فهل كانت أوروبا تستطيع المحافظة على حيويتها من دون هذا التناقض؟ على أن هذا التناقض هو أيضًا الذي يقتلها. وهذه اللاامتثالية انتقلت أولًا عبر الأطلسي، ولكن لا يبدو أنها مستقرة هناك. والنتيجة القادمة رائعة، ولكن أليست تلك إحدى ينابيع الغرب الأقصى الحية التي قد يفقدها بالتالي.

لقد حدثت نفسي دائمًا بأن أي عملية تربية وتعليم غربية كاملة لا بد وأن تنتهي بحج إلى «هذه الأمكنة التي لها معنى خاص للروح» كما يقول بارّيس، والتي تشكلت فيها الحضارة الغربية. فإذا أتيح لي أن أحج إلى هذه البلاد، فإنني أبدأ بالقوقاز للبحث عن صخرة «بروميثيوس»، وفي مكان ما من بلاد اليونان القديمة الموقع الأسطوري الذي أنجز فيه هرقل انتصاراته، وهو الذي كان يدعونا إلى أن نتحرك... وسيكون المركز الرئيس لزيارتي الأكروبول، حيث كل واحد منا سيستعيد هناك صلاة رينان، إلا أنها صلاة من وحي آخر مختلف ستجري في القدس. ولن أكون متناقضًا مع نفسي إن قلت إن بحثنا هناك لن يكون عن المسيح وحده، ليس لأن المكان ليس مناسبًا لذلك، ولكن لأنه لا يجوز أن نربط بين مكان محدد وذاك (المسيح) الذي بشّر بأن دين الروح والعقل ليس له حدود سوى حدود البشرية نفسها. وأمام صخرة إبراهيم سأنتقل بالفكر

نحو أول تصوّر مفهومي للإله الشخصي الذي لا يزال هو إلهنا، وأتضامن مع الذين يؤمنون به. وأظن أنني لا أريد أن أنسى الإسكندرية ولكنني سأنتقل في ما بعد صوب روما، حيث سأتأمل حال تلك المدينة الفريدة والتي وهي حاملة شكل الإمبراطورية أم شكل الكاثوليكية، غرست في حضارتنا المفهوم الأساس للنظام والانتظام.

كما أنني بصفتي حاجًا شغوفًا أريد كذلك أن أتنقل في مختلف الأماكن التي تكونت فيها طرائق العلم والتقنية الحديثة بفضل عبقرية بعض الرجال. على أن الاختيار هنا يصبح شبه مستحيل. فهل أبحث في مكان ما من ألمانيا عن «الموقع القطب» الذي وضع لنا فيه «ديكارت»، في هدأة إقامته الشتوية، قواعد التفكير التي ما زلنا نستخدمها الآن؟ وهل أجد في البحث عن مكان ذلك البستان الذي شاهد نيوتن (Newton) سقوط التفاحة من إحدى أشجاره؟ وهل ألحق خطى وات (Watt) أو دنيس بابان (Denis Papin) مخترعي الآلة البخارية التي أقامت دعائم الثورة الصناعية؟ أم أبحث عن كلود برنار (Claude Bernard) في ذلك المختبر المتواضع في الكوليج دو فرانس والذي عمل فيه على إتقان الطريقة التجريبية في العلوم؟ أم عن باستور (Pasteur) في ذلك الزقاق من شارع أولم بباريس، حيث كان له السبق في فتح نافذة أمام عظمة العالم الجديد؟... إن المحاولة هنا ستصبح جد جمعية، وأيضًا ضخمة جدًا على وجه الخصوص، كي يكون بالإمكان أن نجمع حول مكان ما كل الملاحظات الساحرة الفاتنة التي تدعونا إليها تلك المحاولة.

لكنني أفضل حينئذ أن أغيّر من مجال رحلاتي كي أنتقل إلى المغامرة! فأبدأ مع فيكتور بيرار (Victor Berard) في المسير على خطى رحلة عوليس، وفي إعادة بناء صورة تلك الغزوة المدهشة التي قام بها البحار الاسكندنافي ليف أريكسن (Leif Ericksen) الذي اكتشف أميركا منذ القرن الحادي عشر، ولكن اكتشافه لم يترك أثرًا نظرًا إلى انعدام الدعاية له (ويا له من درس بليغ!). وسأصّر جدًا على زيارة تلك الشواطئ الجنوبية الغربية من أوروبا والمفتوحة على المدى وعلى الحلم، والتي كان مستكشفو النهضة ينطلقون منها نحو عوالم مجهولة: منها

كنيسة بيليم (Belem) في لشبونه، حيث يستريح فاسكو دي غاما في الموقع نفسه الذي منه انطلق في فتوحاته الهندية، أو دير سانتا ماريا الرابضه (Santa maria de La Rabida) قرب وَلْبَة (مدينة في الجنوب الغربي من إسبانيا عاصمة مقاطعة ولبة من منطقة الأندلس) (Huelva)، حيث نسمع صوت المحيط من دون أن نراه، وحيث نام كريستوف كولومبوس ليلة سفره نحو عالم جديد. يا لهذه الرحلة الرائعة التي لا مثيل لها يا سيد كوك (Cook)!

(3)

وبعد، فإني لا أدري إن كان الغرب بذاته أرفع منزلة أو أرقى من الشرق. إذا كان المقصود الناحية الأخلاقية أو حياة الروح، فإن الشرق لا يعترف بهذا التفوق عليه، أما في مجال الفاعلية فما من شك أن الغرب يتغلب على الشرق. ويجب علينا أن نحلل أسباب هذا التفوق الفذ والخارق.

إننا نلمس بوضوح وجلاء تفوقنا ورفعة منزلتنا في ميدان التقنية. حتى القرن السابع عشر بقليل لم تكن الكفة لمصلحتنا. وقد كان يتوفر لدى الهنود والصينيين والعرب طوائف من الصناع المهرة في مختلف الصناعات، وقد تفوقوا علينا في هذا الميدان بكثير، حتى باعترافنا نحن. فالأنسجة الهندية، والأواني الخزفية والأصماغ الصينية، تنم عن دقة الصنع ومهارة الإبداع التي لم نستطع أن نتعداها أو أن نبلغها حتى. وكثير من الاختراعات التي قمنا بتنميتها لاحقًا أخذناها عن آسيا من دون أن تكون هذه الأخيرة قد اهتمت بالاستفادة منها: فقد استخدمنا مسحوق البارود في صنع قنابل المدافع، في حين كان الصينيون يستخدمونه في صناعة الألعاب النارية!. وفي مجال التقنيات الحرفية التي تدل على التفتح المفيد للعصر النيوليتي، لم يكن الغرب ليحتل المكان الأول فيها. والحال أن الآلة هي التي تؤرخ لمصلحتنا بداية تفتح لا مثيل له. ونحن والحق ما زلنا إلى اليوم نمتلك احتكار الآلة إلى حد كبير: فالمنتجات الميكانيكية الثقيلة والصعبة لا تصنع إلا في الغرب، ويمكن صناعة المنتجات الميكانيكية الخفيفة والسهلة في أي بلد آخر غير بلاد الغرب. وحتى اليابان

نفسها وعلى الرغم من تفوقها في بعض التخصصات، نجد أنها غير قادرة على أن تقوم بكل الأشياء.

ومع ذلك، فقد أجادت آسيا إدارة آلات الغرب وهي تستخدمها برشاقة وبوعي حاد للتقليد، وخصوصًا أنه يتم بكلفة زهيدة، ذلك لأن اليد العاملة لا تكلفها شيئًا على وجه التقريب. فثمن التكلفة لصناعة غزل القطن في اليابان أو الصين تتحدى كل منافسة لها في العالم. ومن هنا ذلك التصور الواهم الذي يظل يراود الشرقيين، حين يقولون للغربيين: «نحن نملك من الآن فصاعدًا آلاتكم ونجيد استخدامها، فنحن إذًا على قدم المساواة. والتفوق الذي كان لكم بالأمس علينا، لم يعد لكم اليوم». وفي الحقيقة أن الطائرة والسيارة والآلة، لم تعد ملكًا خاصًا أو احتكارًا لقارة معينة؛ كما أن استخدامها الشائع ليس هو السبب العميق للنجاح الغربي، إنما السبب يكمن في أن كل الاختراعات الميكانيكية الحديثة وبالإجمال كل الاختراعات الصناعية الحديثة، تصدر عن بلاد من العرق الأبيض.

إن كل الحضارات الإنسانية قد عرفت الواحدة تلو الأخرى وفي طور معين من أطوار نموها شيئًا من الإبداع. ولا يوجد هنا أي احتكار لقارة أو لعرق، ولكن من المقبول أن نقول إنه في المرحلة الصناعية الراهنة قام الغرب بالعبء جله إن لم يكن كله، في حين أن الشرق لم يقدم شيئًا. قد يكون عظيمًا أن تعرف إدارة الآلة، لكن هذا وحده لا يكفي، بل يجب أيضًا أن تكون قادرًا على إصلاحها، وعلى تحسينها، وعلى دراية بإعادة تركيبها وبإعادة تصورها وصناعتها من جديد في ضوء ظروف وضرورات جديدة. فآسيا تقلد على أحسن الوجوه، ولكنها لا تجدد في ما تستورده من مفاهيم وتصورات؛ وانطواؤها على خبراتها التي تفصلها عن المصدر الأصلي الأوروبي أو الأميركي للمخترعات يجعلها سريعًا عاجزة أو متخلفة عن الركب. وفي الوقت الذي يتابع فيه الغرب تقدمه، فإن آسيا تظل في حالة جمود، لا من نقص في الإدراك والذكاء أو النشاط، بل من نقص في الإلهام والطريقة الخلاقة، وربما يكون من نقص في الإيمان بالتقدم الإنساني أيضًا.

وأعتقد أننا لم نصل حتى الآن إلى السبب المباشر أكثر ما يكون لنجاح الغرب في إنجازاته الكبرى الحديثة: وبرأيي أنه علينا أن نبحث عن ذلك في قدرته على الإدارة؛ ذلك أن الإنتاج الإنساني ينقسم تاريخيًا إلى بعض المراحل الكبرى من التطور المعقدة في ترتيب تعاقبها، إلى حد أنها لا تزال تتطابق من حولنا، في البلدان نفسها، مع الورش نفسها تقريبًا. فما يطابق العصر النيوليتي هو أولًا مرحلة الحرفة المرتبطة باستخدام الآلة اليدوية. ومع الآلة الميكانيكية جاءت المرحلة الميكانيكية التي خرج منها التطور الضخم للصناعة الحديثة. وهذه الأخيرة هدفت - بعد تفوقها في الإنتاج على نطاق واسع وبكميات ضخمة - إلى توجيه الإنتاج صوب مرحلة جديدة هي «المرحلة الإدارية»، لأن إدارة المشاريع الكبرى تتطلب تنظيمًا متنوعًا معقدًا لدرجة أن يتجاوز الميدان الخاص بالتقنية؛ فقد أوضحت جميع الإحصائيات الأخيرة في البلاد الصناعية الكبرى أن النسبة العددية لمجموع العمال تتناقص في حين يتزايد مجموع الإداريين والتجار تزايدًا سريعًا. وفي المؤسسات التي يقوم فيها الإنتاج على ثمن التكلفة، يتضاءل موقع التصنيع، في حين يتضخم موقع الإدارة. وقد أصبح لزامًا على الرؤساء في المصانع شيئًا فشيئًا أن يكونوا إداريين ومنظمين من الدرجة الأولى قبل أن يكونوا تقنيين. والحال أن الذي يملك هذه الموهبة في الإدارة في وقتنا الحاضر هو الغرب وحده.

إن الصفات المطلوب توافرها لإدارة أي مشروع حديث بنجاح جد معروفة. فيجب أولًا أن نحدد الهدف الذي نضعه نصب أعيننا وننسق الوسائل التي نملكها من أجل بلوغ هذا الهدف. كما ينبغي أن نكون قادرين على قياس الوقت الضروري للانتهاء من إنجاز المشروع، لأن الوقت مهم جدًا لاحتساب تكلفة الإنتاج والمردود؛ وإضافة إلى ذلك، يجب أن نقدّر مسألة أعطال بعض الآلات كي نسهر دائمًا على صيانتها وتجديدها عندما تكون على وشك الاستهلاك. وحين يكون المشروع ضخمًا يكون مجموع العمال كثيرًا، وذلك يستلزم توجيهًا حكيمًا متزنًا للمحافظة على النظام وفاعلية المجهود الجماعي المشترك في الوقت ذاته. وقد برهنت التجربة على تمتع الغربي بالصفات اللازمة لإدارة المشاريع الكبرى كافة؛ ولكنها لا تزال غريبة على الرجل الشرقي.

وإذا ناقشنا الموضوع في دقة وحصرناه، فإننا نرى أنه يتوفر لدى كل قائد حقيقي حس معين بالسلوك الواجب، وهذا الأمر على ما يبدو ظل إلى اليوم حكرًا على الغرب. فالغربي يحدد لنفسه هدفًا، ويملك الإرادة اللازمة لبلوغه في وقت محدد، وهو يعرف كيف يضحي براحته الشخصية وعاطفته الشخصية في سبيل إنجاز عمله، ولأنه على علم تام بقيمة الوقت، نرى أنه لا يضيعه سدى، كما أنه يعرف قيمة وفاعلية الآلات التي يشرف عليها، ويعلم أنه إذا أهمل صيانتها فما أسرع ما أن تُستهلك؛ ولذلك فإنه يجب العناية بها ما يتطلب الاهتمام وذهنية التوقع لما قد يحصل. وخصائص العناية والصيانة هي مخصوصة بالغرب ولا أبعد من الحقيقة إن قلت إنه ينبغي التفتيش هنا عن السمة الخاصة المميزة له. ولا يوجد آسيوي يستطيع أن يصون آلة ما. وتضرب جذور الإهمال في أعماق المنزل الشرقي؛ ويحدث ذلك من دون أن يبدو على مالكها أي امتعاض حتى ولو كان موسرًا ويتمتع بذوق سليم. إعطوا الرجل الشرقي إدارة بناء أو شركة أو أشغالًا عامة كبيرة، وعودوا بعد سنة أو بعد عشر سنوات، ستجدون حالًا الفرق مع الزمن الذي كان فيه أوروبي ما هو الذي يديرها. إن كل ما يفتقر إليه الرجل الآسيوي هو الثقة في ذاته بوصفه فردًا، وتحمل المسؤولية الشخصية. ولا يعمل الناس في آسيا أبدًا أي شيء منفردين، بل هم دائمًا أعضاء ضمن مجموعة لها السيادة وهم فيها متكاتفين متعاونين. والمجهود مشترك لدى الآسيويين على غرار ما لدى الأوروبيين. فالمسؤولية موزعة في ما بينهم وكأنها مسؤولية عائلية، والأخلاقية هي أخلاقية الطاعة للوالدين أو للنظم الاجتماعية. وقد يعمل الرجل الآسيوي ساعات أكثر من الأوروبي، على أكبر بساطة وصبر وتحمل جسدي. وقد تقوم المهارة والبراعة عند الآسيويين مقام التنظيم عند الأوروبيين: فالسيارة في يد الميكانيكي الصيني ينتهي أجلها في ستة أشهر... إلا أنها تظل في الاستعمال على علاتها لأكثر من خمس سنوات. ولا تستطيع صناعتنا الأكثر تقدمًا تقنيًا أن تجاري الصناعة العائلية الصينية التي تحقق أسعار تكلفة لا تنافس. ويتكون دائمًا عندنا انطباع أن الرجل الشرقي يهتم بالمشاريع النظرية أكثر من اهتمامه بالمشاريع العملية، تجذبه المهارة الشخصية أكثر من الطريقة والقاعدة، كما أنه لا يرى في الحياة إلا سلسلة من الحوادث العارضة التي يستطيع بواسطة الحظ أو الحيلة أو الدسيسة أن يجعلها تدور لمصلحته.

وإذا ذهبنا إلى الشرق، فإننا نجد فيه صناعات ومشاريع وإدارات تشبه واجهاتها واجهات مؤسساتنا المختلفة، ولكننا سرعان ما نكتشف أن أمهر الشرقيين في ميدان الفاعلية، لا يجاري الأوروبي المتوسط في هذا الميدان. وعلى أي حال، فإن هؤلاء وأولئك ليسوا من طبقة واحدة، فهذا الأوروبي الذي يبدو لنا في بلادنا عاديًا ومن دون ثقافة، هو الذي سنعهد إليه بمسؤولية القيادة هناك، بالأحرى من الوطنيين الذين يكونون لامعين أكثر منه ربما؛ وقد ظلت الأيدي الغربية حتى يومنا هذا هي التي تشرف على المؤسسات العالمية الكبرى وشركات الملاحة البحرية والقنوات الواصلة ما بين المحيطات (مثال قناة السويس قبل تأميمها) وشبكات الدفاع عن الصحة العامة؛ فإذا حصل وتركها الأوروبيون فلا يؤمن أن لا تتأثر الحضارة بوصفها كلًا.

من أين لهؤلاء الغربيين بتلك الإمكانات الفذة؟ لا شك في أن من مصادرها كما سبق القول تلك التقنية المنظمة في إنتاج تطبيقات وممارسات عمل جماعي إنتاجي قائم على وسائل علمية برهنت على مدى نجاحها. بيد أنه يجب أن نعود إلى الوراء إلى مصادر أكثر عمقًا، لأن هذه الطرائق العلمية لم تكن في حد ذاتها إلا وجهًا من وجوه طريقتنا في الحكم على الأمور. ويبدو أننا لم نعرف قدر فاعلية التفكير المنطقي على الطريقة الإغريقية والذي طوّره أمثال بيكون (Bacon) وديكارت (Descartes)، وكلود برنار (Claude Bernard) والذي يقوم على معالجة القضايا بذاتها عبر استبعاد عنيف لكل ما لا يطابق العقل. أما الآسيوي، والأفريقي أكثر منه، فقد أقاموا لكل قضية براهين وحججًا فوق - عقلانية (خارج حدود العقل) تتدخل في بلورة قراراتهم. وقد ترتب على ذلك، أننا قد رأينا في ريف الصين طرقًا معوجة عن قصد، وذلك لمنع الأرواح الشريرة من سلوكها، إذ إن هذه الأخيرة لا تكثر ولا توجد إلا في الطرق المستقيمة. وعلى المنوال ذاته من الاعتقادات أيضًا، نجد الصينيين يستشيرون الجن عندما يفكرون في اختيار مكان لبناء منزل أو مصنع. ولا شك في أن مثل هذه الخرافات موجود عندنا وخصوصًا في الريف، إلا أن الصناعة والمدن قد لاشتها تمامًا.

ثنائيتنا هذه التي تفصل بين ما هو عقلاني وما هو غير عقلاني، إنما تؤمن استقلال الحقل المدني واستقلال الحقل الديني في آن، إلى حد أن رينان كان يستطيع أن يرى في ذلك «دعامة الحرية الحقيقية والحضارة الحقيقية». وقد صنعت هذه الحرية من التفكير الغربي أداة لا مثيل لها للعمل. وفي ظل هذا الطابع، فسّر بيغي (Péguy) فاعلية الطريقة التي وضعها ديكارت بقوله: «إن كل ما أستطيع أن أقوله هو أن طريقة ديكارت هي أيضًا موعظة وآداب سلوك عامة، موعظة في التفكير أو موعظة كي نفكر، وبعبارة أخرى: كل شيء في هذه الطريقة موعظة وآداب سلوك عامة، لأن كل ما فيها هو سلوك وإرادة سلوك؛ وربما يكون أكبر اختراعات ديكارت هنا وأكثر ما فيه من جدة وأفضل ما فيه من إبداع ومن قوة، هو أنه قاد فكره عن سابق تصور وتصميم على أنه فعل وحركة»[12]. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الغربي رجل يسلك بفكرته سلوك الفعل؛ وإن فعله تحدده قواعد فكر واعٍ قادر على مراقبة نفسه بنفسه. وبذلك نعود إلى المنبع الأصلي؛ أي إلى «الحرية النقدية». بيد أن هذه الحرية النقدية تعتمد هي نفسها على الحرية السياسية، ما يجعلنا نلاقي في هذا المقام القول المأثور عن الإغريق: «نحن رجال أحرار». وليس من المبالغة في شيء إذا قلنا: أنه إذا ما قُدِّر أن تختفي الحرية السياسية في أوروبا، فإن حيويتها ستصاب بالضعف. والاقتصاد الموجّه الذي يمتد إلى ميدان الفكر يقضي على نبع لا يعوّض؛ فكل نظام توتاليتاري سيكون قاضيًا على مستقبلنا. ولقد كان سير روبرت بيل[13] (Sir Robert Peel) رجل الدولة البريطاني، في خطابه الشهير الذي طالب فيه عام 1846 بإلغاء الرسوم المفروضة على القمح، يقدّر مدى الفائدة التي تجنيها إنكلترا من مواردها في الفحم ومن صناعتها وفعاليتها الاقتصادية التي لا تقبل المنافسة، لكنه كان يضع فوق كل ذلك، من بين الحجج التي اعتبرها حاسمة لفكرته، نظام الحرية الذي تتمتع به البلاد، فضلًا عن تقاليدها

---

(12) Charles Péguy, *Note conjointe sur M. Descartes et la philosophie cartésienne* (Paris: Gallimard, 1914).

(13) السير روبرت بيل (1788-1850) (Sir Robert Peel, 2nd Baronet) رجل دولة بريطاني محافظ خدم مرتين بوصفه رئيس وزراء (1834-1835) ثم (1841-1846). اشتهر بإصلاحه النظام الجنائي وقوانينه وبتأسيس قوة الشرطة الحديثة.

في حرية المناقشة؛ وهو أنهى يومها خطابه بهذه العبارة: «أهذه حال بلد عليه أن يخشى المنافسة؟». وهذا القول ينطبق على الغرب: بقدر ما يحافظ على الحرية، يظل تفوقه لا يبارى ولا يجارى.

(4)

إن المخاطر التي قد تهدد مستقبل الحضارة الغربية لا تأتيها من الخارج، بل من الداخل. قد نجد سببًا لزوالها في اختلال المبادئ التي توجهها، وفي حقيقة أن الشعوب التي تمسك بقيادتها صارت أكثر فأكثر غريبة بالنسبة إلى محورها التقليدي الأوروبي.

وقد أوضحنا أن دعامة الغرب تتركز في ثلاثة مفاهيم: المعرفة والفرد والتقنية، لكن يجب أن يكون هناك نوع من التوازن بين هذه المفاهيم لا يتخلخل؛ بمعنى أن التقنية تكون في خدمة الفرد لا أن يكون الفرد في خدمة القوى التي نشأت عن التقنية. ونحن جاءتنا الحضارة (لقد تحضّرنا وتمدّنا) قبل ظهور الثورة الصناعية، فهل نحافظ على حضارتنا (على تحضّرنا وتمدّننا) بالمعنى القديم الذي نعرفه، إذا ما تفوقت الفاعلية الميكانيكية على كل اهتماماتنا الأخرى؟ وماديتنا المزمنة والتي لم تضبطها تحذيرات الإنجيل، تزداد أكثر في ظل النظام الديمقراطي الشعبي وتفقد اتصالها بتراث الزهد عندنا، وهو تراث كان منبعًا للنشاط والقوة الأخلاقية. فروح المبادأة توشك أن تزول بسبب الإفراط في نزعة تضخيم قوة الدولة التي تتدخل في كل شيء وتحبذ الامتثالية، لا بل تفرضها، وهذا أمر مناقض للروح الحقيقية للحضارة الغربية. ومثل هذه الحالات العارضة ليست صنيعة خيال متشائم؛ فنحن نراها تحدث تحت سمعنا وبصرنا. فثمة إسراف في فاعلية تدخّل الحكومة، وفي إصدار التعليمات، وفي إغراق الصناعات بكثرة التنظيمات، وفي البعد من الطبيعة السمحة، وفي حياة المدينة، وفي التصنّع وتشويه الحياة الاجتماعية الطبيعية: يترتب على كل ذلك خطورة تنشأ من المبالغة في التوجيهات أكثر مما تنشأ من نقص في التفكير، فالغرب لا يفعل في النهاية غير تضخيم تنظيم جهازه، دافعًا به إلى حدود اللامعقول.

وبعد... فهذه هي السيئات التي تكشفت حتى الآن من العصر الإداري، الذي تحتوي إفراطاته المَرَضية في التنظيم بداخلها بذورًا واضحة جدًا للشيخوخة والهرم. وقد كانت أوروبا حتى الآن بيت الثقافة الأوروبية. أما الآن وقد سحقت بين هذين الجبارين (الولايات المتحدة وروسيا)، فنراها تحتفظ بلا شك بحيويتها الفكرية والخلاقة، ولكنها فقدت إلى حد ما قدرتها على الإنجاز. فهل تتعرض حضارتنا إلى تغيير في خصائصها ما دامت الآن قد أصبحت في يد قادة، أحدهم ليس أوروبيًا والثاني ليس غربيًا خالصًا؟

الولايات المتحدة هي الآن الضامنة الكبرى للحضارة الغربية التي ينتمي إليها مثلنا: وهم مثلنا تمامًا في أنهم يمثلون التقاليد الديمقراطية والمسيحية التي تعبّر عن احترام الفردية والحرية والمبادأة، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن الشعب الأميركي يعيش في إطار جغرافي لا تشبه بنيته بتاتًا الإطار الذي تشكلت فيه أوروبا. لذا، فهل ستستمر وتصمد فلسفتنا في الوسطية والاعتدال؟ نحن نعرف المكانة التي تتمتع بها هناك أمور مثل الكمية والرقم القياسي. فكل شيء هناك يدفع صوب الإنتاج بكميات كبيرة في بيئة مكانية منسجمة إلى حد كبير، وإلى التلبية الكاملة لمتطلبات المعايرة (توحيد العيار والنمط). ومن جهة أخرى، فإن المناخ يتكفل على مر الزمن في تغيير العرق الأبيض الذي جاء بالهجرة واستقر به المقام في هذه الأرض الجديدة. ولا بد أن نتوقع حدوث تغيّرات أخرى بسبب تصدّع التقاليد التي سبق أن ورثتها أوروبا عن ماضيها البعيد «المتوسطي»: فالأميركيون قوم مهاجرون أوروبيون، لا بل حتى «متوسطيون» عبروا المحيط الأطلسي؛ لكن ذوبانهم في هذه الأرض قد قطع الصلة نهائيًا بينهم وبين أصولهم القديمة. وقد ظل تأثير المسيحية قويًا في نفوسهم على الرغم من هزيمته أمام ديانة النجاح في الحياة. وفي هذا الصدد، فإن الحيوية الناجمة عن التكوين التوراتي استمرت هنا، وربما أكثر مما هي في أوروبا. على أن التراث الكلاسيكي لم ينتقل إلى العالم الجديد: هو موجود في جامعاتهم وكتبهم، لكن من دون أن يكون مبدأ حيًا. ونتيجة لذلك فقد تتعرض روح النقد في هذه البلاد إلى الزوال. والامتثالية قد أضحت موقفًا مشتركًا في أميركا، وهو يتجاوب مع الميول الغريزية لنظام يتأسس أكثر فأكثر على مبدأ التنظيم. وقد تقلص ميدان الاختيار والمفاضلة والمبادأة لمصلحة نظام لم يعد يترك للفرد

المكانة التي كانت له في قديم الزمان، ولم تعد هذه الظروف هي الظروف التي تشكلت فيها أوروبا غير الامتثالية، والمفتتة، والثائرة، إنما على الرغم من ذلك أوروبا أمنا. هناك شيء ما جديد في سبيله إلى الظهور في هذه القارة... هذا الشيء الجديد سيبقى يمثل الغرب، ولكنه لن يكون غربنا نحن.

في الطرف الآخر من العالم الغربي، تحمل روسيا هذه العوامل الجماهيرية التي تقلقنا نفسها: إن بنيتها الجغرافية والسكانية والاقتصادية، ليست على مستوى ومقام أوروبا. ومن المستحيل أن تبقى حقيقة لها مثل هذا المدى من دون نتائج. والحلول الروسية تميل إلى التشبه بالحلول الأميركية وليس بحلولنا الأوروبية، لأنهم في البلدين يحملون شعار الجمهرة. والصوفية عند الروس والتي تخترق حتى المادية المعلنة مذهب الدولة الرسمي، لا تنتمي إلى الغرب في شيء. وهذا التواطؤ بين التقنية والتصوف الاجتماعي اللذين يتحالفان ضد الثقافة المعتبرة مفهومًا رجعيًا، يناقض مباشرة المفهوم الإغريقي والمسيحي للفرد الذي يعتبر وحدة روحية مستقلة. وانتصار الشيوعية في العالم معناه نهاية الغرب، ولا تخفي موسكو بتاتًا رغبتها في تدميره.

ولا يغيب عن ناظرنا أن أوروبا قد تخلصت للتو من خطر كان فيه القضاء على التكامل الروحي لشخصيتها. فلو أنها توحدت في ظل السيطرة الجرمانية لكانت شهدت انعقاد قواها في شعاع هجومي؛ تلك القوى التي هي سبب ضعفها حين تكون مشتتة، ولكنها في الآن نفسه هي التي حافظت على خصوبة تنوعها، على خطورتها. وكما أن مقدونيا قادت اليونان كلها إلى حرب انتقام وغزو لآسيا، فإن القيادة العسكرية لشخص مثل هتلر كانت ستؤدي إلى مضاعفة قوة القارة عشرة أمثالها عن ذي قبل، وجعلت منها سيدة العالم بلا شك، ولكن هذه اللعبة أفقدت الهيلينية طهارتها، ولكانت أفقدت أوروبا روحها.

على أن هناك تأثيرات أخرى هي التي ستؤدي اليوم إلى تغيير الحضارة الغربية. وقد عملنا على توضيح الدور الذي قد يقوم به كل من اللاتينيين والفرنسيين والإنكليز والألمان والروس والأميركيين في هذا التغيير... وعلى أي حال، فإن فصلًا جديدًا في تاريخ العالم قد بدأ، وربما يجدر القول إنه كتاب جديد.

ملحق

لائحة بمؤلفات أندريه سيغفريد

Afrique du Sud; notes de voyage, Paris, A. Colin, 1949.

Albert Schweitzer; études et témoignages, Éd. Robert Amadou, Bruxelles, Éditions de la Main jetée, 1951.

Amérique latine, Paris, A. Colin, 1934.

Aspects de la société française, Paris, Pichon, 1954.

Aspects du XX^e siècle, Paris, Hachette 1955.

Cinq propos sur la langue française, avec Mario Roques, Paris, Fondation Singer-Polignac, 1955.

Cotonniers aux Indes, Paris, 1950.

Croisade. Conférences contradictoires, avec Alfred Wautier d'Aygalliers, Charles Riandey, Union de libres-penseurs et de libres croyants pour la culture morale, Paris, Fischbacher, 1931.

De la III^e à la IV^e République, Paris, B. Grasset 1956.

De la IV^e à la V^e République au jour le jour, Paris, B. Grasset, 1958.

Deux Mois en Amérique du Nord à la veille de la guerre (juin-juillet 1914), Paris, A. Colin, 1916.

Discours de réception à l'Académie française. 16 janvier 1947, Éd. Maurice Garçon, Paris, A. Fayard, 1947.

Discours prononcés dans la séance publique tenue par L'Académie française pour la réception de M. Daniel-Rops, le jeudi 22 mars 1956, Paris, Typographie de Firmin-Didot, 1956.

Édouard Le Roy et son fauteuil, avec Henri Daniel-Rops, Paris, A. Fayard 1956.

Edward Gibbon Wakefield et sa doctrine de la colonisation systématique, Paris, Armand Colin, 1904.

En Amérique du Sud: Articles parus dans le Petit Havre de juillet à décembre 1931, Le Havre, Le Petit Havre, 1932.

Enquête politique, économique & sociale sur la Nouvelle-Zélande, Paris, Bureaux de la Revue politique et parlementaire, 1900.

États-Unis, Canada, Mexique: lettres de voyage écrites au Petit Havre, Le Havre, Le Journal, 1936.

Fourrure et pelletiers à travers les âges, avec Jean H. Prat, Paris, Éd. du Tigre 1960.

France, Angleterre, États-Unis, Canada, Paris, Emile-Paul 1946.

Géographie économique. Cours de l'Université de Paris, Institut d'études politiques, année 1953-1954, Paris, Centre de documentation universitaire, 1954.

Géographie électorale de l'Ardèche sous la III République, Paris, Colin, 1949.

Géographie humoristique de Paris, Paris, La Passerelle, 1951.

Géographie poétique des cinq continents, Paris, La Passerelle, 1952.

Histoire politique de la III République. Tome premier, L'avant guerre (1906-1914), avec Georges Bonnefous, Paris, Presses universitaires de France, 1956, 1994.

Impressions de voyage en Amérique: 1914, Le Havre, Randolet, 1915.

Impressions du Brésil. Articles parus dans le Petit Havre du 5 au 19 septembre 1937, Le Havre, Impr. du journal *le Petit Havre*, 1937.

Itinéraires de contagions. Épidémies et idéologies, Paris, Armand Colin, 1960.

La Civilisation occidentale, Oxford, Clarendon Press, 1945.

La Crise britannique au XXe siècle, Paris, A. Colin, 1931.

La Crise de l'Europe, Paris, Calmann-Lévy, 1935.

La Démocratie en Nouvelle-Zélande, Paris, A. Colin, 1904.

La Dignité humaine, avec Russel W. Davenport, Paris, Nouvelles éditions latines, 1958.

La Fontaine, Machiavel français, Paris, Ventadour, 1955.

La Langue française et les conditions de la vie moderne, avec Josef Felixberger, Munich, Hueber 1968.

La Mer et l'empire. Série de vingt-deux conférences faites à l'Institut maritime et colonial, Paris, J. Renard 1944.

La Suisse, démocratie-témoin, avec Pierre Béguin, Neuchâtel, La Baconnière, 1969.

La Technique et la culture dans une civilisation moderne, Paris, F.N. Syndicats d'ingénieurs et des cadres supérieurs, 1953.

La Zone sterling, avec Jean de Sailly, Paris, A. Colin, 1957.

L'Alsace. Photographies originales, avec Michel Nicolas, Paris, del Duca 1953.

L'Âme des peuples, Paris, Hachette 1950.

L'Amérique ibérique, avec Jacques de Lauwe, Paris, Gallimard, 1937.

L'Angleterre d'aujourd'hui: son évolution économique et politique, Paris, Grès, 1924.

L'Angleterre moderne. Le problème social, l'expérience travailliste, avec André Philip, Paris, Ed. G. Crès et Cie, 1925.

L'Année politique, 1946: revue chronologique des principaux faits politiques, économiques et sociaux de la France du 1er janvier 1946 au 1er janvier 1947, Paris: Éditions du Grand Siècle, 1947.

L'Artisanat rural, ses problèmes actuels, avec Lucien Gelly, Paris, Institut d'études corporatives et sociales, 1944.

Le Canada, les deux races; problèmes politiques contemporains, Paris, A. Colin, 1906.

Le Canada, puissance internationale, Paris, A. Colin, 1937.

Le Capital américain et la conscience du roi. Le Néo-capitalisme aux États-Unis, avec A. A. Berle, et Hélène Flamant, Paris, A. Colin, 1957.

Le Centenaire des services des Messageries Maritimes, (1851-1951), Éd. Jérôme et Jean Tharaud, Paris, Ettighoffer et Raynaud, 1952.

Le Développement économique de l'Amérique latine, Paris, SPID, 1947.

Le Grand changement de l'Amérique (1900-1950), avec Frederick Lewis Allen et Roger Blondel, Paris, Amiot-Dumont, 1953.

Le Rôle moral et social d'Israël dans les démocraties contemporaines, Paris, Cahiers d'études juives, 1932.

Le XX[e] siècle, âge de vitesse, Roma, Centro per lo sviluppo dei trasporti aerei, 1954.

L'Économie dirigée, avec Chassain de Marcilly *et al.* Paris, F. Alcan, 1934.

Les États-Unis d'aujourd'hui: avec 8 cartes et figures, Paris, Librairie Armand Colin, 1927.

Les États-Unis et la civilisation américaine, Paris, Centre de documentation universitaire, 1947.

Les États-Unis tels que je les ai vus il y a cinquante ans et cette année, Conférence prononcée à l'Assemblée générale du G.I.R.E.P. le 25 avril 1956, Paris, 1957.

Les Forces religieuses et la vie politique. Le catholicisme et le protestantisme, avec André Latreille, Paris, A. Colin, 1951.

Les Grandes Œuvres politiques de Machiavel à nos jours, avec Jean-Jacques Chevallier, Paris, A. Colin, 1960.

Les Principaux Courants de la pensée religieuse en France: conférence prononcée à l'Hôtel Majestic, à Buenos-Aires le 17 septembre 1931, Éd. Buénos-Ayres: Comité Pro-Église Évangélique de Langue Française, 1931.

Les Problèmes ethniques de l'Afrique du Sud: conférence faite à la tribune de l'Université Coloniale de Belgique à Anvers le 21 février 1949, Anvers, Association des Anciens Etudiants de l'Université Coloniale de Belgique, 1949.

Les Questions actuelles de politique étrangère dans l'Amérique du Nord, Paris, F. Alcan, 1911.

Les Voies d'Israël. Essai d'interprétation de la religion juive, Paris, Hachette 1958.

L'Esprit de l'histoire d'Angleterre, avec A. L. Rowse, Paris, R. Julliard 1951.

L'Occident et la direction spirituelle du monde. Allocution prononcée le vendredi 18 novembre 1932, Neuilly, *La Cause*, 1932.

L'Œuvre scientifique d'André Siegfried, Paris, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 1977.

Mes Souvenirs de la III[e] république. Mon père et son temps, Jules Siegfried, 1836-1922, Paris, Presses universitaires de France, 1946.

Mes Souvenirs d'enfance, Bourges, Tardy, 1957.

Mon Village sous la IV[e] République, avec Henri Baudet, et Corrie Siohan-Psichari, Ed. Groningen, 1965.

Normandie, avec Noël Le Boyer, Paris, Hachette 1957.

Nous sommes restés des Hommes, avec Sidney Stewart, Québec, Le Club des livres à succès, 1950, 1961.

Pourquoi la Mission? Éd. Marc André Boegner, Paris, Société des Missions Évangéliques, 1950.

Progrès technique et progrès moral, avec Nicolas Berdiaeff, et al. Neuchâtel, La Baconnière, 1948.

Quelques Maximes, Paris, J. Haumont, 1946.

Quelques Règles à observer dans le travail, [S.l, s.n.], 1900-1950.

Qu'est-ce que l'Amérique?, Paris, Flammarion 1938.

Savoir parler en public, Paris, Michel 1950.

Suez, Panama et les routes maritimes mondiales, Paris, A. Colin, 1940.

Tableau des États-Unis, Paris, A. Colin, 1954.

Tableau des partis en France, Paris, B. Grasset 1930.

Tableau politique de la France de l'Ouest sous la Troisième République. 102 cartes et croquis, 1 carte hors texte, Paris, A. Colin, 1913; réimp. Genève/Paris/Gex, Slatkine Reprints, 1980; réimp. Paris, Impr. nationale éditions, 1995; reimp, Bruxelles, Éditions de l'Université de Bruxelles, 2010.

Vers un Ordre économique et social, Eugène Mathon 1860-1935: sa vie, ses idées, ses œuvres, avec Henry-Louis Dubly, Paris, [s.n.], 1946.

Vocation de Pont-à-Mousson, Nancy, 1957.

Voyage aux Indes, Paris, Colin, 1951.

Vue générale de la Méditerranée, Paris, Gallimard 1943.

Préfaces

Préface de *Le Destin des races blanches*, d'Henri Decugis, Librairie de France, 1935.

Préface de *Questions de langage*, de Louis Piéchaud, Éditions du Lys, 1952.

المراجع

Books

Arendt, Hannah. *Les origines du totalitarisme.* Paris: Seuil, 1950.

Barrès, Maurice. *Du Sang, de la volupté et de la mort.* Paris: G. Charpentier et E. Fasquelle, 1894.

Bedin, Véronique et Martine Fournier (dir.). *Gustave Le Bon, La Bibliothèque idéale des sciences humaines.* Paris: Sciences humaines, 2009.

Daudet, Alphonse. *Numa Roumestan.* Paris: G. Charpentier, 1881.

Durtain, Luc. *L'Autre Europe: Moscou et sa foi.* Paris: Gallimard, 1928.

Freud, Sigmund. *Psychologie collective et analyse du moi.* Paris: Payot, 1921.

Hillerin, Laure. *La comtesse Greffulhe, L'ombre des Guermantes.* Paris: Flammarion, 2014.

Le Bon, Gustave. *Civilisation des Arabes, Livre I à VI.* Paris: Firmin-Didot, 1884.

________. *Psychologie des foules, collection: Les livres qui ont changé le monde.* Paris: Félix Alcan, 1895.

Morand, Paul. *Hiver Caraïbe.* Paris: Flammarion, 1926.

Péguy, Charles. *La France.* Paris: Gallimard, 1939. (Collection N.R.F.)

________. *Note conjointe sur M. Descartes et la philosophie cartésienne.* Paris: Gallimard, 1914.

Renan, Ernest. *Vie de Jésus.* Paris: Calmann-Lévy, 1863.

Rivière, Jacques. *L'Allemand. Souvenirs et réflexions d'un prisonnier de guerre.* Paris: Gallimard, 1918.

Tharaud, Jérôme et Jean Tharaud. *Notre cher Péguy.* Paris: Plon, 1926.

فهرس عام

-ب-

-ج-

-ح-

-ض-

-ط-

-ع-

-غ-